١٢

جامعة دمشق
كلية الآداب
قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية

نظرية الافكار الفطرية في المذهب العقلي

والنقد التجريبي لها عند جون لوك

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الاداب
قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية

إعداد
محمد جابري عبد الرحمن

باشراف الأستاذ الدكتور
طيب تيزيني

١٠٢٨
جامعة أم القرى / مكة المكرمة
عمادة شؤون المكتبات
قسم المخطوطات
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

مكتبة المختار
١٩٨٣ - ١٩٨٤

مقدمـــــــة

مقدمـــة :
=======

لقد وقع اختياري على موضوع في نظرية المعرفة ، بعنوان : " نظرية الأفكـــار الفطرية في المذهب العقلي والنقد التجريبي لها عند جون لوك " ، وذلك لعـــدة اعتبارات منها :

١- أهميته في مشكلة المعرفة الإنسانية بشكل عام .

٢- إن الخوض في مثل هذه المواضيع في اللغة العربية يجعل المثقف العربي يعيش جانبا من جوانب الفكر العالمي ، وليساهم بالتالي في بلورة رؤية فلسفيـــة علمية ، تساير ركب التطور للفكر الفلسفي العلمي لديه .

٣- إن اختياري لهذا الموضوع لم يكن نوعا من الاغتراب الفكري كما قد يتبـــادر لذهن البعض ، أي الابتعاد عن قضايانا العربية ، بل كان أصلا لخدمـــة تلك القضايا وتكريسا لها .

٤- كما دفعني لاختيار هذا الموضوع وبصورة خاصة فلسفة لوك ، لأن لوك أول من وضع مشكلة المعرفة الإنسانية في تاريخ الفكر الفلسفي موضع بحث منظم .

وقد لا أكون بعيدا عن الصواب إذا قلت إن نظرية المعرفة لم تكن قائمـــة بذاتها إلا في عصر جون لوك ، ولم تصبح موضوعا مستقلا إلا على يده . وقد آثـــرت أن يشمل البحث أربعة أبواب وخاتمة .

تناولت في الباب الأول حياة لوك وأهميته في تاريخ الإنساني .
وتحدثت في الفصل الأول عن حياة لوك وأعماله الفلسفية
وتحدثت في الفصل الثاني عن أهميته في تاريخ الفلسفة ، ثم تناولت فـــي الفصل الثالث أهم العوامل التي أثرت في فلسفته .

وأدرجت في الباب الثاني تحليل الفكر عند لوك .

فتحدثت في الفصل الأول عن تكوين الأفكار ، وكيفية استخدام عبارتها . اذ يرى لوك أن مصدر الأفكار هو الإحساس والتفكير . فالإحساس يمد عقولنا بالأفـــكار عن الخصائص والكيفيات الجسمية كالشكل والحجم والصلابة .

والتفكير يزود عقولنا بالأفكار المتعلقة بعملياته الداخلية كالتذكر ، والتخيـــل ، والإدراك .

وفيما يتعلق باستخدام عبارة الأفكار ، نجد أن لوك يستخدم الفكرة بمعان مختلفة ،ورغم هذا التنوع في استخدامها ، هناك حد مشترك بينها ، يتمثل في أن الفكرة هي موضوع العقل ، أو هي ما يمكن أن يقوم في عقل الإنسان أثناء عملية التفكير .

وتناولت في الفصل الثاني أنواع الأفكار ، يميز لوك بين نوعين من الأفكار : الأفكار البسيطة ، والاعتبارات المتصلة بها من كيفيات الأشياء أولية وثانوية .

أفكار مركبة ،ويميز بين ثلاثة أنواع من الأفكار المركبة :

اولا - أفكار مركبة عن الاعراض .

ثانيا - أفكار مركبة عن الجوهر .

ثالثا - أفكار مركبة عن العلاقات ، هذا فضلا عن القوى الخالصة كاللذة والألم .

وخصصت الباب الثالث لمجال المعرفة .

فتناولت في الفصل الأول أنواع المعرفة عند لوك ،وهو يميز بين ثلاثة أنواع من المعرفة : المعرفة الحدسية ،المعرفة البرهانية ، المعرفة الحسية .

وتحدثت في الفصل الثاني عن المعرفة بين اليقين والاحتمال . ثم تناولت في الباب الرابع ، الأفكار الفطرية في المذهب العقلي ، وموقف لوك منها .

فتحدثت في الفصل الأول عن المذهب العقلي بشكل عام . وقارنت بين هذا المذهب وعملية التذكر .

وتحدثت في الفصل الثاني عن المكانة الهامة التي تحتلها الأفكار الفطرية في نظرية المعرفة عند العقليين (ديكارت ، سبينوزا ،لايبنتز) .

وتناولت في الفصل الثالث ، المكانة الهامة لنقد نظرية الأفكار الفطرية في فلسفة لوك .

وفي الخاتمة عرضت تلخيصا لأهم الموضوعات التي تؤكد المزايا التي تميزت بها فلسفة العقليين ، وفلسفة لوك التجريبية بشكل خاص ، مبرزا أثرها في الفلسفة الحديثة المعاصرة لها ، واللاحقة بها .

* مسألة المنهج :

اتبعت في هذا البحث المنهج التاريخي ، الذى يربط بين الظواهر الاجتماعية الاقتصادية والسياسية ،وما بينها من علاقات متبادلة ، وما ينتج عن ذلك

من تغير وتطور .

وفيما يتعلق بالصعوبات :

قد لا أكون بحاجة إلى التأكيد على الصعوبات التي لاقيتها في اعداد هذا البحث ، وإن كانت بعض هذه الصعوبات راجعة إلى ندرة المصادر والمراجع ، ومن أهم ما حصلت عليه :

١- " مقالة في الفهم الانساني " لجون لوك باللغة الفرنسية .

٢- " مقالات جديدة للايبنتز باللغة الفرنسية ايضا " .

٣- " مقالة الطريقة " لديكارت ، بالفرنسية ، وقد ترجم الى اللغة العربية .

٤- وكتاب عن سبينوزا ، ترجم الى العربية .

هذا بالإضافة إلى عدة مراجع ، يوجد تشتيتها في آخر البحث ، وتكمن الصعوبة الثانية في الترجمة ، فهي تحتاج إلى الدقة في المفاهيم والمصطلحات ، والتعبير عن روح النص بأسلوب جيد .

الغاية من البحث :

لقد كان غرضي في الأساس هو أن أفتح نافذة جديدة على فكر نحن بأمس الحاجة للتعرف عليه ، اعتقادا مني بأهمية الدور الذي مارسته الفلسفة الحديثة في الفكر الإنساني .

واقتناعا مني بحاجتنا الماسة إلى استخلاص وفهم ما في هذه الفلسفة من جديد ، وفتح باب الحوار بين الفكرين العربي والأوربي .

ولا بد من الإشارة إلى أهمية الحلقات الدراسية ، والمناقشات التي كانت تدار مع الزملاء ، باشراف الاستاذ الدكتور طيب تيزيني ، وليس من شك في أنها مارست دورا فعالا وهاما في إغناء هذا البحث ، وفي إثرائه .

وأود في النهاية أن أتقدم بشكري الخالص إلى أستاذي الدكتور طيب تيزيني الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث ، والذي لم يبخل علي بملاحظاته وتوجيهاته القيمة التي أعترف أنها أنارت السبيل أمامي ، وذللت كثيرا من الصعوبات التي كانت تواجهني أثناء البحث . ويرجع له الفضل كل الفضل في ما حققه هذا البحث ، وما انتهى اليه .

لقد كان لإشرافه ما شجعني على المضي والاستمرار بما قدمه لي من نصائح وإرشادات .

كما أتقدم بشكرى الخالص الى الأستاذ الدكتور صادق جلال العظم ، مشرفي السابق ، بما قدمه لي من ملاحظات ، فلم يستطع الاستمرار في الاشراف لظروفه الصحية . وأتقدم بشكرى الخالص كذلك إلى أساتذتي ؛

الدكتور عادل العوا ، والدكتور بديع الكسم ، والمرحوم الدكتور اسعد درقاوى . وقد حصل لي الشرف التتلمذ عليهم .

وإلى الأستاذين زياد مقاس ، وبلال حسناوى اللذين تفضلا بمراجعة البحث لغويا .

وإلى كل الزملاء الذين ساهموا في إعداده .

ولا يسعني هنا إلا أن أشير إلى ما يمكن أن يتخلل البحث من زلل وهفوات ولا أدعي أني قد أحطت بكافة جوانب الموضوع .

وأنا في انتظار ملاحظاتكم ، لاستكمال جوانب البحث التي تحتاج لدراسة أعمق وأشمل ، وتقويم ما تشيرون إلى تقويمه منها .

***

الفهـــــرس

الموضـــــوع :	الصفحة
مقدمة	آ ـ هـ
الفهرس	و
الباب الاول : حياة لوك وأهميته في تاريخ الفكر الإنساني	١
الفصل الاول : حياة لوك وأعماله الفلسفية	٢
الفصل الثاني : أهميته في تاريخ الفلسفة	١٤
الفصل الثالث : أهم العوامل التي أثرت في فلسفته	٣١
الباب الثاني : تحليل الفكر عند لوك	٤١
الفصل الاول : تكوين الأفكار ، وكيفية استخدام عبارتها	٤٢
الفصل الثاني : أنواع الأفكار	٥٤
الباب الثالث : مجال المعرفة	٩٤
الفصل الاول : أنواع المعرفة	٩٥
الفصل الثاني : المعرفة بين اليقين والاحتمال	١١٩
الباب الرابع : الأفكار الفطرية في المذهب العقلي وموقف لوك منها	١٣٤
الفصل الاول : المذهب العقلي ومقارنته بعملية التذكر عند أفلاطون	١٣٣
الفصل الثاني : المكانة الهامة التي تحتلها الأفكار الفطرية في نظرية المعرفة عند العقليين (ديكارت ، سبينوزا ، لايبنتز)	١٤٥
الفصل الثالث : المكانة الهامة لنقد نظرية الأفكار الفطرية في فلسفة لوك	١٧٩
خاتمة :	٢٢١
المصادر والمراجع :	٢٢٨

***

الباب الأول

حياة لوك وأهميته
في تاريخ الفكر الانساني

الفصل الأول

حياة لوك وأعماله

يعتبر لوك أحد كبار ممثلي المادية الانجليزية ، وقد ولد في ٢٩ اغسطس (آب) ١٦٣٢ في رينجتون بمقاطعة سومرست بإنجلترا إبان حكم الملك شارل الاول .

كان أبوه محاميا ، وملاكا صغيرا ، ولما اندلعت الحرب الأهلية ، حارب في صف البرلمان الذى كان يتألف من مجلس اللوردات (النبلاء) ، ومن مجلس العموم (١).

ومن الجدير بالذكر أن البرلمان كان يطرح عدة مطالب منها (٢) :

١- رفض مطالبة الملك بالحق الالهي ، الذى يضعه فوق القانون .

٢- إعطاء الحق للبرلمان دون سواه بغرض الضرائب .

٣- المطالبة بضرورة اجتماع البرلمان وفق جدول زمني معين ، بدلا من أن يجتمع في مناسبات .

تلك هي بعض المطالب التي ناضل من أجلها البرلمان لفترة طويلة . استمرت الأوضاع السياسية والاجتماعية في انجلترا في التدهور ، فنشبت الحرب بين الملك (شارل الأول) ، وأنصار البرلمان ، وتم النصر للبرلمان بقيادة أوليفير كرومويل ، وهو أحد الملاكين الريفيين ، وعضو بارز في الجيش البرلماني (٣) .

في سنة ١٦٥٣ قرر كرومويل حل البرلمان ، بعد تواطئه مع الاقطاع ، وقد ألقى بهذه المناسبة خطابا أمام أعضائه نقتطف منه الفقرة التالية : " انكم تسمون أنفسكم برلمانا ، وأنتم لستم ببرلمان ، إنني أقول لكم أنكم لستم برلمانا أيها المخربون الظالمون ، أقول لكم هيا ، اذهبوا ، وذعونا نتخلص منكم ، اذهبوا بحق الاله " (٤).

وهكذا أقام بحل البرلمان بطريقة أعنف ، وأكثر قسوة من الطريقة التي حل بها أيام شارل الأول . ومن ثم أصبح الحاكم المطلق لانجلترا .

---

(١) ب . م هولت ، صانعو أوربا الحديثة - ترجمة : موفق شقير . منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ١٩٨٠ ، ص : ١٦٦ .

(٢) رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، الكتاب الثالث ، ترجمة : د . محمد فتحي الشنيطي الهيئة المصرية ١٩٧٧ ، ص : ١٦٦ .

(٣) ب . م ، هولت ، صانعو اوربا الحديثة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : نفسها

(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٧١ .

وهذا ما جعل كروميل وحكومته يفقدون شعبيتهم.[1] ولما توفي كروميل ، وكان ذلك سنة ١٦٥٨ ، استولى أحد الضباط العسكريين على السلطة ، وانتخب البرلمان من جديد ، وقام باستدعاء شارل الثاني (ابن شارل الاول) ليحكم انجلترا ، والذى عاش كلاجئ في هولندة ، ظل مختبئا - كما قال رسل - وراء اشجار البلوط . وبهذا عادت الملكية من جديد سنة ١٦٦٠ . وكان يبدو أن كل ماناضل من أجله البرلمان على الصعيد السياسي قد ضاع ،[2] فالملك ومجلس اللوردات اعيدا الى وضعهما السابق في الحكومة ، والاساقفة اعيدت اليهم اعتباراتهم ، وسلطتهم على الكنيسة .

وفي ذكرى مرور سنة واحدة فقط على وفاة شارل الاول تم اخراج جثتي كروميل وصهره من قبرهما ، وعلقتا في الساحة العامة بلندن ، ومع ذلك حاول شارل الثاني أن يغير الى حد ما من مواقفه السابقة المتصلبة ، ولم يكن ليتم ذلك لولا الضغوط السياسية والاجتماعية آنذاك . فلم يعد مثلا يفكر في إقامة حكم مطلق ، أو يطالب بفرض ضرائب لا يوافق عليها البرلمان . ولما مات شارل الثاني ١٦٨٥ ، جاء بعده اخوه جيمس الثاني وهو آخر ملوك آل ستوارث الاستبدادية . ولم يرض عنه الشعب اطلاقا ، وذلك لتعصبه الشديد للاتجاه الكاثوليكي في المسيحية من جهة ، ولتمسكه بنظرية حق الملوك المقدس في الحكم من جهة أخرى . لهذا السبب رغب الشعب في التخلص منه . وإثر اعتلائه على العرش ، أرسل عدة زعماء في انجلترا الى ملك بروتستاني (ويليام اورانج) حاكم هولندة ، يطالبونه مهاجمة انجلترا لتخليصهم من الملك الكاثوليكي ، فقبل دعوتهم . وفر جيمس الثاني هاربا الى فرنسا يجر اذيال الخيبة والفشل .

وبذلك اصبح ويليام اورانج ملكا لانجلترا ، باسم ويليام الثالث .[3] وما تجدر الاشارة اليه ، ان ويليام قد وافق على القانونين اللذين كانا قد صدرا عن مجلس اللوردات ، ومجلس العموم وهما :

وثيقة الحقوق ، وقانون التسامح الديني .[4]

---

(١) ب . م ، هولت ، صانعو اوربا الحديثة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص ١٧١

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٧٢ .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات السنبقة نفسها ، ص : ١٧٧ .

(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

وفي غمار كل هذه الاحداث عاش جون لوك متربعا بين ثناياها ، والتي كانت في الواقع مأثرة في عملية تشكيل آرائه السياسية والفلسفية . فقد عاصر الثورة البرجوازية (١) . التي كان من نتائجها قيام المصالحة والمساومة بين البرجوازية ونخبة من النبلاء . وليس من شك في أن هذه الثورة قد فسحت المجال أمام تطور الرأسمالية في انجلترا . فبتواطوء البرجوازية الإنجليزية مع فئة النبلاء ، استطاعت أن تحقق مزيدا من النجاحات لتوسيع رقعة حقوقها في المجال السياسي ، وللقضاء على مخلفات الاقطاعية ورواسبها . وقد مثل جون لوك في هذا النضال دورا بارزا ، وفعالا كاقتصادي وسياسي وفيلسوف.

من المعروف أن لوك كان ينزع الى الليبرالية* التي كان من أهدافها تحديد سلطات الملك أو رئيس الدولة عن طريق البرلمان ، واطلاق الحريات السياسية ، ولو في إطارها الضيق على أحسن الغروض . وكانت بواكير الليبرالية من نصيب انجلترا وهولندة .(٢) والتي كان لها في ذلك الحين جوانب ايجابية ، واخرى سلبية . وتكمن الجوانب الايجابية في العمل من أجل التسامح الديني ، واعتبار حروب الدين حروبا سخيفة لا مبرر لها .

كما تتمثل في الاهتمام بالمجالات الاقتصادية ، الصناعة والتجارة . وترجيح نشأة طبقة وسطى بدلا من الارستقراطية الاقطاعية ، ووجهها السياسي وقت ذاك (الملكية) ثم في رفضها - وهذا مهم جدا - الحق الالهي للملوك في الحكم .

وفي مقابل ذلك ، فثمة جوانب سلبية أذكر منها : تواطوءها مع الارستقراطية ، والاخذ بمبدأ الوراثة ، ولو انه كان مقيدا بشروط معينة من التي كان فيها من قبل ، هذا النوع من الليبرالية ساد انجلترا في اواخر القرن السابع عشر ، وشارف القرن الثامن عشر .

وأول قضية شاملة في الفكر الليبرالي نجدها عند لوك ، الذى كان يحترم القيم الانسانية ، والحرية الفردية ، سواء في الدين او في الاجتماع ، او السياسة .

---

(١) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، ترجمة : توفيق ابراهيم سلوم ، مراجعة : د . خضر زكريا ، الجزء الاول ، دار الجماهير العربية ١٩٦٠ ، ص : ٢٦٦ .

(*) وقد تعني الليبرالية في ظروف محددة موقف المساومة والتساهل تجاه العدو الطبقي والخنوع والاستسلام ، (راجع القاموس السياسي) تأليف : ب. ن. بونوماريوف ، ترجمة واعداد : عبد الرزاق الصافي ص : ١٩٧ .

(٢) رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، المرجع السابق ص : ١٦٠ .

فبعد أن أنهى لوك دراسته في مدرسة وستمنستر ١٦٤٦ التي درس فيها اللاتينية واليونانية ، التحق بجامعة اكسفورد ، ودرس فيها العلوم الطبيعية والطب والفلسفة . وقد اهتم في البداية بدراسة العلوم الطبيعية ، ولعل السبب في ذلك يعود الى صداقته لأكابر علماء عصره ، كاسحق نيوتن ، وهو عالم في الطبيعيات . وروبرت بويل R . Boyle . مكتشف قانون بويل* في الفيزياء ، وأحد مؤسسي المجمع العلمي البريطاني ، التقى به لوك سنة ١٦٦٨ ، ونشأت بينهما صداقة متينة ، ومعلوم ان لوك ساعد بويل لعدة سنوات في بعض التجارب التي كان يقوم بها .(١)

وفوق هذا ، نلاحظ ان انجلترا قد بدأت بالاهتمام بالمكتشفات العلمية في ذلك الوقت . وانصب اهتمامها بصورة خاصة بأعمال جليليو ، وبعلماء عصره . وفي ضوء ذلك شكلت جمعية من العلماء في لندن ، سميت بالجمعية الملكية "Royal Society" وأصبح لوك عضوا فيها سنة ١٦٦٨ ، وهي المدة ذاتها التي تم فيها لقاء وتعاون بين لوك وسدنام Sydnham في ميدان الطب .(٢)

اما بخصوص الفلسفة التي كان يدرسها في اكسفورد ، فانها لم تكن في نظره إلا مزيجا من فلسفة القرون الوسطى تتخللها عبارات غامضة ، وافكار مبهمة ، التي لم تكن لتشبع طموحه ، وتتناسب مع تطلعاته .

لذا نراه يواصل دراسته الفلسفية معتمدا على دراسته الخاصة ، يقرأ للفلاسفة البارزين ، وعلى وجه التحديد فرنسيس بيكون ، وديكارت . وأدت به الى الشك في المعرفة المدرسية (الاسكولائية) .

فعلا ينتهي لوك الى رفض الفلسفة المدرسية للقرون الوسطى . وفي سنة ١٦٥٦ إستطاع آن يحصل على شهادة البكالوريوس ، وحصل في عام ١٦٥٨ على درجة الماجستير في الفلسفة .

ثم عين بعد ذلك أستاذا للفلسفة اليونانية والأخلاق في مدرسة الكنيسة باكسفورد .

1-John Locke,Draft "A"Première Esquisse de l'essai philosophique concernant l'entendemnt humain,traduction et notes par maryléme Delbourg-Delphie, Paris .J.Vrin. 1974,P:12

2- Ibid , P:13

* قانون بويل القائل بأنه في كمية معطاة من الغاز في درجة حرارة معطاة ، يتناسب الضغط تناسبا عكسيا مع الحجم . (راجع رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٧٢ .

وفي سنة ١٦٦٥ ينتقل لوك الى المجال السياسي ، فيعمل سكرتيرا للبعثة الدبلوماسية تحت رئاسة سرولترفين ، وبعد مغادرته اكسفورد ، واصل دراسته العلمية .

وفي هذه الأثناء يتعرف لوك على الرجل السياسي البارز ، زعيم المعارضة - اللورد إشلي - الذى عرف لاحقا باسم لورد شافتسبرى ، ولما كان يعمل لديه كمستشار سياسي وطبيب ، لم تنقطع أبدا اتصالاته بالاوساط العلمية .(١)

ومما لا شك فيه ، أن لورد اشلي قد أثر تأثيرا مباشرا في حياة لوك ، الذى وجد نفسه في معترك الحياة السياسية ، لقد ناضل من اجل الحرية ، ودافع عنها بشدة وحزم ، غير ان الدفاع عن الحرية ، خاصة في ظل الحكم الإستبدادى لم يكن أمرا سهلا أبدا ، ذلك أن دعاتها لا بد وأن يلاقوا فيه أحد أمرين : إما السجن أو النفي ، وإما الموت . إلا أن لوك ، رغم ذلك كله ، إستطاع أن يمكث في انجلترا مدة أطول نسبيا ، دون أن يتعرض لسوء ، ويرجع الفضل في هذا إلى صديقه وولي نعمته لورد اشلي ، الذى كان - كما سبق القول - شخصية سياسية بارزة في انجلترا ، أثناء حكم شارل الثاني .

وفي سنة ١٦٧٥ سافر لوك الى فرنسا ، وظل فيها أربع سنوات تقريبا ، التقى خلالها بعدد من الفلاسفة وفي مقدمتهم مالبيرانش الميتافيزيقي المثالي ، وبيرنيه أحد تلامذة جاسندى ، وتوماس هربرت (بمبروك Pembrocke) الذى أهدى اليه لوك مؤلفه " مقالة في الفهم الانساني " .(٢)

ثم عاد الى انجلترا بعد ذلك ، ليستعيد نشاطه مع صديقه لورد اشلي . الا أن هذا الاخير اتهم بالتآمر ضد السلطة ، ففر إلى هولندة ، حيث مات هناك(٣) ، ولم يشترك لوك في هذه المؤامرة ، ومنذ عودته من فرنسا ، أقام في اكسفورد ، لكن الشبهات بدأت تحوم حوله ، بسبب صداقته للورد اشلي . ففر هو الآخر الى هولندة سنة ١٦٨٣ ،

1- Ibid , P: 12

2-Locke, Essai philosophique concernant l'entenolement humain, traduit par coste, Paris, librairie philosophique, J.Vrin, 5em édition 1972, P .6.

(٣) ب . م . هولت ، صانعو اوربا الحديثة ، المرجع السابق ، المعطيات نفسها ص : ١٨١ .

التي حدث فيها تطور اقتصادى ، وظهرت فيها طبقة وسطى تشق طريقها الى التحرر ، كما قامت فيها في الوقت ذاته حركة اصلاح ديني ، وجعل كل ذلك من هولندة مقرا لاكبر فلاسفة أوربا ومفكريها يومئذ ، وعلى رأسهم ديكارت وسبينوزا . ومع كل هذا لم يشعر لوك بالاستقرار الذى كان يطمح اليه ، خاصة وأن حكومة جيمس الثاني وضعت اسمه في القائمة السوداء . وأكثر من هذا ، طلبت عودته وآخرين من الذين لهم علاقة مع حزب "الويغ" *.

واضطر لوك الى التخفي في بادئ الأمر ، لكن ذلك لم يدم طويلا . فسرعان ما ظهر علانية ، واصبح معروفا من قبل ويليام اورانج حاكم هولندة ، وأن اصدقاءه في انجلترا لم يقفوا مكتوفي الايدى ، وانما بادروا لمساعدته ، فطلبوا عفو الملك جيمس الثاني عنه ، فوافق على هذا الطلب ، إلا أن لوك قابل هذا العفو بالرفض ، مبررا رفضه هذا - وهو على حق - بإن العفو لا يصدر إلا عن جريمة ، فهو لم يرتكب جريمة قطعا ، بل على العكس تماما ، إنه وقف ضد الاجرام ، ضد الاستبداد بكل أشكاله وأنواعه ، سياسيا كان ، أو فكريا أو دينيا . وليس من الغرابة في شيء أن يعتبر هذا الملك ، ومن كان على شاكلته ، أن الدفاع عن الحرية جريمة ، لأنه يرى في ذلك تهديدا لعرشه ، ولمصالح طبقته . لهذا آثر لوك البقاء في هولندة ، وليحدث ما يحدث ، منصرفا الى الكتابة والتأليف .

وخلال هذه المدة انتج أكبر مؤلفاته السياسية ، منها على وجه التخصيص "مقالتان في الحكومة المدنية" (١) .

وفي هذه الفترة بالذات ، بدأت بوادر الثورة تلوح في الأفق ضد الملك جيمس الثاني ، الذى كان متمسكا - كما أشرت من قبل ، بحق الملوك المقدس في الحكم . وفي سنة ١٦٨٨ حصلت الثورة ، وأطلق عليها الثورة المظفرة . وعند اويليام اورانج

---

* كان في انجلترا حزبان رئيسيان معروفان على التوالي باسم : الويغ (Whigs) والتورى Tories . كان هذا الاخير يدعم سلطة الملك ، ونظرية الحق الالهي ، بينما كان الويغ يعتقد ان الملك يجب ان يحكم مع البرلمان ، بل يجب ان يكون للبرلمان سلطة اكبر (راجع الكتاب السابق : صانعو اوربا الحديثة) ص: ١٨٠

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ص : ١٨١ .

ملكا لإنجلترا ، وكان هذا بالطبع نصرا كبير الحزب الويغ ، ولجون لوك كذلك .

وقد أقرت الثورة وثيقة الحقوق على استمرار الحكومة البرلمانية في انجلترا .

في ١٨ شباط (فبراير) ١٦٨٩ أبحر جون لوك الى انجلترا .[1] وأصبح له مركزا مرموقا ، فطبقت شهرته الآفاق ، لا في انجلترا فحسب ، بل في القارة الاوربية ايضا . وذلك باعتباره الممهد للثورة ، والمبشر بمبادئها . والتي أعدت فيما يبدو الظروف المواتية لنشوء الطبقة الوسطى ، وظهور الفكر البرجوازي .[2]

من المعروف أن لوك قد اعتلى عدة مناصب في الدولة . فلما اعتزل الخدمة ، قضى بقية حياته في هدوء الريف ، وفي صحبة اصدقائه أسرة ماشام ، من بينهم فرنسيس ماشام وزوجته ، في نشر بحوثه ، في الفلسفة والسياسة ، التي أحدثت ولا شك تحولات هامة في الفكر الفلسفي خاصة ، وفي الفكر الانساني عامة .

وكانت وفاته في ٢٧ اكتوبر ١٧٠٤ ، وهي السنة التي اعد فيها الطبعة الجديدة من مؤلفه الذي ظهر سنة ١٧٠٦ .[3]

مؤلفاته :

نجد ان التعاليم الاجتماعية تشكل جانبا مهما في مجمل نظام لوك الفلسفي ، وذلك نتيجة مشاركته الفعلية في الحياة السياسية ، والنشاط الاجتماعي بشكل عام ، ودفاعه عن الحرية الفردية بشكل خاص . ففي مؤلفه " رسالتان في الحكومة المدنية " يعطينا لوك صورة واضحة عن دولة دستورية برجوازية . وفيها يرى المثل الاعلى . وهنا يهاجم نظرية الحق الالهي المقدس التي استغلها الملوك لفرض السيطرة على شعوبهم . زاعمين أنهم ورثة هذا الحكم من الله . فيمنحون لأنفسهم كامل الحق في صياغة القوانين التي يرون أنها تخدم اغراضهم ، وتحمي مصالحهم . وما على عامة الشعب إلا الطاعة والانقياد لتلك القوانين دون معارضة . لأن هذه القوانين - على حد زعمهم - مستمدة من السلطة الالهية ، ويجب تقديسها .

1-Locke, Essai philosophique , Ibid, P.6

(٢) عبد الفتاح ابراهيم ، الاجتماع والماركسية ، دار الطليعة - بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٨٠ - ص : ١٠٤ .

3-Locke, Essai philosophique , Ibidem.

لوك يرفض هذه النظرة جملة وتفصيلا ، إذ يرى أن الناس في الحالة البدائية كانوا يعيشون أحرارا ، والقانون الطبيعي هو الذى كان يحكم سلوكهم ، وينظم علاقاتهم الطبيعية . بينما هوبز يعتقد ان الحالة البدائية كان يسودها نوع من الإضطراب والفوضى ، حالة حرب للكل ضد الكل .(١) القوي يأكل الضعيف ، والحق للاقوى دائما . الانسان ذئب للإنسان . والمجتمع البدائي وفق هذا التصور مجتمع ذئاب ، وهذه الذئاب - حسب هوبز - تحاول ان تضع نفسها في مأمن من شر بعضها لبعض ، تاركة ذئبا واحدا ، وهو ذئب الذئاب مسؤولا ، ومكلفا بالدفاع عن المجتمع ،(٢) او هكذا يبدو في الظاهر على الاقل ، ويتجسد في الحاكم المطلق ، أو كما يطلق عليه "الوثيان Leviathan"* وهدفه الوحيد الحفاظ على ذاته ومصالحه ، ذلك شيء فظيع حقا - إذ هو ايديولوجية الحكم المطلق ، ما يصرح به لا يمكن بأى حال أن يوضع موضع نقاش او أن يسأل ثانية ،(٣) على هذا اعتبر هوبز الملكية المطلقة أفضل انواع الحكم .

ولسنا بحاجة الى التذكير بأن الملكية المطلقة ، كانت في عصر هوبز الصيغة السياسية للمساومة التي تمت بين النبلاء والبرجوازية ،(٤) هذا من جانب ، ومن جانب آخر أن حق السلطة المطلق لم يكن يقتصر على سلوك الفرد فحسب ، بل ومعتقداته ايضا ، (الدينية والاخلاقية ، وحتى العلمية منها) وعلى السلطة الكنائسية هي الأخرى يجب أن تمتثل للسلطة الزمنية . وهكذا بقي هوبز حتى آخر أيامه نصيرا متحمسا للحكم الديكتاتورى المطلق . وبالرغم من كل هذا ، فقد كانت لآرائه الاجتماعية قيمة تاريخية على درجة كبيرة من الأهمية ، فكان يعارض النظرة الاقطاعية الدينية للدولة بنظرية ترى في ظهور الدولة تعبيرا عن ضرورة طبيعية في تطور المجتمع ذاته ، لا تجسيدا لمشيئة الله على الارض ، واعتبر الدولة جهازا للقسر ، غير انه لم يدرك ان هذا القسر عينه ليس الا سيطرة وهيمنة طبقة على اخرى .(٥)

---

(١) رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، الكتاب الثالث ، المعطيات السابقة نفسها ، ص: ١٩٩ .

(٢) ارنست بلوخ . فلسفة عصر النهضة - ترجمة الياس مرقص ، دار الحقيقة - بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٨٠ ، ص : ١٣٧ .

* الوثيان : هو اسم الحوت في سفر ايوب ، يكنى به هنا عن الحكم المطلق . راجع المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ص : ١٣٣ .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٣٧ .

(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٣٧ .

(٥) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص: ٢٥٧

ونقطة اختلاف أخرى بين لوك وهوبز نجدها في مجال العقد الاجتماعي . هوبز كما رأينا ، ينفي وجود الحق الطبيعي فلم يظهر هذا الحق إلا في المرحلة اللاحقة ، في المرحلة الأرقى . أى في الوقت الذى ظهرت فيه الدولة ،او القيام العقد الاجتماعي . لوك يرى أن العقد الاجتماعي يقوم ، ليس لضمان الحق الطبيعي ، الحق الطبيعي قائم منذ البداية ،هذا يعني أن العقد يسلب حقوق الناس لحساب رئيس الدولة ، كان الناس يتنازلون عن حقوقهم بموجب الدولة . ماذا يعني هذا ؟

يعني الغاء تبعية ومسؤولية الحق الطبيعي على عاتق الدولة ورئيسها ، فالدولة إذن في سلوكها غير مطلقة ، أى أن حريتها ليست مطلقة ، بحيث إذا قام رئيس الدولة بخرق هذه المسؤولية العقدية المتعاقد عليها ، فالرعية تصبح حرة ، ومتحررة من طاعته ، فلها الحق ان تنتفض وتثور ، تقوم بثورة ضده اذا كان حكمه سيئا .(١)

لوك اذ يرفض مبدأ هوبز في الطبيعة المطلقة اللامحدودة واللامشروطة للدولة ، الدولة مطاعة بقدر تنفيذها للعقد ، وغير مطاعة بتجاوزها للالتزامات العقدية . والسمة الاخرى التي يمكن ان نميزها في تعاليم لوك السياسية ، هي محاولته لفهم الحياة السياسية للمجتمع ككيان معقد ، وكبناء يملك مقومات وجوده .

محاولة لوك هذه أدت به في نهاية المطاف الى تقسيم السلطة السياسية (سلطة الدولة) الى ثلاثة اقسام :

١- سلطة تشريعية .
٢- سلطة تنفيذية .
٣- سلطة فيدرالية .(٢)

ويقصد لوك بهذه الأخيرة قيادة السياسة الخارجية للبلد ، أى تنظيم علاقة البلد مع البلدان الاخرى . كما أن شكل الدولة - في نظره - يختلف من مكان الى آخر ، وأنه توجد ثلاثة أنواع للدولة :(٣)

---

(١) ب . م . هولت ، صانعو اوربا الحديثة ، المعطيات السابقة نفسها . ص: ١٨٢
(٢) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ص : ٢٥٧ .
(٣) ب . م . هولت ، صانعو اوربا الحديثة ، المعطيات السابقة نفسها ص: ١٨٣ .

١- الملكية ،وفيها تكون السلطة في يد رجل واحد .

٢- حكم الاقلية (الاوليغارشية) حيث تكون السلطة في يد فئة من الناس .

٣- الحكم الديمقراطي : وفيه تكون السلطة في يد الغالبية من الناس ، ويمارسونها بواسطة ممثليهم في البرلمان .

وهذا النوع من الدولة هو أفضل أشكال الحكومة في نظره ، وفي هذا الصدد كتب لوك ضد مؤيدي الحق الالهي للملوك . وبوجه خاص الى (روبرت فيلمر) الذى كان مؤيدا مخلصا لهذا الحق ، ولا شك أنه عانى معاناة شديدة لإعدام شارل الاول ، ولانتصار كرومويل .(١)

وقد ألف كتاب " الباطريارکا "* حاول أن يبين فيه أن الله قد منح الملوك سلطة فوق رعاياهم كسلطة الآباء على أبنائهم . وعندما يموت الملك تنتقل هذه السلطة بالوراثة الى الإبن الأكبر ، وهكذا ،وبهذه الطريقة اعتقد فيلمر أن آل ستوارت ورثوا السلطة عن آدم .(٢)

كما كان يعتقد أن مجلس اللوردات (النبلاء) وحدهم طبقا للدستور الانجليزى يسدون النصيحة للملك . وأن الملك وحده الذى يضع القوانين ، وبالتالي فهو متحرر تماما من الرقابة ايا كان نوعها .(٣)

ويمكن القول أن مؤيدى الحق الإلهي يزعمون أن الملك قد اختير من قبل الله ، والثورة ضده هي خطيئة كبرى ، لكن لوك يرد عليهم بقوله ، بأن جميع الحكومات قد أقامها الناس ، ومن الممكن قانونيا القضاء عليها عندما تثبت عدم صلاحيتها . ويبدو مما تقدم أن لوك كان أكثر جذرية من هوبز ، ذلك أن هوبز - كما شاهدنا - كان

---

(١) رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، المعطيات السابقة نفسها ،ص : ١٩٠ .

* النظام الأبوى ،وقد نشأ بعد النظام الاموسي ، وكانت السمة النوعية المميزة له سيطرة الرجل في الاقتصاد ، وفي ظل طريقة الحياة في مجتمع العشيرة . وقد نشأ في الوقت الذي أدى فيه أول تقسيم اجتماعي للعمل على نطاق واسع أى فصل الرعي عن الزراعة الى التطور السريع نسبيا للقوى الانتاجية ... والملكية الخاصة والعبودية (راجع المجموعة من العلماء السوفييت الموسوعة الفلسفية) ص: ١٨٢ ترجمة : سمير كرم ، مراجعة د . صادق جلال العظم وجورج طرابيشي الطبعة الثانية - دار الطليعة - بيروت ١٩٨٠ .

(٢) ب.م. هولت ، صانعو اوربا الحديثة ، المعطيات السابقة نفسها ،ص : ١٨٢

(٣) رسل ،تاريخ الفلسفة الغربية ،المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسهاص : ١٩٠

نصيرا للدولة المطلقة ، في حين أن لوك كان نصيرا للديمقراطية ، ومن الواضح ان آراءه السياسية عموما كانت تبريرا ، وتدعيما نظريا لحزب الليبرالية " الويغ " .(١)

كما ألف لوك كتابا في التربية تحت عنوان " افكار عن التربية " يعرض فيه آراءه المتعلقة بالتربية والتعليم ، وطالب فيه باستقلال التعليم عن الكنيسة ، هذا فضلا عن رغبته في تزويد التلاميذ بنتائج العلوم الطبيعية .

كذلك ، له رسالة عن التسامح الديني ، طالب فيها لوك الا يكون الدين جزءا من اهتمامات الدولة ، مادامت الدولة تقام من قبل الناس ، وليس من قبل الله ، كما هو الحال بالنسبة لدعاة الحق الالهي ، ولا يمكن للدولة ان تمنع الناس من ان يعتقدوا ما يشاؤون .

الا ان لوك عاد ليستثني الكاثوليكيين والملحدين ، ولعل السبب في ذلك راجع الى ذلك النوسان الذي عانت منه انجلترا في مجالات مختلفة ، اجتماعية وسياسية .

أما فيما يتصل بالفلسفة ، فان أغلب ما كتبه في هذا المجال كان حصيلة مناقشاته مع اصدقائه . فقد الف مسودة "آ" ومسودة "ب" سنة ١٦٧١ ، الاولى نشرت من قبل آرون Aron سنة ١٩٣٦ .

والثانية من قبل (راد B.Rad) سنة ١٩٤١ والمسودة (س) بتاريخ ١٦٨٥ .(٢)

ولما غادر لوك هولندة ، كان مؤلفه : " مقالة في الفهم الانساني " على وشك الانتهاء ، لكن لوك ، مع ذلك ، واصل بحثه ، فلم يتوقف أبدا عن مراجعة نصوص هذا المؤلف ، التي خصها تعديلا وتصويبا ، ويتضمن بحثا حول مصادر الافكار والمفاهيم .(٣)

ويطرح فيه بشكل عام نظريته التجريبية في المعرفة . ويعد أول بحث معرفي منظم يتناول بالدرس والفحص إمكانية المعرفة وحدودها ، وماهيتها ، واصلها ودرجة اليقين فيها .

---

(١) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المطبعة السابقة نفسها ، ص : ٢٧٢ .

2-Locke, Essai philosophique, Ibid,P:5

3-Ibid; P .2

ففي الكتاب الأول يعرض بالتحليل والنقد نظرية الأفكار الفطرية ، ويمكن القول أنه استطاع بحججه المقنعة الى درجة ما ، أن يبين أن ليس هناك ما يدل على وجود أفكار ومبادىء فطرية في العقل ، معلنا في الوقت نفسه أن التجربة هي المعين الوحيد لكل الأفكار ، والتجربة عنده نوعان ، تجربة موضوعية خارجية ، وتجربة داخلية .

فبالتجربة الخارجية يحصل الذهن على أفكار الاحساس ، بتأثير الموضوعات الخارجية على الحواس ، أما التجربة الداخلية المعتمدة على التفكير ، ففيها يتم تحويل الأفكار البسيطة الى الأفكار المركبة .

ويتناول في الكتاب الثاني الأفكار ، ويصنفها الى أفكار بسيطة ومركبة .

وفي الكتاب الثالث ، يدرس فيه اللغة وأهميتها ، وتأثيرها على الفكر ، وأسماء الجوهر .

وفي الكتاب الرابع والأخير ، يبحث في المعرفة ، مجالها وانواعها .(١)

ولا شك أن فهم فلسفة لوك بشكل أعمق ، يعتمد أساسا على فهم حياته السياسية . فلا يمكن بأي حال من الأحوال فصل فلسفته عن آرائه ونظرياته السياسية .

فالسياسة ، والفلسفة عنده مسألتان مرتبطتان لا انفصام بينهما ، الواحدة تؤثر وتتأثر بالاخرى ، فرده على فيلمر المتشبث بالحق الالهي المقدس للملوك - كما شاهدنا - ورفضه لوجود افكار فطرية في العقل ، على أنها قبلية ، أى سابقة على التجربة ، لهو دليل واضح على وجود علاقة تجادل بين آرائه السياسية ، ونظريته في المعرفة .

***

---

(١) Ibid, P.2

الفصل الثانـــي

اهمية لوك في تاريخ الفلســـفة

١- ايجابية لوك ، وفضله على الفكر الانساني لا يتجلى فقط في الجانـــب الإجتماعي والسياسي من تعاليمه ، بل تتجلى أيضا في المجال الفلسفي .

فاذا كان الفضل لديكارت في كسر شوكة الواقعية المدرسية المتطرفة ، بمنهجه الرياضي ، ونظريته في الشك ، التي تؤلف - في الواقع - أول نظرية معرفية عقليـــة ضد الفكر القديم ، وضد اللاهوت في العصر الوسيط . فهو يؤكد أنه ينبغـــي أن نتفحص آراء الفلاسفة ، ورجال الدين ، وأية سلطة كانت ، الا نسلم بصـــدق شيء ما لم يتضح لنا بالبداهة انه كذلك (١) .

فلوك بدوره أحدث تحولا خطيرا في الفلسفة ، فقد حررها من تخصصـــها المحدود ، وحولها من دراسة باطنية سرية الى علم يقوم على الملاحظة التجريبيـــة والاستقراء ، والحكم السليم (٢) .

ففي الوقت الذى يعترف فيه ديكارت بالحجج التي يعرف صدقها بصـــورة قبلية ، سابقة على كل تجربة ، فان لوك يعتمد على ملاحظة العالم الخارجي ، والموجود وجودا موضوعيا ، خارج وعينا ، ومستقلا عنه (٣) .

٢- انه كان اول من افرد لمشكلة المعرفة بحثا خاصا ، ووضعها في اطـــار مستقل ومنظم ، بعد ان كان البحث فيها مرتبطا بمشكلات فلسفية أخرى ، إذ أن نظرية المعرفة لم تكن قائمة بذاتها إلا في عصر لوك ، ولم تصبح موضوعا مستقلا إلا على يده .

إن لوك يظهر امامنا فيلسوفا كبيرا ، فقد أجاد وأبدع في حقل الفلســـفة ولا سيما في نظرية المعرفة ، فألف لهذه الغاية " مقالة في الفهم الانساني " . ويذكـــر

1-Voir descartes, discours de la methode, introduction par : J.M. Fataad , Bordas, Paris ,1976 ,P:72

(٢) ايسايا بيرلين - عنصر التنوير ، ترجمة : د . فؤاد شعبان ، مراجعة ناظـــم الطحان - منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ١٩٨٠ .ص : ٣١ .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

لوك في مقدمة هذا المؤلف كيف أن مجموعة من أصدقائه كانوا يعقدون لقاءات في منزله ، لمناقشة المسائل الفلسفية ، غير أن النتائج التي تمخضت عنها تلك الجلسات يبدو أنها لم تكن مرضية ، لنقرأ لدى لوك : " . . . قد طرأ بذهني اننا قد سلكنا مسلكا باطلا ، وأنه كان من الضروري قبل أن نشرع في القيام ببحوث من هذا النوع ان ندرس قدراتنا الخاصة لنرى أي الموضوعات تستطيع أذهاننا أن تعالج ، وأيها لا تستطيع " . (١)

بهذا المعنى فإن الخطوة الأولى لحل المسائل المتعلقة بالفلسفة تتلخص في تحليل عقلنا الخاص ، وفي دراسة إمكاناته وقدراته ، وفي تحليل الأشياء التي يقوى على البحث فيها . لوك يطرح هذه المشكلة ، ويحاول بناء نظرية تجريبية مادية متكاملة للمعرفة . يحددها في الكتاب الرابع على النحو التالي : (٢)

١- إن نظرية المعرفة هي البحث في أصل المعرفة البشرية ، وفي يقينها ومداها ، وهي المسألة الثانية في العمل الفلسفي ، بعد مسألة الوجود .

٢- إنها - أي المعرفة - إدراك الاتفاق والاختلاف بين فكرتين . وهذا الاتفاق على اربعة انواع :

أ- وحدة الذاتية وتعددها .

ب- العلاقة .

ج- وجود شيئين في آن معا ، او الارتباط الضروري ، كتأثير الحديد في المغناطيس .

د - الوجود الحقيقي .

٣- في درجات المعرفة :

أ- المعرفة الحدسية .

ب- المعرفة البرهانية .

ج- المعرفة الحسية ، وسنأتي الى تفصيلات هذا الموضوع فيما بعد .

1-Lock, Essai philosophique, Pre face de l'auteur,P:XXIX

2-Ibid,P:(427-479).

واعتمادا على هذا التحديد يمكن استخلاص الموضوعات التي تتناولها نظريـــــة المعرفة فيما يلي :

١- البحث في امكان المعرفة وحدودها .

٢- موضوعها .

٣- طبيعتها .

٤- طرائقها .

فيما يتصل بإمكان المعرفة وحدودها : هناك من الفلاسفة الذين يؤمنون إيمانـــا أعمى بصدق آرائهم ، وبصحة معتقداتهم من غير أن يقيموا الدليل او البرهان على صحة ما يؤمنون به (١) .

فآراء هؤلاء هي وحدها الصحيحة ،وما عداها فوهم وباطل . فهؤلاء هم القطعيون (الدغماتيون) * .

والى جانب هذه النزعة ، هناك الشك ،والشك يمكن تصنيفه الى نوعين :

١- النزعة الارتيابية .

٢- الشك المنهجي .

١- النزعة الارتيابية :

تيار فلسفي ظهر في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد ثم عاد الى الظهور في القرنين الاول والثاني للميلاد .

وينطلق اصحاب النزعة الريبية من التوقف عن اصدار الأحكام . والإكتفاء بتعليقهـــا ، أو وضعها بين قوسين - حسب لغة ادموند هوسرل ، والامتناع عن تفضيل أحد الحكمين المتناقضين على الآخر (٢) .

من الملاحظ أن هذه النزعة ظهرت أول ما ظهرت ،في الفلسفة القديمة عنـــــد الفلاسفة الإيليين ،وخاصة عند بارمنيدس . وفي آراء افلاطون عن العالم الحسي (٣) .

---

(١) د . يحيى هويدى ، مقدمة في الفلسفة العامة - الطبعة الثامنة - القاهرة ١٩٧٢ ص : ١٢١ .

* القطعية (الدغماتية) : هي الجمود العقائدى والمذهبي ، تقوم على اساس مفاهيم لا تقبل التطور او التغير (راجع المجموعة من العلماء السوفييت - الموسوعـــــة الفلسفية ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٣٧٦ .

(٢) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١١٤ .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ،الصفحة نفسها .

أما السوفسطائيون فيبرز منهم جورجياس ، الذى انتهى الى القول "لا شيء موجود ، وانه إن وجد شيء ، فليس هو بممكن المعرفة ، وانه حتى لو فرضنا جدلا أن ثمة شيئا موجودا فان شخصا ما أتيح له أن يعرفه ، فيستحيل عليه أن ينقله الى الآخرين"(١).

ويمكن اجمال القضايا التي حاول جورجياس البرهنة عليها في الصورة التالية :

١- أن لا شيء موجود .

٢- إنه بالافتراض ان الوجود موجود ، فلا يمكن معرفته .

٣- وبالافتراض ايضا ، اننا أدركنا هذا الوجود وعرفناه ، لا نستطيع ايصاله الى الغير .

١- فبرهانه على القضية الاولى " ان لا شيء موجود " يتلخص على حد قوله بأنه اذا وجد شيء فاما انه اللاوجود ، او الوجود ، او كلاهما .

فإن كان اللاوجود ، فمن الواضح أنه غير موجود ، فاللاوجود عدم . فإن وجد اللا وجود فانه سيكون موجودا وغير موجود في آن واحد ، وهذا مستحيل .

ولا يمكن من جهة أخرى أن يكون الوجود موجودا لأنه إن وجد ، فإما أنه خالد . والخالد ليس له بداية ولا نهاية ، فهو لا محدود ، واللامحدود لا مكان له ، وبالتالي فهو غير موجود . ولا يمكن ان يكون مخلوقا ، اذ لو كان كذلك لوجب ان ينشأ من شيء ، أما من الوجود ، أو من لا وجود ، وكلا الفرضين مستحيل .(٢) أما أن يكون الوجود موجودا ، وغير موجود معا ، فهذا تناقض ، قد ثبتت استحالته .

٢- وبرهانه على القضية الثانية يتلخص في أن الفكر مختلف عن الواقع ، بمعنى أن ليس هناك مطابقة بين الفكر والوجود . وعلى هذا لا نستطيع معرفة هذا الوجود .

٣- أما برهانه على القضية الثالثة والأخيرة فهو يرى أنه حتى لو فرضنا أننا عرفنا هذا الوجود ، وهذه الأشياء ، لا نستطيع ايصالها الى الآخرين ، لأن ما نوصله اليهم ، ما هو الا مجرد كلام في كلام ، وليس شيئا موجودا ، وجودا حقيقيا .(٣) هنا تتجلى النزعة الارتيابية في أوضح صورها .

---

(١) رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٣ .

(٢) دكتورة حلمي مطر - الفلسفة عند اليونان - دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٤ . ص : ١٢٧ .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

وقد وصف افلاطون جورجياس في محاورة فيدروس " بأنه قد عرف بقدرته الفائقة في الاقتناع ، فقد كان يستطيع ان يظهر الصغير كبيرا ، والكبير صغيرا ، ويضفي على القديم البالي سمة الجديد وبريقه ، وعلى الحديث سمة القديم " (١) .

ومع ذلك تبقى هذه النزعة غير متماسكة ، فلم تظهر كمذهب فلسفي متكامل إلا في العصر الهيلنستي ، عصر تفسخ أسلوب الانتاج العبودى ، (٢) ومن أهم الشخصيات التي برزت في هذا الاتجاه هم على التوالي : بيرون Pyrrhon ، وأناسيديموس Amesidemus ، وسكستوس امبريقوس Sextus Empericus .

فبالنسبة لبيرون فهو يرى أن على الانسان الذى يطمح لبلوغ السعادة ، أن يجيب عن أسئلة ثلاثة : (٣)

١- ما تتألف الاشياء ؟
٢- كيف يجب أن يكون موقفنا منها ؟
٣- ما الفائدة التي نجنيها من موقفنا هذا ؟

فيما يتعلق بالسؤال الاول ، لا جواب عنه ، لانه - على حد زعمه - ليس بمقدورنا أن نعين حقيقة الاشياء ، وماهيتها ، اذ أن الاضداد كلها يمكن أن تنطبق عليها ، فلكل حكم نقيض يعادله .

وللإجابة عن السؤال الثاني ، يرى أن الموقف الفلسفي من الاشياء يقتضي التوقف عن اصدار أى حكم عليها ، وهذا لا يعني انكارا لوجود الأشياء ، إننا ندرك هذه الاشياء ، ونحس بالظواهر المختلفة ، وهذا شيء ثابت ويقيني ، لكن مصدر أخطائنا يكمن في الاحكام . لهذا السبب يجب أن نتوقف عن الحكم . ومن هنا نصل الى السؤال الثالث ، والجواب عنه ، وهو أن المنفعة التي نجنيها من الإمتناع عن اعطاء الاحكام هي حالة من السكينة والطمأنينة ، وعدم التذمر . وهذه - في نظره - هي السعادة القصوى التي يمكن أن يحققها الفيلسوف . (٤) وهذا ما ذهبت اليه الفلسفة المدرسية في العصر الوسيط لاحقا .

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٢٦ .
(٢) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١١٤ .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١١٥ .

وهكذا تطورت النزعة الارتيابية فيما بعد على يد أتباع بيرون وتلامذته كأنسيدموس وسكستوس أمبريقوس وهو أحد ممثلي النزعة الارتيابية المتأخرة في القرن الثاني الميلادي .(١)

ولا بدأ بحجج أنسيدموس ، ويمكن تلخيصها في الآتي :(٢)

١- إنه لا يمكن الحكم على حقيقة الأشياء ، وذلك ، لاختلاف الكائنات الحية ، وقدراتها وإمكاناتها المختلفة على الإحساس ، فما تراه عين زيد ، قد لا تراه عين عمرو .

٢- تختلف الاحكام باختلاف طبيعة الأشخاص ، فالبعض أقدر مثلا على ملاحظة الأشياء المتباينة ، والبعض الآخر أقدر على ملاحظة الأشياء في توافقها وتناغمها .

٣- تختلف الاحكام باختلاف الحواس ، قد تظهر مثلا الفاكهة في العين باهتة اللون ، لكنها حلوة المذاق في الفم ،(٣) وما الى ذلك من الحجج الأخرى التي يعرضها ، كاختلاف الاحكام بسبب التغيرات في حالتنا الصحية والنفسية ، أو بسبب الاختلاف في النظم والعادات والقيم في المجتمعات المختلفة . وفيما يتعلق بسكستوس أمبريقوس ، فقد انتهى الى أن الشاك لا يحتاج الى معرفة مبادىء عامة ، ولا إلى اليقين بحقائق ، بل يتبع الطبيعة ، ويسير كما يسير الناس ، وبالنهاية سيصل الى النتائج بغير معرفة بالمبادىء .(٤)

هذه هي النزعة الارتيابية التي تتخذ - كما رأينا - الشك من أجل الشك ، وهذا الشك وسيلة وغاية في الوقت ذاته ، يبدأ صاحبه شاكا ، وينتهي شاكا . لا من علم ، ولا من معرفة ، لا أحد يعرف ، ولن يستطيع أحد أن يعرف .

٢- الشك المنهجي :

من الواضح ان النزعة الارتيابية قد انتهت بنا الى انكار المعرفة ، اما الشك المنهجي ، فهو منهج يفرضه صاحبه ، لكي يفحص الافكار والمعارف والمعتقدات للتأكد من صحتها ومن صدقها ، وخلوها من المغالطات والاخطاء .(٥)

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٢) دكتورة حلمي مطر ، الفلسفة عند اليونان ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٣٧٤ .
(٣) المرجع السابق : المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٣٧٦ .
(٥) د . امام عبد الفتاح امام ، مدخل الى الفلسفة ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة القاهرة : ١٩٧٠ ، ص : ٣٠٣ .

فهو إذن ليس غاية في ذاته كما هو الحال بالنسبة للشك المطلق ، وإنما وسيلة للوصول الى المعرفة الصادقة .(١)

والشك المنهجي مهم وأساسي في بناء المعرفة ، لجأ اليه سقراط لما كان يجري الحوار مع الأثينيين ، وعرف منهجه هذا بمنهج التهكم والتوليد .(٢)

ومعنى التهكم هنا ، طريقة كان يتخذها سقراط في طرح الأسئلة على الناس مع إظهار الجهل بالموضوع الذى كان يسأل عنه ، لإثارة الشكوك في حجة آرائهم ، وإثبات جهلهم .(٣)

وكان سقراط في طريقته التهكمية هذه ، شاكا في كل شيء ، وغالبا ما كان يصل بمحاوريه الى حالة من الحيرة .

يقول مينون مخاطبا سقراط : " لقد أعتدت أن اسمع عنك الكثير ياسقراط ، فقد كانوا يقولون أنك تشك في كل شيء ، أنك تجعل غيرك يصل إلى هذه النتيجة ، ويبدو لي الآن أنهم كانوا على حق في قولهم هذا ، فأنت - فيما أعتقد - أشبه ما تكون بسمكة البحر التي يطلقون عليها اسم سمكة الرعد والتي يقال انها تصيب بالرعشة والتخدير كل من يلمسها ، أو يقترب منها ، ولقد فعلت ذلك معي فأصبتني بالرعشة في جسمي وروحي معا ، فلم أعد أدرى كيف أخبرك جوابا " .(٤)

فسقراط هنا لا يقف عند الجانب السلبي من منهجه ، بل يواصل سيره في هذه الطريق الى أن يصل الى ما يمكن تسميته بالتوليد ، وذاك هو الجانب الايجابي من منهجه .(٥)

فالتوليد لفظة يقال ان سقراط استعارها من مهنة أمه ، التي كانت مولدة (قابلة) ، فان كان ثمة من فرق بينهما ، فهو ، أن الأم كانت تساعد الامهات

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٢) دكتورة حلمي مطر ، الفلسفة عند اليونان ، المعطيات السابقة نفسها ص : ١٤٦
(٣) د . امام عبد الفتاح امام - مدخل الى الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٣٠٢ .
(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها . الصفحة نفسها .
(٥) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

الحوامل اثناء الوضع ، بينما كان سقراط يساعد محاوريه - إن جاز القول - على توليد الافكار فيهم (١) وهذا إشارة الى أن المعرفة في نظر سقراط فطرية في النفس ، بمعنى " أن الأطفال يولدون وفي أنفسهم جميع الوان المعرفة ، ولكنهم يحتاجون الى قليل من العون حتى يتذكروا هذه المعارف " (٢) فمهمة المعلم في رأى سقراط تكمن في القيام بمساعدة الآخرين على استخراج ما في نفوسهم من معارف ، وسأتناول هذا الموضوع بشيء من التفصيل عند الحديث عن نظرية الأفكار الفطرية .

أما في العصر الوسيط نجد الغزالي في كتابه " المنقذ من الضلال " وهو كتاب منهجي (٣) يطرح فيه الغزالي نظريته في الشك .

ما هو السبيل الى معرفة صائبة يكون منها معتقد سليم ؟ وهذا سؤال في صلب نظرية المعرفة .

الغزالي يشترك مع فرنسيس بيكون وديكارت في منهج الشك ، ولكن موضوعه كان يختلف عن ذلك . فقد انتهى شكه الى حقيقة الايمان بالخالق ، فيقول : " ولم يكن ذلك بنظم دليل او ترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف " (٤) .

والامر يختلف مع بيكون في العصر الحديث ، إنه حاول بناء نظرية علمية على أساس هذا الشك ، محاولة بناء نظرية منهجية في المعرفة . فقد انطلق بفلسفته من هدف أساسي هو اكتشاف الحقيقة من أجل تسخيرها لخدمة الإنسان . تلك هي الغاية التي سعى اليها بيكون لتحقيقها في كتابه : " الارغنون الجديد " . مؤكدا في هذا الكتاب أن الشرط الضروري لإصلاح العلم هو تنظيف العقل من الاوهام ، ويميز أنواعا اربعة من الاوهام :

١- أوهام القبيلة .

٢- أوهام الكهف .

---

(١) دكتورة حلمي مطر ، الفلسفة عند اليونان ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٤٧

(٢) د . امام عبد الفتاح امام ، المنهج الجدلي عند هيجل ، دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٦٨ ، ص : ٦٦ .

(٣) راجع الغزالي ، المنقذ من الضلال ، بقلم : د . عبد الحليم محمود ، دار الكتب الحديثة - الطبعة الثانية ١٩٧٤ ، ص : ٩٠ .

(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ص : ٩١ .

٣- أوهام السوق .

٤- أوهام المسرح .

ثم جاء بعده ديكارت وهو أكبر الفلاسفة الذين وضعوا أسس الشك المنهجي ، فقد اتخذ الشك وسيلة للوصول الى الحقيقة اليقينية . فهو يعلن في القاعدة الاولى من قواعد منهجه ضرورة " أن لا أتلقى على الاطلاق أى شيء على أنه حق ما لم أدرك بالبداهة انه كذلك ، أى أن أعني بتجنب التعجل والتشبث بالأحكام السابقة ، وأن لا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل لعقلي في وضوح وتمييز ، لا يكون لدى معهما أى مجال لوضعه موضع الشك " (١) .

لكن ديكارت فيما يبدو أغفل الأساس التجريبي ، وذلك باعتماده بساطة المبادىء ووضوحها (٢) . اذ أن معيار اليقين عنده ليس في الممارسة ، بل في الوعي الانساني .

وتعود إمكانية بلوغ المعرفة في رأيه الى وجود أفكار أو حقائق فطرية ، تأتي في مقدمتها المسلمات .

وهذا بوجه الاجمال ما يتعلق بالنزعة الارتيابية والشك المنهجي .

٢- موضوع المعرفة :

في النظر الى مصدر المعرفة ثمة مذهبان أساسيان :

آ- المذهب العقلي

ب- المذهب التجريبي

آ- المذهب العقلي مذهب يقول بأن للعقل قدرة فطرية بفضلها نستطيع ان نقيم المعرفة ، ولا يمكن ، وفق هذا المذهب استنباط الكلية والضرورية ، وهما الصفتان المنطقيتان الملازمتان للمعرفة ، من التجربة ، إنما يمكن استنباطهما فقط من العقل نفسه ، إما من مفاهيم فطرية في العقل ، أو من مفاهيم لا توجد إلا في شكل استعدادات مسبقة في العقل ، (٣) وبناء على التصور يمكن القول : ان هذا المذهب

1-Descartes,Discours de la mothode , traduction par:J.M.Fataud.P.72

(٢) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المطبعات السابقة نفسها ، ص : ٢٤٠ .

(٣) راجع (مصطلحات فلسفية)، اشراف : د . محمد عزيز الحبابي ، دار الكتاب الدار البيضاء ، ص: ١٣٥ ، وكذلك الموسوعة الفلسفية لمجموعة من العلماء السوفييت ، المطبعات السابقة ،ص : ٤٧٢ .

يعتمد بصورة أساسية على البرهان الرياضي ، واستدلالاته ، فيبدأ ببديهيات أو حقائق أولية واضحة بذاتها لا تحتاج إلى برهان . وخير مثال على ذلك الهندسة الاقليدية التي تبدأ بمجموعة من البديهيات ، مثل : الخط المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين والكل أكبر من أجزائه ، إذا اضيفت كميات متساوية الى أخرى متساوية ، كان مجموع النواتج متساويا . . . الخ ، وكان ممثلو هذا المذهب في القرن السابع عشر : ديكارت ، وسبينوزا ، ولايبنتز . وفي القرن الثامن عشر كانط وفخته وشلنج وهيجل وغيرهم .

فديكارت - كما رأينا - يؤكد على البداهة ، والبداهة الرياضية هي الغاية التي كان ينشدها من وراء فلسفته . فالأحكام الرياضية - في تصوراته - بسيطة غير مركبة ، قليلة العدد ، يسلم بها الناس جميعا . وتستند هذه الأحكام في الأساس على عمليتين هما : الحدس والاستنباط . والحدس بشكل عام هو القدرة على فهم الحقيقة مباشرة . وندرك بالحدس (١) - حسب ديكارت - الطبائع البسيطة ، وهي الخصائص المجردة ، مثل الوجود ، والامتداد والحركة والزمان والمكان الى غير ذلك ، ٢ - الحقائق الاولية التي لا تقبل الشك مثل الكوجيتو " أنا أفكر اذن أنا موجود " (Cogito ergo sum) . ٣ - المبادىء الرياضية والمنطقية ، مثل الخطان المتوازيان لا يلتقيان . ومبدأ الذاتية الذى يقول ، ان الشيء لابد ان يكون هو ذاته ، ولا يكون شيئا آخر ، الشيء هو هو ، ويمكن التعبير عنه بصيغة رمزية على هذا النحو : أ هي أ

ومبدأ عدم التناقض : كأن نقول : لا يمكن أن يوجد الشيء ، ولا يوجد في آن واحد . وبصيغة رمزية نقول : لا يمكن أن تكون أ ولا أ في الوقت ذاته . (٢) والوسط المرفوع ، أو الثالث المرفوع ، كأن نقول : هذه القضية إما صادقة أو كاذبة ، هذه وكثير غيرها مبادىء عقلية فطرية تكون في العقل بطريقة قبلية ، وهي في اعتقاد المذهب العقلي واضحة بذاتها ، وانها بالتالي صادقة بالضرورة ، وبهذه الصورة لا يمكن ان تكون حقائق بعدية ، تستمد عن طريق التجربة .

---

(١) د . امام عبد الفتاح امام ، مدخل الى الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص: ٢٦٠ .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

ومعلوم أن الحدس عند لا يبنتز هو نفسه الذى قصده ديكارت ، ويرى أن الحقائق الاولى التي نعرفها بالحدس لا تحتاج الى برهان ،وكذلك الأمر بالنسبة لسبينوزا الذى يعتقد بأن الحقائق التي تدرك بالحدس ، يدركها العقل مباشرة من غير دليل او برهان .

- الاستنباط : إن هو إلا عملية الاستدلال تستخلص فيها النتائج من مقدمات نسلم بها ، أو كما يقول ديكارت ، عملية ذهنية نستطيع من خلالها أن نستخلص فكرة من أفكار أخرى نعرفها على وجه اليقين . وهذه العملية الاستدلالية يتم الانتقال عبرها من الكل الي الجزء ، أو من العام إلى الخاص ،وهو عكس الاستقراء (١) .

ويبدو قصور المذهب العقلي - كما هو واضح - في انكاره للقضية القائلة بان الكلية والضرورة صدرتا عن التجربة . كما أنه اضفى صفة المطلق على التجربة ، وفضلا عن ذلك إن المبادىء العامة والبديهيات لا تعد سابقة على التجربة فحسب ، بل تعد ايضا خارجة عن التجربة ،وهي لا تدرك الا بالحدس (٢) ، وقد استطاعت المادية الديالكتيكية ان تتغلب على هذا القصور ، وهي لا تبحث المعرفة في المفاهيم المجردة البحتة ، بل في علاقاتها مع الممارسة والتجربة . مع الحفاظ على منطقها الداخلي المستقل نسبيا .

إن الممارسة ، في الحقيقة ، هي نقطة انطلاق المعرفة وأساسها الموضوعي (٣) ، ذلك أن المعرفة نفسها ظهرت موضوعيا بتأثير الانتاج المادى . فقد كان على الانسان منذ وجوده على هذه الارض ، أن يعمل ليحصل على لقمة العيش ، وكانت مواصلة تطور الانتاج تقتضي معارف جديدة .

ويمكن القول بعد هذا ، ان النظرية دون الممارسة عديمة المعنى ، والممارسة دون النظرية عمياء (٤) ، فالنظرية والممارسة بهذا المعنى مرتبطتان الواحدة تكمل الاخرى .

---

(١) راجع هنتر ميد ، قائمة المصطلحات من كتاب الفلسفة انواعها ومشكلاتها ،ترجمة : د . فؤاد زكريا ،دار النهضة ،القاهرة ١٩٦٩ ، ص : ٤٢١ .
(٢) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها ،ص : ١٨٦ .
(٣) افاناسييف - اسس المعارف الفلسفية ، دار التقدم موسكو ١٩٧٩ . ص : ١٥٧
(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

ب- المذهب التجريبي :

المصدر الثاني من مصادر المعرفة هو المذهب التجريبي ، الذى يذهب الى أن التجربة الحسية هي المعين الوحيد للمعرفة ، وأن كل ما في العقل فهو نابع من الحس، من الواضح ان ثمة نوعين من التجريبية (١) :

١- التجريبية المثالية التي تقتصر على المجموع الكلي للاحساسات ، او التحليل المنطقي للغة ، فهي تنكر فهم الحسية التجريبية على أساس الانطلاق من العالم الموضوعي الخارجي .

٢- التجريبية المادية : ويمثلها كل من فرنسيس بيكون ، وهوبز ، وجون لوك ، هذا بالاضافة الى الماديين الفرنسيين ، (جاسندى ، وكوندياك ، ولامترى وديدرو وغيرهم) . فهم يقرون بموضوعية العالم الخارجي ، وأنه هو أصل التجربة الحسية . وسيجرى الحديث عن التجريبية المادية عند لوك في حينه .

٣- طبيعة المعرفة : إذا أمعنا النظر في العالم المحيط بنا لأمكن أن نلاحظ أن كل ظواهره هي إما ذهنية أو مادية (٢) .

ويدخل ضمن الأشياء والظواهر المادية كل ما يوجد موضوعيا ، أى خارج وعي الانسان ومستقلا عنه . (الجبال ، والانهار ، والبحار ، والغابات ، والاجرام السماوية . . . الخ) .

وأن كل ما يوجد في ذهن الإنسان من عواطف ،وتذكر ، وإدراك وتخيل ، وما الى ذلك ، يدخل في نطاق المثالية (٣) .

فمسألة العلاقة بين الوعي والوجود ،وبين الفكر والمادة إنما هي المسألة الأساسية في الفلسفة ،أيهما الاسبق المادة ام الوعي ؟ هل المادة ولدت الوعي أم العكس ؟ وانطلاقا من طبيعة حل هذه المسألة ، انقسم الفلاسفة الى جناحين :

---

(١) راجع د . جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ،المعطيات السابقة نفسها ،ص : ٩٠ وكذلك مجموعة من العلماء السوفييت ، الموسوعة الفلسفية ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٤٨٢ .

(٢) افانا سيف ، اسس المعرفة الفلسفية ،المعطيات السابقة نفسها ،ص : ٩ .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

١- الجناح المادي الذى يؤكد على أولوية المادة وملحقية الوعي ، وأن المادة أزلية لم يبدعها أحد . ولا يوجد في هذا العالم أية قوة غيبية ، لا تخضع للقوانين الطبيعية ، وأن الوعي هو نتاج التطور التاريخي للمادة ، وخاصية جسم مادى معقد ، وهو دماغ الانسان .

٢- الجناح المثالي : وهو الذى يعتقد بأولوية الوعي ، وملحقية المادة . وقد كتب انجلز في هذا الصدد ما يلي :

" إن المسألة الاساسية الكبرى في كل فلسفة ولا سيما في الفلسفة الحديثة ، إنما هي العلاقة بين الفكر والكائن .

فمنذ أقدم العصور ، حين كان الناس في جهل مطبق عن تكوينهم الجسدى ، وما استطاعوا تفسير الاحلام ، فتوصلوا الى هذا الاعتقاد القائل بأن فكرهم ومشاعرهم ليس مصدرها جسدهم نفسه ، بل إنه النفس التي تقطن هذا الجسد وتفارقه عند الموت " .(١)

ثم يقول في موضع آخر : " إن اعلى مسألة في الفلسفة بكاملها مسألة علاقة الفكر بالكائن ، علاقة الروح بالطبيعة . . . " .(٢) ويضيف قائلا : " وقد انقسم الفلاسفة الى معسكرين وفقا للجواب الذى يجيبون به عن هذه المسألة ، فأولئك الذين أكدوا أن الروح وجدت قبل الطبيعة ، واعترفوا بالتالي في آخر الامر بهذه الصورة او تلك بخلق العالم ، وعند الفلاسفة ، عند هيجل مثلا الفوا معسكر المثالية . أما اولئك الذين اعتبروا الطبيعة هي الأصل ، فقد انتموا الى مختلف مدارس المادية "(٣) .

وهذا ما أكد عليه لينين في مؤلفه مصادر الماركسية الثلاثة ، واقسامها المكونة الثلاثة : يقول : ان " كل مفهوم آخر للمثالية والمادية بالمعنى الفلسفي ليس من شأنه الا خلق البلبلة "(٤) .

---

(١) فريدريك انجلز - لودفيك فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية - دار التقدم موسكو ١٩٧١ ، (ص : ١٨ ، ١٩) .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٠ .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٤) لينين ، مصادر الماركسية الثلاثة ، واقسامها المكونة الثلاثة ، ترجمة الياس شهين دار التقدم - موسكو ، ص : ٢٣ .

والمثالية على الرغم من تعددها يمكن ضبطها بنسقين :

١- المثالية الذاتية .

٢- المثالية الموضوعية .

١- المثالية الذاتية : وهي التي تقيم العالم على أساس إحساسات الإنسان وإدراكاته وأبرز من يمثل هذا النوع من المثالية ، جورج باركلي ، الذى اعتبر الوجود إدراكا يرى أن كل ما هو مدرك موجود ، وكل ما هو غير مدرك غير موجود .(١)

٢- المثالية الموضوعية : تقر بأولوية الوعي ولحقية المادة ، إلا أن ما يميزها عن الذاتية هو إقرارها بوجود العالم المادى مع القول بإبداعه ، كما هو الحال عند افلاطون وهيجل . فإذا كانت المثالية تصنف الى نوعين - كما اوضحت ذلك قبلا - فإن المادية بدورها تصنف الى نوعين :

١- المادية الميتافيزيقية .

٢- المادية الدياليكتيكية .

١- المادية الميتافيزيقية :

كان الفلاسفة القدماء في المراحل الاولى ، ينظرون إلى المادة على أنها البنية الداخلية للطبيعة ، أى كمادة أولية ، وكعناصر يتألف منها الوجود ، وقد عبروا عنها بالماء ، والهواء ، والتراب ، والنار .(٢)

وبعد أن مضى فترة من الزمن ، ظهر في اليونان مذهب جديد ، أطلق عليه المذهب الذرى ، ومن ممثليه ، لوقيبوس ، ودیمقريطس ، ثم ابيقور ولوكريتس كار لاحقا . وليس من شك في أن المذهب الذرى مارس دورا هاما في تطور الاسلوب العلمي الطبيعي ، وعلى تشكل العلوم الطبيعية ، وخاصة في العلوم الفيزيائية والكيميائية .

فالمادة - حسب هذا المذهب - فهمت كالسابق ، على انها مادة بناء للطبيعة وعلى انها جوهر .(٣)

---

(١) د . يحيى هويدى ، باركلى ، نوابغ الفكر الغربي ، دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٦٠ ، ص : ١٤١ .

(٢) زاموشكين ، سولوفيون ، الفلسفة ، والعملية الثورية . ترجمة دار التقدم ، موسكو ١٩٧٢ ، ص : ٧٠ .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٨٣ .

وفي العصر الوسيط ،وخلال عصر النهضة ، ظهرت الاتجاهات المادية ، لكن على صورة المذهب الإسمي ، وعلى صورة المذهب القائل بوحدة الوجود . ثم تطورت المادية بعد ذلك في أوربا في القرن السابع عشر على يد جاليليو وبيكون وجاسندى وهوبز ولوك .

ومن الجدير بالذكر أن هذا التطور للمادية كان مصاحبا لتقدم العلوم الميكانيكية والرياضيات ، ونتيجة لذلك ظهرت المادية الالية ، وكان من خصائصها تقسيم الطبيعة الى أجزاء وعناصر منفصلة بعضها عن بعض ، دون الأخذ بالاعتبار تطورها . ثم اتخذت المادية في القرن الثامن عشر طابعا جديدا على يد الفلاسفة الماديين الفرنسيين ، وكانت تتميز عن سابقتها بالحركة ، او بالاحرى بالشكل الميكانيكي للحركة . وهي - في نظرهم - صفة كلية غير قابلة للتغير من صفات الطبيعة .

وبعد ذلك ظهرت مادية فيورباخ القائلة بالمذهب الطبيعي في دراسة الانسان .

ثم اتخذت المادية خطوة أخرى الى الامام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فقد تمكن ماركس وانجلز ،ومن ثم لينين من وضع تصور عن المادية بوصفها منظومة متكاملة ، وذات أهمية عامة للنظرة الى العالم .(١) فكانت المادية الديالكتيكية وهي أعلى اشكال المادية واكثرها تماسكا حتى الآن .

٢- المادية الديالكتيكية :

من المعروف أن المادية الديالكتيكية قد أنشأها ماركس وانجلز ، وطورها لينين فيما بعد ، إنها تستوعب المادة كعلاقة شاملة للوجود ، والمادة توجد بأشكال مختلفة ، توجد ليس فقط بكتل هائلة الحجم ،ولا بشكل جزئيات أو ذرات، ولا بصيغة دقائق أولية أو جسيمات أولية ، بل توجد أيضا بصيغة موجية ، ومجالية وبصيغة اجتماعية .

المادة وفق هذا المعنى تتقوم بالمقومات الأساسية التالية :

١- المقوم الموضوعي : المادة هي واقع موضوعي ، وهذا ينبع بشكل مباشر من حل المسألة الاساسية (الوجود والوعي) ، حلا ماديا ديالكتيكيا .

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ،ص : ٨٣ .

٢- المقوم الثاني للمادة : الحركة ، فالمادة اضافة على أنها واقع موضوعي ، فإنها واقع متحرك ، والحركة صفة جوهرية للمادة ، لأنها لا توجد بمعزل عن الحركة.(١)

والحركة مادية في أصلها ، والمادة متحركة في وجودها . فسلب الحركة عن المادة يعني العدم ، والعدم في تصورات المادية الديالكتيكية محال .

وهذا يعني أول ما يعني أن هناك وحدة عضوية بين المادة والحركة ، لا انفصام بينهما .

والمادة الديالكتيكية في فهمها للحركة يختلف عن فهم المادية الميكانيكية القديمة للحركة ، حيث كانت تفهم هذه الاخيرة كواقع موضوعي من الخارج ، لا كحركة من داخل المادة نفسها . اى انها كانت تذهب الى اطلاق نوع واحد من الحركة وهو الحركة الميكانيكية .

بينما المادة الديالكتيكية ترفض الفهم الميتافيزيقي للحركة ، وتقر بالتنوع اللامتناهي للحركة .

٣- والمقوم الثالث : هو ان المادة المتحركة لها زمان معين ، ومكان معين . المادة خارج الزمان عدم .

فالمادية الديالكتيكية إذن ، هي علم القوانين الأكثر شمولا لتطور الطبيعة والمجتمع والتفكير البشرى .(٢) وهي تشكل معرفي يعالج ويدرس في القوانين العامة للوجود ، اى قوانين حركة المادة التي تجرى على نحو شامل في الحياة .

تلك كانت هي الموضوعات التي تتناولها نظرية المعرفة . وقد حاول لوك - كما رأينا - تحديد خطوطها العريضة ، فطرح قضايا كبرى تتعلق بأصل المعرفة ، وطبيعتها وحدودها .

٣- غير ان لوك لا تنحصر أهميته في هذا المجال فقط . بل ترجع كذلك الى المنهج الذى اتخذه في بحثه لنظرية المعرفة . وهو المنهج التجريبي الاستقرائي ، مقابل المنهج القياسي ، الذى كان سائدا في العصور القديمة .

---

(١) افانا سييف ، أسس المعارف الفلسفية ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٤٣ .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٧٠ .

من الواضح أن المنهج الاستقرائي ينتقل من الجزئيات إلى الكليات ، من الخاص إلى العام ، من التحليل الى التركيب . أما منهج القياس فهو على العكس ، ينتقل من العام الى الخاص ، من الكلي الى الجزئي ، فالأول يتماشى والاتجاه التجريبي ، الذى يبدأ بالملاحظة والمشاهدة ، ووضع الفرضية ، ثم التحقق منها ، واستخلاص قوانين عامة . أما منهج القياس فهو يتناسب والاتجاه العقلي الذى يعتمد بصورة اساسية على قضايا عامة ، ومبادىء عامة ثابتة ، وصادقة بذاتها . مستقلة عن أى برهان .(١)

فلما كان التفكير العلمي هو أحد الاشكال الرئيسية في عصر لوك أمكن القول إن منهجه الاستقرائي جاء نتيجة لتأثره بهذا التفكير ، لكن هذا التفكير العلمي لم يكن المؤثر الوحيد في تفكيره ، بل كان إلى جانب ذلك عوامل اخرى سأذكرها فيما بعد.

***

(١) راجع ، جون لوك ، تأليف د . عزمي اسلام ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٨ .

الفصل الثالث

أهم العوامل التي أثرت في فلسفة لوك

ويمكن تلخيص هذه العوامل في الامور التالية :

١- الفلسفة اليونانية :

لقد تأثر لوك بالفلسفة اليونانية وخاصة بديمقريطس وأرسطو . .

فبالنسبة لديمقريطس فهو يرى أن ليس في العالم الا الفراغ والذرات . وأن جميع الموجودات تتألف من هذه الذرات . (١)

والأحاسيس هي المصدر الرئيسي للمعرفة ، غير أنها ليست المصدر الوحيد ، فهناك الى جانب الاحاسيس ، العقل ، الذى بوساطته نستطيع معرفة ماهية الاشياء وجوهرها . وتبقى الاحاسيس مع ذلك العامل الحاسم للمعرفة . (٢)

كما أن نظرية لوك في الصفات الاولية والثانوية ، إن هي الا امتداد وتطوير لنظرية ديمقريطس القائلة بأن ما يوجد في الواقع ، الذرات والفراغ ، ومن خواصها : الشكل والحجم والصلابة والوضع . . . اما الخواص الاخرى كالصوت واللون والذوق وما اليها ، فهي توجد وفق الظروف لا بطبيعة الاشياء نفسها . (٣)

فيما يتعلق بأرسطو ، يقول في كتاب النفس : " اننا في غياب جميع الاحساسات لا نستطيع أن نتعلم او نفهم أى شيء " . (٤)

انه لا يوجد شيء في العقل ما لم يكن من قبل في الحس . (٥)

والعقل بهذا المعنى كالكتاب ، ليس بالواقع مكتوب على صفحاته اى شيء

---

(١) راجع جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٩١ .

(٢) المرجع السابق المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٣) مجموعة من العلماء السوفييت ، الموسوعة الفلسفية ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢١٣ .

(٤) ارسطو ، كتاب النفس ، نقله الى العربية ، د . فؤاد الاهواني ، الطبعة الاولى - القاهرة ، ص : ١٢ .

(٥) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

وهذا ما ذهب اليه لوك في مؤلفه " مقالة في الفهم الانساني " . معتبرا التجربة الحسية هي المصدر الذى نستقي منه معارفنا ، فما العقل - في نظره - إلا كلوحة بيضاء ، والتجربة هي التي تخط سطورها عليها .

واذا أمعنا النظر في وظيفة العقل عند لوك ألفينا أن له وظيفتين أساسيتين :

١- وظيفة سلبية ، وتنحصر أهميتها في تلقي الانطباعات الحسية التي تأتيه من العالم الخارجي . بمعنى أن الأشياء الخارجية تزود العقل بالأفكار ذات الصفات الحسية ، (١) وعادة ما يكون العقل في هذه الحالة منفعلا ، وليس فاعلا ، وهذا ما سماه ارسطو بالعقل المنفعل .

٢- الوظيفة الثانية إيجابية : فهي أشبه بالعقل الفعال عند أرسطو ، والتي تتم عن طريق العمليات الذهنية كالتذكر ، والادراك ، والتخيل وما إلى ذلك ، وهي عبارة عن استقصاء ما يجرى من عمليات داخل عقولنا حين تتأمل عقولنا الافكار التي حصلت عليها (٢) .

ب- فلسفة ابيقور والرواقية :

كانت الابيقورية والرواقية متعاصرتين في نشأتهما الاولى ، فقد ولد مؤسساهما زينون وابيقور في وقت واحد تقريبا (٣) .

ولا مجال للشك في أن تأثير ابيقور في فلسفة لوك كان قويا ، فالفكرة التي قالها لوك عن تكوين الأفكار نجدها في فلسفة أبيقور ولو على شكل بدايات ، ثم قام لوك بتطويرها فيما بعد ، وفق منهجه التجريبي . ويذكر أبيقور أن تكرار الإحساسات في الذاكرة يؤدى الى تكوين الأفكار في الذهن ، وأن كل ما نحسه فهو صادق بالضرورة ولا يمكن الشك فيه اطلاقا (٤) .

1- Locke , Essai philosophique , Ibid,P:230
2- Ibidem

(٣) رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٣٨٢ .
(٤) دكتورة حلمي مطر ، الفلسفة عند اليونان ، المعطيات السابقة نفسها . ص : ٣٨٢ .

ويضرب ابيقور على ذلك مثلا بقوله : " فقد نرى برجا معينا أسطوانيا من بعيد ، ونراه مضلعا من قريب ، وليس من الخطأ أن نقول إننا نراه اسطوانيا ، بل يقع الخطأ اذا تمسكنا بالاعتقاد بأنه اسطواني عندما نقترب منه " (١) .

أبيقور يأخذ بمذهب ديمقريطس الذرى ثم طوره إلى الأمام . فاذا كانت ذرات ديمقريطس تتحرك في الخلاء بفضل الضرورة الالية الخارجية ، فإن ذرات أبيقور تتحرك بفعل خاصية باطنية للذرة من أعلى الى أسفل في خط مستقيم ، على أنه يحدث أحيانا بفعل ثقلها أن تنحرف قليلا عن خط سقوطها ، مكونة اثر ذلك زاوية صغيرة ، فتصبح حركتها بعد ذلك منحنية بدلا من مستقيمة (٢) .

ومن هذه النظرة الساذجة ينطلق ابيقور للتأكيد بالحرية الانسانية وبالصدفة (٣) .

وبخصوص الفلسفة الرواقية فان تأثر لوك بها كان واضحا أيضا ، على الرغم من اسباغ الرواقية على العالم المادى الواحد صفات الهية . ومطابقتها بينه وبين الله (وحدة الوجود) ، وكذلك في معارضتها للابيقورية ، خاصة فيما يتعلق بوجود الخلاء ، وبعدد لا نهائي من الذرات التي تأخذ بنظرية العالم الواحد . وأن العالم ملاء ، لا خلاء فيه (٤) .

إنها تؤكد مع ذلك على أن الاحساسات هي مصدر المعرفة ، والنفس قبل التجربة كصحيفة بيضاء تأتيها الانطباعات من الخارج (٥) ، لكي تترك عليها أثرا وهذا ما أكد عليه لوك فيما بعد .

جـ - الفلسفة المدرسية (السكولائية) :

وهي فلسفة العصر الوسيط ، التي كانت تعتمد على أفكار الفلسفة القديمة (افلاطون وارسطو) ثم حاولت تكييف آرائها وفق معتقداتها المسيحية ، وقد بلغت

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٢) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١١٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص : ١١٧ .
(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١١٩ .
(٥) لينين ، الدفاتر الفلسفية ، ترجمة الياس مرقص ، دار الحقيقة ، بيروت ١٩٧٤ ، ص : ٩٣ .

المدرسية الغربية أوج ازدهارها في القرن الثالث عشر ، الذي ازدهرت فيه التجارة والحرف ، وأدى ذلك الى تعاظم الصراع الطبقي ، وتفاقم التناقضات بين المنطلقات السياسية للسلطتين الزمنية والدينية (البابوية) (١) .

ولا ريب في أن مؤلفات أرسطو ، وكذلك مؤلفات الافلاطونية الجديدة قد مارست دورا هاما في تطور الفلسفة المدرسية . (٢) ولوك على الرغم من معارضته لأهم تعاليمها ، فان تأثره بها كان كبيرا ، وبشكل خاص فيما يتصل بفكرة الجوهر ، وفكرة الله .

د - فلسفة بيكون ، وديكارت وهوبز :

لقد تأثر لوك بفلسفة بيكون في أكثر من موضع ، باعتباره رائد المادية الحديثة اولا ، ومؤسس العلم التجريبي ثانيا (٣) .

ويكتب ماركس في هذا الصدد : " أن الجد الحقيقي للمادية الانجليزية ولكل علم تجريبي حديث ، هو فرنسيس بيكون ، في نظره العلم الحق هو علم الطبيعة والفيزياء المرتكزة على الادراك : هي القسم الممتاز في هذا العلم " (٤) .

ويضيف قائلا : " وقد تضمنت المادية عند مؤسسها الاول بيكون بذور التطور اللاحق ، ولو بصورة كامنة ، وبكيفية ساذجة ، لقد ابتسمت المادة للانسان ببريق شعري حسي " (٥) . هذا بالاضافة الى ماكان لمنهجه الاستقرائي من أثر في أبحاث لوك الفلسفية .

أما فلسفة ديكارت ، فيمكن القول : إن اهم نقطة أثارت اهتمام لوك في فلسفته تكمن في طريقة البحث .

يكتب ديكارت : " يبدو لي أنه لن يكون هناك شيء أكثر فسادا ، وإخفاقا من ان يناقش الإنسان بكل اندفاع أسرار الطبيعة ، وتأثير النجوم ، وخفايا المستقبل قبل

---

(١) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ص : ١٦٩ .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٤) كارل ماركس ، مختارات من المؤلفات الاولى ، المعطيات السابقة نفسها ص : ١٠٨ .
(٥) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٠٩ .

أن يسأل نفسه عن مدى ملاءمة العقل الإنساني وقدرته على مناقشته مثل هـــذه المشكلات " (١) .

وهذا ما نلمسه عند لوك في مقدمة مؤلفه " مقالة في الفهم الانساني " اذ يقول " وانه كان من الضرورى قبل أن نطلع في البحث عن أمور من هذه الطبيعة ، أن نمتحن قدراتنا ، وأن نرى ما الأشياء التي يمكن لعقولنا أن تعالجها ، وأى الاشياء التـــي لا نستطيع " (٢) .

هنا يحاول لوك أن يوضح بأن امكانات الانسان وقدراته العقلية محـدودة ، لا يمكن تجاوزها .

ولا ننسى ان نشير بهذه المناسبة الى تأثير جانسندى في فلسفة لوك ، باعتباره مجدد المادية الابيقورية ، لقد عارض الفلسفة المدرسية ، لانها - في نظره - قـد شوهت تعاليم ارسطو ، وحرفتها ، كما هاجم بشدة نظرية ديكارت في الافكار الفطرية (٣) .

ولوك من جهته ناضل ضد المدرسية ، وانكر الافكار الفطرية ايضا .

هـ - هوبز :

يعتبر هوبز أساسا للحسية التجريبية من خلال ماديته الميكانيكية ، وقد أقـام مذهبه انطلاقا من فلسفة بيكون ، او بعبارة اخرى ، بدأ من حيث انتهى بيكون ، نقرأ لدى هوبز : " اذا كانت الصفة الحسية تقدم للبشر كل معارفهم فإن الحدس ، والفكرة والتصور ... الخ ليست الا أشباح العالم المادى ، الذى عرى الى درجة كبيرة أو صغيرة من مشكلة الحس " (٤) ، وانتهى الى القول بأن ليس في الانسان من أفكار أو معان الا ما تأتي به الحواس ، الأحاسيس هي المصدر الوحيد لأفكارنا ، وأنكر بالتالـــي الافكار الفطرية ، والمبادىء القبلية السابقة على التجربة (٥) وهذا ما ذهب اليه لـــوك في نظرية المعرفة ، لكن هوبز قد رفض أصلا من اليونانيين ، ومن المدرسيين كل الذى

---

(١) د . عزمي اسلام ، جون لوك ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٢
2-Voir, Locke, Essai philosophique, Preface de l'auteur.P:XXIX

(٣) راجع ، مجموعة من العلماء السوفييت ، الموسوعة الفلسفية ص : ٣١٨ .

(٤) كارل ماركس ، مختارات من المؤلفات الاولى ، المعطيات السابقة نفسهـــا ص : ١١٠ .

(٥) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقـــة نفسها ، ص : ٢٥٤ .

الذى رفضه بعدئذ لوك ، وإن كان لهوبز فضل الريادة ، فللوك فضل الإفاضة والتفصيل .

و - التقدم العلمي :

من المعلوم أن الإنسان في تاريخ الفكر مر بتحولات منهجية علمية خطيرة ، واكثر هذه التحولات خطورة تلك التي حدثت في القرن السادس عشر ، والسابع عشر ، على يد كوبرنيقوس ، وكبلر ، وجاليليو ، ونيوتن ، وفرنسيس بيكون وغيرهم .

ولعل أهم ما قدمه عصر النهضة وبداية العصر الحديث في سبيل التقدم العلمي هو الانقلاب الهائل الذى حدث في النظام الفلكي ، ولكي نفهم هذا جيدا ، يجب القاء نظرة سريعة على النظرة الفلكية التي كانت سائدة في العصر الوسيط ، والتي عرفت باسم نظام بطليموس ، ويستند نظامه الى فلسفة ارسطو الطبيعية التي تقول بأن الحركة الميكانيكية تكون : إما مستقيمة ، وإما دائرية ، وإما بهما معا . وأن كل جسم طبيعي له ميزة خاصة به ، فالخفيف يتحرك صاعدا من الأسفل الى الاعلى ، والثقيل على العكس ، نازلا من الاعلى الى الاسفل . فالنار والهواء مثلا - يتحركان في الاتجاه من الأسفل الى الاعلى . بينما التراب والماء ينزلان من الأعلى الى الاسفل . ولما كان التراب ثقيلا فإنه قد تركز في مركز العالم ومن حوله تدور الكواكب والشمس والقمر ، وتعرف هذه النظرية باسم نظرية مركزية الارض . وقد كان نظام بطليموس موضع ايمان الناس وثقتهم طوال القرون الوسطى ، ثم تعرض بعد ذلك الى انتقادات من قبل العلماء الذين جاءوا بعده ، وعلى رأسهم كوبرنيقوس الذى استطاع ان يوجه ضربة قاضية لنظرية بطليموس ،(١) فقد أكد على أن الارض لا تقوم في مركز العالم ، بل تدور كما في الكواكب الأخرى في الفضاء حول الشمس ، وانتهى الى نتيجة ، وهي أن الشمس مركز العالم ، وان للارض حركة مزدوجة ، دورة يومية حول نفسها ،(٢) ودورة سنوية حول الشمس .

وقد اثارت هذه المسألة ضجة كبيرة في اوربا ، ونتج عن ذلك نزاع حاد بين العلم الحديث ، والمعتقدات الدينية .

---

(١) راجع ، أرنست بلوخ - فلسفة عصر النهضة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢١ .

(٢) رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٥٨ .

وما لاحظه كوبر نيقوس ، هو أن نظام بطليموس ليس صحيحا ، إذ يرى أنه من السخف القول بأن الشمس والكواكب تدور حول الارض ، بل الاولى أن نعكس الآية ، ونقول إن الارض هي التي تدور حول الشمس . ان القول بدوران ما هو أصغر حول ما هو أكبر اقرب الى مبدأ البساطة * من القول بدوران ما هو أكبر حول ما هو أصغر .

وعلى هذا قال كوبر نيقوس بأن الارض تدور حول الشمس ، وليس العكس . وما ساعده - فيما يبدو - على تطوير نظام بطليموس هو مبدأ النسبية الذى دعا اليه دى كوسا ، القائل بأن افكارنا عن الاشياء نسبية . ثم جاء بعده كبلر ، فإذا كان كوبر نيقوس قد استطاع تقويض نظرية بطليموس من أساسها - كما بينا - فان كبلر وضع نظرية أكثر عمقا من الناحية العلمية . ويمكن القول إنه وضع اللمسات الاخيرة في هذه النظرية . فقد كان انجازه الكبير يتمثل في اكتشاف قوانين عن حركة الاجرام السماوية مؤكدا بأن الكواكب تتحرك في افلاك بيضوية (١) (اهليلجية) .

ثم أتى جاليليو الذى سار على النهج الذى اختطه سلفه كبلر معتمدا في هذا المنهج على طريقتين :

١- طريقة التحليل : تحليل الظاهرة الى عناصرها الأولية ، أو بمعنى آخر القيام بتشريح الطبيعة ، الذى يسمح باكتشاف أبسط عناصر الحركة (٢) .

٢- طريقة التركيب : أي تأليف هذه العناصر من جديد .

وعلى هذا النحو تتكامل الطريقتان (التحليل والتركيب) في منهج علمي واحد . ومن الجدير بالذكر أن جاليليو آثر الفكرة التي تقضي بمركزية الشمس ، ويتفق مع كبلر في هذه المسألة . وقد ادين جاليليو - كما هو معروف - من

---

* مبدأ البساطة يعني ان الطبيعة تسعى لادراك غايتها بابسط الوسائل لا باعقدها . وانها تؤثر تفسير الظواهر بأسباب قليلة لا على تفسيرها باسباب كثيرة .

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٦٤ .

(٢) ارنست بلوخ : فلسفة عصر النهضة ، المعطيات السابقة نفسها . ص : ١١٥ .

الكنيسة ، ولما رأى نفسه مهددا بالحرق عدل عن موقفه ، ولم يعد يتمسك بالقول إن الأرض هي التي تدور ، هل كان له الحق في أن يتراجع كي ينهي مؤلفاته الكبيرة ؟ ذلك سؤال كبير ودقيق (١) يحتاج الى جواب ، أو الى ايضاح على الاقل .

وأيا ما كان فان جاليليو في الواقع ، خطا خطوة حاسمة في جعل العالم مستقلا ، ويعتبر رائدا للمنهج التجريبي ، وهو الذى استطاع أن يصوغ المبادئ الرئيسية للفهم الميكانيكي للعالم (٢) . فالعالم في تصوراته يتكون من مادة وحركة ، وأن الكميات والصفات التي يصح أن ننسبها الى العالم لا تتعدى الشكل والحجم والحركة والسكون ، والمقدار ، وهي والكيفيات كاللون والرائحة ، والحرارة والبرودة ، وما اليها ، كلها لا تعزو الى الاجسام بذاتها ، إنما تعزو الى تأثيرات ذاتية موجودة في حواسنا ، وليست في طبيعة الأشياء التي اطلق عليها لوك فيما بعد الصفات الثانوية .

كما أن جاليليو وقف من المنطق القديم موقفا سلبيا ، واعتبره منطقا ناقصا ، لا يفي بالغرض المنشود ، لانه لا يؤدي الى اكتشاف حقائق جديدة ، لذلك يرى ان علم المناهج يجب ان يعنى بالدرجة الاولى باكتشاف الحقائق الجديدة (٣) وان السبيل الوحيد لذلك هو التجربة .

ولتوضيح المعنى المقصود بعلم المناهج (الميتودولوجيا) . نقرأ لدى طيب تيزيني ما يلي : " ان علم المناهج - الميتودولوجيا - يشكل نظرية عامة شاملة للمناهج المفردة ، المستخدمة في العلوم المختلفة (الرياضيات ، الفيزياء ، علم التاريخ ... " (٤) .

ويستطرد قائلا : " لا يمكن رده الى واحد أو أكثر من واحد من هذه المناهج المفردة ، إذ أن جوهره يقوم على كونه يقف فوق كل المناهج تلك ، يستشف

---

(١) المرجع السابق المعطيات السابقة نفسها .
(٢) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٢٩ .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٣٠ .
(٤) د . طيب تيزيني - حول مشكلات الثورة والثقافة في العالم الثالث الطبعة الثالثة ، دار دمشق ، ١٩٧٨ ، ص : ٨٧ .

ويكتشف المشترك العام فيهما " .[1]

وكما هو واضح ان الطابع الميكانيكي لآراء جاليليو ، وعدم النضج الايديولوجي لطبقة البرجوازية التي عبر عن فكرها ، لم يسمحا له بالقضاء نهائيا من التصور اللاهوتي عن الله ، ومع ذلك فقد كانت حياته حافلة بالاختراعات في ميادين علمية ، وفتح صفحة جديدة في تطور الفكر الفلسفي في أوربا وكل هذا أثر في مادية القرن السابع عشر لدى هوبز وجون لوك .[2] فذكر اسم جاليليو ،يذكرنا بعالم آخر ، مشهور وهو اسحق نيوتن ، صاحب قانون الجذب العام . يعترف بواقعية العالم ،وبامكان معرفته .

وقد أدت مفاهيم نيوتن في القصور الذاتي في الجاذبية الى القول بأن الاجرام السماوية تتحرك في افلاك بيضوية ويمكن تلخيص نظريته في المفاهيم على الشكل التالي :

١- مبدأ القصور الذاتي : يبقى الجسم ثابتا ،ويستمر في خط مستقيم ، ما لم تتأثر فيه قوة اخرى خارجية .

٢- مبدأ القوة : تساوي الكتلة في التسارع .

٣- الفعل ورد الفعل .

وهكذا ،علاوة على اقراره بواقعية العالم الخارجي ، وبقانون الجذب العام ، يشير الى ان القضايا التي نحصل عليها بوساطة إستقراء الظواهر ينبغي الا يكون صدقها مطلقا ، بل نسبيا فحسب .

ويعد نيوتن ظهر روبرت بويل ، عالم كيميائي ، له قانون سمي باسمه وهو " قانون بويل " .

وعلى أية حال ، فإن التقدم العلمي الذي ساد القرنين

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٢) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٣٣ .

السادس عشر والسابع عشر ، أدى الى تعميق الملاحظة العلمية ، وأصبحت أكثر دقة ، واشد اتساعا مما كانت عليه في الماضي (١) .

من هنا كانت استفادة لوك من التقدم العلمي كبيرة جدا ، وخاصة فيما يتعلق بعلم المناهج الذى نادى به جليليو ، وبعده بيكون .

***

(١) رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، المطبعة السابقة نفسها ، ص : ٦٩

الباب الثانـــي

تحليل الفكر عنـد لـــــوك

الفصل الاول

تكوين الافكار ، وكيفية استخدام عبارة هذه الافكار

اهتم لوك اهتماما كبيرا بتحليل الفكر.* وقد أفرد لهذه الغاية جزءا مهما من مؤلفه " مقالة في الفهم الإنساني " .

ففي الكتاب الثاني من المقالة يتحدث لوك عن الأفكار بصورة عامة ، وعن أصولها ومصادرها بشكل خاص . يكتب في هذا الصدد : " إن الفكرة هي موضوع التفكير ، ولما كان كل إنسان مقتنعا بأنه يفكر ، وأن ما يشغل عقله - فعلا - حين يفكر ، هي الافكار العديدة الموجودة لديه " .(1)

ومضى يقول : " فما من شك في أن بعقول الناس أفكارا عديدة تعبر عنها الكلمات : المياض ، والصلابة ، والحلاوة والتفكير ، والحركة ، والإنسان ، والفيل ، والجيش ، والقتل وكثير غيرها " .(2)

ويرى لوك ، بناء على ما سبق ذكره ، أن اول عمل يجب القيام به ، هو معرفة كيف يحصل العقل على هذه الأفكار ، أو بتعبير آخر ، كيف تصل هذه الأفكار الى العقل ؟ وهذا ما حاول الفيلسوف معرفته ، فقد لاحظ أن ثمة فريقا يعتقد بوجود أفكار فطرية ، وخصائص أو صفات أصلية مطبوعة في نفوسهم منذ الولادة . لكن لوك عارض هذه النظرة بقوة ، معلنا في الوقت ذاته بأن جميع الافكار تأتي عن طريق التجربة ، فكتب يقول : " لنفترض اذن ان العقل ورقة بيضاء خالية من أي خصائص وأفكار ، فمن أين تأتي هذه الافكار ؟ وكيف تحصل هذه الورقة على هذا المستودع الضخم الذي رسمته عليها مخيلة الانسان المشغولة ابدا . . . من أين لهذه الورقة بكل هذه المادة للفكر والمعرفة " .(3)

---

* العقل والفكر اسلوبان للتفكير ، ويقصد بالعقل عادة ملكة التفكير والاستدلال الصحيح والاستنتاج ، وعرض الأفكار بصورة منطقية ، وبالفكر : القدرة على كشف أسباب وجواهر الظواهر ، وبحثها بطريقة شاملة ، وكشف وحدة الاضداد . (راجع مجموعة من العلماء السوفييت ، الموسوعة الفلسفية المعطيات السابقة) ص : ٢٩٦ .

1-Locke,Essai philosophique,Ibid ,P,60
2-Ibidem.
3-Ibid,P,61

ويجيب عن كل هذه التساؤلات بقوله : " إن جوابي على هذه الأسئلة يتلخص بكلمة واحدة : من التجربة ، ففيها تتكون كل معارفنا ، ومنها في النهاية تستمد ".(١)

من المعروف أن التجربة عند لوك قائمة على الملاحظة بدورها تصنف الى نوعين :

١- خارجية .

٢- داخلية .

فالاولى ، تعتمد بشكل أساسي على إدراك الأشياء الخارجية المحسوسة . أما الثانية ، فإنها تعتمد على العمليات العقلية ، وهي التي تمد عقولنا بكل مواد التفكير ، غير أن لوك فيما يبدو ، يعطي الأولوية للملاحظة الخارجية ، وملحقية الملاحظة الداخلية .

يكتب ما نصه : " إن اول مصدر يزود عقولنا بالأفكار هو موضوعات الحس ، إن حواسنا المتخصصة بأشياء محسوسة معينة تنقل إلى العقل عدة إدراكات خاصة عن الاشياء حسب الطرق المختلفة التي تؤثر فيها هذه الاشياء ، وهكذا نحصل على أفكار مثل : فكرة الأبيض والأصفر ، والحرارة ، والبرودة ، والصلابة ، والليونة ، والحلو والمر ، وكل ما نسميه بالصفات الحسية التي تنقلها الحواس الى عقولنا ".(٢)

لوك ، كما هو واضح ، يؤكد على أهمية هذا المصدر ، ومدى فعاليته في تكوين الأفكار . وهو الذي يمدنا بمعظم الافكار ، يستند بكيفية أساسية على حواسنا ، فيسميه الإحساس .

اما المصدر الثاني الذي يمد عقولنا بالأفكار ، فهو ادراكنا لعمليات العقل الداخلية ، أي العمليات التي تجرى داخل عقولنا (٣) . فحين تتأمل النفس هذه العمليات فانها تزود العقل بأفكار جديدة ، لم يتم الحصول عليها بواسطة الاشياء الخارجية ، منها مثلا : الإدراك (الادراك الحسي) ، والتفكير والشك والاعتقاد والبرهان وما خلاف ذلك من العمليات العقلية المختلفة التي تقوم بها عقولنا (٤) .

1-Locke,Essai philosphique. ,Ibid,P:62
2-Ibidem.
3-Ibidem.
4-Ibidem.

وبما أن هذه الافكار ليست إحساسا ، إلا أنها مع ذلك مرتبطة أوثق ارتباط بالموضوعات الخارجية ، لذلك يطلق عليها الحس الداخلي أو الباطني . فكما اطلق على المصدر الاول الإحساس ، اطلق على المصدر الثاني التفكير ، أو التأمل .

ويخلص لوك الى القول : " إن الاشياء الخارجية المادية التي تؤثر في الحواس وعمليات عقولنا الداخلية التي هي موضوع التأمل هما في رأيي المصدران الوحيدان لتكوين كل الافكار الموجودة لدينا " (١) .

ومما يجدر ذكره أن مفهوم العمليات العقلية عند لوك ، مفهوم واسع ، فهو لا يشمل فقط ادراك العقل للافكار فحسب بل يشمل كذلك نوعا من الانفعالات التي تنشأ عنها ، كالقلق ، والفرح ، وما شابههما ، وان ما يعنيه بالعقل - كما يقول رسل - يلزم جمعه من الكتاب بأسره .

ويمكن القول إن لوك يستخدم العقل في البحث عما تكونه الأشياء التي نعرفها يقين ، هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى يستخدمه بالبحث في القضايا التي من الحكمة ان تتقبلها في العمل ، وإن لم تكن يقينية ، فهي على أحسن الفروض احتمالية (٢) .

وفي ضوء ما تقدم ، نخلص الى ما يلي :

١- إن الأفكار في تصورات لوك تستمد من مصدرين لا ثالث لهما ، وهما : الإحساس والتفكير .

الإحساس : يمد العقل - كما رأينا - بالأفكار عن الخصائص أو الصفات الجسمية كالشكل والحجم والامتداد ... الخ .

والتفكير يزود عقولنا بالأفكار عن عملياته الداخلية ، كالتذكر والتخيل والادراك وما إلى ذلك ، وهو إدراك عمل ذهننا . ولما كانت كل أفكارنا تأتي من التجربة ، فإنه لا شيء من معرفتنا يمكن أن يسبق التجربة . والأفكار التي نكتسبها عن طريق التجربة أو الخبرة إن هي إلا مادة المعرفة نفسها ، لكن السؤال قد يطرح هكذا : متى

1-Locke,Essai philosphique ,P.62

(٢) رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٧٨ .

تصبح مادة الأفكار هي المعرفة ذاتها ؟ هذا يقتضي أن تمر هذه المادة بعملية الاستدلال ، التي تختلف بالطبع عن الإحساس ، أي تمر عبر عملية المقارنة والربط والتجريد .

هنا تبدو بعض الملامح للجدل ولو بصورة ضمنية على الأقل . فقد ربط لوك - كما بينا - بين الادراك وعملية التجريد . وهذا الربط يساعد ولا شك على فهم ماهية الأشياء وخصائصها ، والنفاذ الى أعماقها .

إن التفكير - كما يقول لينين ينطلق من المعنى المحسوس إلى المجرد ، شريطة أن يكون هذا الانطلاق صحيحا ، فالتجريد بهذا المعنى ، سواء تجريد المادة او قانون الطبيعة وما خلاف ذلك ، يعكس الطبيعة بطريقة أكثر عمقا وصدقا واكتمالا . (١)

فلوك حين تحدث عن المقارنة بين الأفكار ، فكان يعني مقارنتها من حيث محتواها ودرجات صدقها . (٢)

وعندما يقوم العقل بعملية الربط بين هذه الأفكار ، بعضها ببعض فإن ذلك يؤدي الى تكوين أفكار مركبة . وهكذا ظهرت نظرية لوك في التجريد ، فالعقل يقوم بعملية التجريد ، أي تجريد الأفكار الجزئية من كل ما يجعلها ترتبط بموضوع معين ، او ترمز الى شيء بالذات بحيث تصبح هذه الأفكار المستمدة من أشياء معينة أفكارا عامة . فنحن نلاحظ في تجربتنا اليومية كثيرا من الأشياء التي تشبه بعضها في عدد الخصائص والأحوال ، فبفضل التجريد نستخلص الخصائص المشتركة بين الجزئيات ونسقط الاعراض الثانوية فنحصل على الأفكار العامة التي تدل عليها بلفظ واحد . (٣)

ويسوق لوك مثلا باللون الابيض فيقول : " إن الانسان قد يلحظ وجود اللون الأبيض في الثلج والطباشير ، وهو اللون الذي شهده بالأمس في اللبن . نجده يبدأ في تكوين فكرة جديدة ، لا هي خاصة باللبن ، ولا بالطباشير ولا بالثلج ، بل يمكن أن تنطبق على أي منها ، وكذلك على كل ما يمكن ان يتصف بنفس الصفة

---

(١) راجع مجموعة من الاساتذة السوفييت ، الموسوعة الفلسفية ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١١٢ .

2-Voir,Locke ,Essai Philosophique ,Ibid,P:113

(٢) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ص : ٢٧٠ .

وأعطى هذه الصفة اسما جديدا هو البياض ، وهكذا بالنسبة لبقية الأفكار الأخرى المجردة ..."[1] وأيا ماكان الأمر ، يؤكد لوك على الأفكار الحسية ، وأنها هي أساس أفكارنا كلها . تلك الأفكار التي نكتسبها عن طريق السمع والبصر .. أما بخصوص التفكير فإنه يتكون لدينا عندما ينصب العقل على الحالات الباطنية ، وعلى فعالية ونشاط النفس تلك هي على سبيل المثال الأفكار عن مختلف عمليات تفكيرنا .[2] لكن إذا كان التفكير التأملي - كما هو معروف - هو الفكر الذى لا يعتمد على الخبرة او التجربة .[3] ألا يمكن اعتبار هذا البديل الأخير الذى يطرحه لوك كمصدر للمعرفة تنازلا للمثالية ؟ واظن انني لا ابتعد عن الحقيقة اذا اعتقدت مثل هذا الاعتقاد . وسيتضح هذا الموقف أكثر ، في مكان لاحق ، عندما يحدثنا لوك عن التفرقة بين الكيفيات الأولية ، والكيفيات الثانوية . والتي أفضت به الي نوع من المبالغة في المعارضة بين الذاتي والموضوعي ، ذلك أن في العملية المعرفية يتحقق التفاعل بين الذات والموضوع ، التي تتمثل نتيجتها الاسمى ، المعرفة الحقيقية الموضوعية ، أى في المعرفة العلمية ، وفي انعكاس الواقع .[4]

إلا أنه من جانب آخر لابد من الأخذ بالاعتبار الاستقلالية النسبية للأفكار ، ثم لعملية التوليد الذاتي .

كيفية استخدام عبارة الافكار :

المقصود بالفكرة بشكل عام ، انعكاس الواقع الموضوعي ، والتأكيد في الوقت نفسه على التأثير العكسي للفكرة على تطور الواقع المادى بهدف تحويله .[5]

وقد تم استخدام عبارة الفكرة في تاريخ الفلسفة بمعان مختلفة : فالفكرة عند افلاطون مثلا : هي المثال ، او الشيء بالذات المفارق للمادة ، هي العالم الحقيقي

1-Ibidem.

(٢) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٦٧ .
(٣) زاموشكين ، الفلسفة والعملية الثورية ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٧٢ .
(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٥٢ .
(٥) مجموعة من العلماء السوفييت ، الموسوعة الفلسفية ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٣٣٦ .

الثابت الخالد ، مقابل العالم المحسوس المتغير .[1]

والفكرة عند ديكارت هي ما يلي : " من خواطر نفسي ما يكون أشبه بصور للأشياء وهذه وحدها يطابقها اسم الفكرة على التحديد " .[2] ويحاول توضيح هذه الفكرة مدعما أياها بأمثلة . فيقول : " إن أتمثل انسانا أو غولا ، أو ملكا ، أو الله نفسه ، ومنها ما يكون له صور أخرى ، فإني مثلا حين أريد ، أو أخاف ، وأثبت ، وأنفي ، إنما أتصور دائما شيئا هو حامل لفعل ذهني ، ولكني أضيف أيضا شيئا آخر بهذا الفعل الى الفكرة التي لدي عن ذلك الشيء ، وهذا الضرب من الخواطر بعضه يسمى إرادات أو اهواء ، وبعضه الآخر يسمى أحكاما " .[3]

ديكارت يقسم الأفكار الى ثلاثة أنواع :

١- الفكرة الفطرية ، وهي غريزية ، أي انها غير مستفادة من الأشياء ولا مركبة بالإرادة ، غير أن النفس تستنبطها من ذاتها ، وتمتاز بإنها واضحة .[4] ولنا عودة إلى هذا الموضوع في الفصول اللاحقة .

٢- الفكرة العارضة : وهي الآتية من الحواس .

٣- الفكرة المصطنعة وهي التي ينشئها الذهن ويبدعها .

يقول ديكارت في هذا الصدد : " هذه الأفكار يبدو بعضها مفطورا في[5] وبعضها غريبا عني ومستمدا من الخارج ، والبعض الآخر وليد صنعي واختراعي " .

هذا هو معنى الفكرة بشكل عام ، وكيف كانت الفكرة تستخدم بمعان مختلفة في مراحل من تاريخ الفلسفة .

لنر الآن ، ما موقف لوك من هذه المسألة ؟

يكتب في هذا المعنى : " يجب ان أستميح القارىء عذرا عن استخدام المتكرر لكلمة (فكرة) الذى سوف يجده في البحث التالي " .

---

(١) د . جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٥٧ .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٥٨ .
(٣) المرجع السابق المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٤) مراد وهبة ، يوسف كرم ، المعجم الفلسفي ، الصفحة الثانية ، القاهرة ١٩٧١ ، ص : ١٦٣ .
(٥) د . جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

فهذا هو أفضل مصطلح في رأيي يصلح للدلالة على موضوع التفكير أيا كان عند ما يفكر الإنسان ، وقد استعملته للتعبير عما يقصد بالخيال او المدلول ، او الأصناف . . ولم يكن بوسعي تجنب استعمال هذا المصطلح بشكل متكرر ، وإنني أرجح أن القارئ سيوافقني على أن ثمة أفكارا في عقول الناس ، فكل واحد منا يعي وجودها في نفسه ، كما أن كلمات الناس وأفعالهم تقنعه بأنها موجودة لديهم ايضا "(١) .

إن لوك - كما هو واضح - يستخدم كلمة الفكرة بمعنى أوسع ، ولكنه مع ذلك متصل بما يقصده من مدلولات لاحقة :

الظواهر ، الانطباعات ، والمدركات ، والمحسوسات والمعطيات(٢) . . .الخ ويمكن تحديد مفهوم الفكرة عند لوك على النحو التالي :(٣)

الفكرة هي موضوع العقل ، أو الفكر اثناء عملية التفكير . بعبارة أخرى ، الفكرة هي كل ما يمكن ان يقوم في ذهن الانسان أثناء عملية التفكير . فالعقل لا يمكن بأى صورة من الصور أن يقوم بوظائفه ، أو عملياته الفكرية والذهنية ، كالتذكر والتخيل ، والتفكير وما إلى ذلك ، بغياب هذه الأفكار ، التي هي في واقع الحال ناتجة عنه .

فوجودها مسألة ضرورية لا جدال فيها لقيام العقل بوظيفته ، من حيث كونها أفكارا بسيطة تتكون في العقل عن طريق الإحساس أو التفكير ، وهي ناتجة عنه من حيث كونها أفكار مركبة تتكون في العقل عن طريق التفكير فقط .(٤)

استنادا الى ما سبق ذكره ، يمكن ان نلحظ ما يلي :

١- لوك يستخدم معنى كلمة فكرة - كما شاهدنا في معان مختلفة ، رغم وجود ما يضبطها على نحو ما ، فقد استخدم هذه الكلمة في كل ما يعرض للذهن خلال عملية التفكير .

٢- احيانا يستخدم كلمة فكرة بمعنى خاطر ، وهذا يعني أن كل خاطر فكرة ،

1-Locke,Essai philosophique ,Ibid,P,5-6.

(٢) اوسايا برلين - عصر التنوير . ترجمة د . فؤاد شعبان ، مراجعة ناظم الطحان ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ١٩٨٠ ، ص : ٣٩ .

(٣) د . عزمي اسلام ، جون لوك ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٥٦ .

(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

والعكس غير صحيح ، بحيث أننا لا نستطيع القول إن كل فكرة خاطر ، يكتب في هذا الموضوع : " إن معنى كلمة خاطر - لن تشير إلى كل موضوع من الموضوعات المباشرة التي تعرض أمام الذهن أثناء عملية التفكير . كما تفعل ذلك كلمة فكرة ، وإنما أقصد بمعنى كلمة خاطر استخداما خاصا في كتابي ، وهو أن تشير إلى أفكاري عن الأعراض المركبة " (١) .

٣- ويستخدم بمعنى المعطى الحسي ، كل ما يتعلق بالأفكار البسيطة الناتجة عن الاحساس .

٤- ويستخدمها أيضا بمعنى التأمل الذاتي ، كأفكارنا عن الإدراك أو التفكير .

٥- كما يستخدمها بمعنى الصورة الذهنية ، إن الفكرة هي التصور الذهني ، أو هي حصول صورة الشيء في الذهن . مثل أفكارنا المركبة عن الجوهر ، وهذا بغض النظر عن تطابق هذه الصور مع الواقع أو عدم تطابقها .

وربما كان هذا هو المقصود الذي كان يرمي اليه لوك عندما استخدم كلمة فكرة بمعنى الوهم (٢) ، كأفكارنا عن عروس البحر .

ورغم هذا التنوع في استخدام الفكرة عند لوك ، يوجد حد مشترك بينها ، ويتمثل هذا الحد المشترك في كون أن الفكرة ما هي إلا موضوع العقل ، أو هي كل ما يمكن أن يقوم في عقل الانسان أثناء عملية التفكير ، ومنشؤها التجربة . وتبقى الإشارة إلى كانط باعتباره من الفلاسفة الذين تأثروا بفلسفة لوك ، وبنظريته في المعرفة تحديدا .

من حيث امكانات المعرفة وحدودها .. فقد تساءل مثل لوك ما المعرفة ؟ وكيف تكون ممكنة ؟ وما الذي يمكن أن نعرفه ؟ وما الذي لا يمكن معرفته ؟ وهل للمعرفة حدود ضرورية ؟ (٣)

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة ، ص : ١٢٦ .

(٣) ولترستيس ، فلسفة هيجل ، المنطق وفلسفة الطبيعة ، ترجمة د . امام عبد الفتاح امام ، المجلد الاول ، تقديم : د . زكي نجيب محمود الطبعة الثانية دار التنوير للطباعة والنشر ١٩٨٢ بيروت ، ص : ٤٥ .

يقول كانط في هذا الخصوص : " إذ ينبغي أن نفحص الاداة قبل أن نعهد إليها بالعمل ، لأنه إذا لم تكن الأداة صالحة فإن مجهودنا كله سوف يضيع أدراج الرياح " . (١)

وهذا ما ذهب اليه لوك من قبل ،عند ما تحدث عن محدودية المعرفة الإنسانية .

كانط لم يقف عند هذا الحد ،إذ رد مضمون المعرفة الإنسانية الى كل من الحس والعقل معا ، لا الحس فقط ، أو العقل وحده ، بل كل منهما يتم الآخر . ولكانط مقولة مشهورة تقول : " التصورات بدون الادراكات فارغة ،والادراكات بدون التصورات عمياء " . غير ان كانط لم يواصل مسيره في هذا الاتجاه الى نهايته . فقد عاد ليؤكد المقولات الأولية القبلية في المعرفة ، كمقولتي المكان والزمان فهما في نظره قبلية سابقة على التجربة . وهذا ما يميزه عن لوك .

ثم أنه من جهة أخرى ،إذا كانت الفكرة عند لوك تنشأ في الذهن عن طريق التجربة ، فإن كانط يرى أن الفكرة ما هي إلا تصور ضرورى للعقل الخالص . (٢)

فالفكرة بهذا المعنى ذاتية فحسب ، لا علاقة لها لا من قريب ، ولا من بعيد بالعالم الخارجي .

هيجل من جهته يواصل فكرته عن العقل من خلال كانط ، إلا انه يزيد الامر توضيحا ، عند ما يرد على كانط .

فيقول : " غير أن فحص المعرفة لا يمكن أن يتم إلا بفعل من أفعال المعرفة ، ومعنى ذلك أن فحص ما يسمى بأداة* المعرفة هو نفسه معرفة ، ومحاولة المعرفة قبل أن نعرف هي أشبه ما يكون بقول القائل .: إنني لا أستطيع أن اغامر بالنزول في الماء قبل أن أتعلم السباحة " . (٣)

---

(١) د . امام عبد الفتاح امام ،المنهج الجدلي عند هيجل ، دار المعارف بمصر ١٩٦٩ ص : ١٠١ .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

* ربما يقصد باداة المعرفة هنا ، العقل .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٠٢ .

وفيما يتعلق بمعنى الفكرة عند هيجل ، فهو يختلف عن المعنى الذى يهدف اليه كانط ، وفي الوقت نفسه يقترب الى حد ما عن المعنى الذى قصده لوك .

يكتب هيجل في هذا المجال : "الفكرة هي التصور المتكافئ او الصدق الموضوعي أو هي الصدق من حيث هو صدق ، عندما يكون شيء من الأشياء ذا حقيقة ما فانما يكون كذلك بواسطة فكرته " . (١)

ويواصل حديثه فيقول : "أو بعبارة أخرى ، لا يكون الشيء حقيقيا إلا بقدر ما يكون هو نفسه فكرة ، ومن المعتاد غالبا سواء في الفلسفة ، أو في الحياة الجارية استخدام كلمة فكرة محل كلمة تصور " . (٢) كما يتبين من الفقرة ، هيجل يوجه نقده لكانط ، ولو بطريقة غير مباشرة ، لكن في الفقرة اللاحقة ، يبدأ في انتقاده صراحة ، ويذكره بالاسم ويقول : " فالواقع أن التصور العقلي عند كانط بمثابة تصور غير مشروط ، ولكنه يعد عاليا بالنسبة الى الظاهرات ، أى أنه بعبارة أخرى تصور يستحيل استخدامه استخداما تجريبيا متكافئا " . (٣)

هيجل ، فوق ذلك يميز بين العقل والفهم ، فيرى أن تصورات العقل تعتق على تصورات الادراكات الحسية ، بينما تعين تصورات الفهم على فهمها . (٤)

الا انه يستدرك ويقول : " لكن في الحقيقة ، عندما تصبح تصورات الفهم تصورات بالمعنى الصحيح فانها تؤدى نفس وظيفة تصورات العقل ، بحيث يكون فهم الادراكات الحسية بواسطة التصورات ، وتصورها شيئا واحدا " . (٥)

وفضلا عن هذا كله ، فإن الفكرة عند هيجل - كما يشير لنا سير جوله هي وحدة الذاتية والموضوعية ، هي وحدة التصور الذاتي والموضوعية الخارجية . في هذه النقطة بالذات نجد هيجل يخالف لوك .

---

(١) نص لهيجل من كتاب (علم المنطق) ، نوابغ الفكر الغربي . د . عبد الفتاح ديدى ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ ، ص : ١٩٥ .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٥) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٠٤ .

لوك - كما رأينا - يبالغ في التفرقة بين ما هو ذاتي ، وما هو موضوعي ، وحتى لو كان هناك من علاقة فهي لا تعدو أن تكون عرضية ، تتم عن طريق المؤثرات الخارجية فحسب ، بينما نجد عند هيجل الوحدة بين الذاتية والموضوعية ، فحين تتأمل الذات موضوعها ، فإنها في الواقع تتأمل نفسها ، فالفكر حين يفكر في فكرة ما ، فإنه يلغي نفسه كفكر ، أو بصورة أخرى ، إن الذات حين تجعل من نفسها موضوعا لنشاطها ، فإنها تنفي نفسها كذات لأنها ليست الآن ذاتا ، بل موضوعا لنشاطها الخاص .[1] إلا أن هذا الموضوع ليس موضوعا آخر ، أى ليس غريبا عنها ، إنه الذات ، وبالتالي فالذات هي : الذات والموضوع في آن واحد ، لكن ، هذا لا يعني أن هناك تطابقا تاما بينهما وقد سبق القول إنه على الرغم من العلاقة الوثيقة بين الذات والموضوع ، لابد من وجود نوع من الاستقلال النسبي بينهما ، فالعقل هنا يأخذ بمبدأ هوية الاضداد ، فالموضوع الآن متميز عن الذات ولكنه متحد معها في وقت واحد .[2] وانطلاقا من كل ما تقدم ، يمكن القول إن الفكرة عند هيجل تعني الوحدة بين الذات والموضوع ، وحدة جدلية ، أى في صورة تفاعل ، الواحد يؤثر بالآخر ويتأثر به . وليس من سبيل إلى الشك في أن هيجل كان من الشمولية والعمق ، بحيث أصبح بحق خاتمة المثالية الألمانية الكلاسيكية بوجه خاص ، وتطوير المثالية الألمانية عموما ، يرجع له الفضل في كونه أول فيلسوف حاول أن يعالج ، ويفهم العالم الطبيعي والتاريخي والروحي ، كعملية مستمرة وحركة مستديمة ، وكصيرورة دائمة ، وعبر ذلك قام بمحاولة اكتشاف الرابطة الداخلية لكافة هذه العوامل .

هيجل أول فيلسوف أبدى محاولة جادة من أجل تأسيس الديالكتيك كعلم فلسفي ، في هذا العالم حاول أن يلخص المعنى الحقيقي في المسيرة المعرفية الطويلة للإنسانية ، لذلك نجده قد أعطى اهتماما استثنائيا لنقد الطريقة الماورائية ، إذ بدون ذلك لم يكن بمقدوره تأسيس المنهج الجدلي ، لوك - كما شاهدنا - فيلسوف تجريبي ، احتكم الى التجربة ، بإنها الأساس والمصدر لكل معارفنا ، بيد أن منهجه - بالرغم من

---

(١) د . امام عبد الفتاح امام - المنهج الجدلي عند هيجل ، المعطيات السابقة نفسها ص : ١٢٥ .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

ظهور بوادر جدلية - كان منهجا ميتافيزيقيا [1]، لا جدليا .

فمنهج لوك إذن يركز أصلا على تحليل ظواهر الطبيعة ودراستها منفصلة ، ثم على دراسة الظواهر في ترابطها ووحدتها في المرحلة اللاحقة ، [2] وهذا المنهج في مجمله ينظر الى الطبيعة كما لو كانت مجموعة أجزاء مفككة لا رابط يجمع بينها ، ويطلق ماركس وانجلز على هذا المنهج ، المنهج الميتافيزيقي [3] .

اما هيجل فينطلق - كما بينا - من منطلق الديالكتيك . أى أن التمايز والتطابق في الديالكتيك لا يمكن فصلهما بأية حال ، وعلى صعيد أية ظاهرة .

لابد للجوهر أن يحتوى التمايز بالاضافة الى التطابق . في هذا التطابق (النسبي) نفسه نجد الموضوعي والذاتي ليسا متوحدين فقط ، بل مختلفين ومتمايزين أيضا . ولا ريب في أن الفهم السليم للعلاقة بين التفكير والوجود يساعد على حل مسألة الفكرة ، وهذه المسألة وجدت امكانات ايضاحها بطريقة علمية اولية في المادية الديالكتيكية التي تعتبر الفكرة انعكاسا لواقع موضوعي ، وهي تؤكد في الوقت نفسه على التأثير العكسي للفكرة على تطور الواقع المادى ، وليس هذا فحسب ، بل العمل من أجل تغييره وتحويله ايضا .

***

---

(١) راجع ، المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٦٩ .

الفصل الثاني

انواع الافكار عند لوك

رأينا في الفصل السابق كيف يعرف لوك مفهوم الفكرة ، على أنها موضوع العقل مادته أثناء قيامه بوظيفته ، أي بعملية التفكير . إذ لا يمكن بأية حال أن يقوم العقل بوظائفه دون وجود تلك الأفكار ، التي بقدر ما هي نتيجة عنه هي أساس لقيامه بوظيفته .

ويصنف تلك الافكار الى نوعين :

أ- افكار بسيطة ، وهي الأفكار التي تستمد من التجربتين الخارجية والداخلية ، أي عبر الاحساس او التفكير .

ب- افكار مركبة ، ترجع الى التفكير فقط .

لنقرأ ما كتبه لوك في هذا الموضوع : " إذا أردنا أن نصل إلى فهم طبيعة واشكال ومدى المعرفة التي نملكها ، فعلينا أن نلاحظ شيئا هاما يتعلق بما لدينا من أفكار ، وهو أن بعضها بسيط وبعضها مركب " . (١)

أ- الأفكار البسيطة :

وقد لاحظ لوك أن الخصائص أو الكيفيات الحسية الموجودة في الأشياء الطبيعية مرتبطة ، ومتحدة ، إلا أن الانطباعات الحسية التي ترد إلى عقل الإنسان عن طريق حواسه ، تصل إلى العقل منفصلة غير متحدة .

يقول في هذا المعنى : " مع أن الخواص التي تؤثر في حواسنا ، هي في الأشياء متحدة ومتزجة إلى درجة لا يمكن معها التمييز بين بعضها والبعض الآخر ، فإنه من الواضح أن الافكار التي تنشأ عنها في العقل تدخل عن طريق الحواس بسيطة وغير متحدة " . (٢)

يضرب لوك مثلا على ذلك بالبرودة والصلابة ويقول : " فالبرودة والصلابة التي

1-Locke, Essai philosophique ,Ibid,P:117
2-Ibidem

يشعر بها المرء في قطعة ثلج هما فكرتان منفصلتان تماما في العقل ، كالرائحة واللون الأبيض في زهرة الزنبق ، أو كطعم السكر ، ورائحة الورد " .(١)

فالأفكار البسيطة بهذا المعنى تتكون في العقل بواسطة الإحساس أو التفكير ، مثل فكرة الشكل والحجم والصلابة ... الخ .

يصنفها إلى أربعة أجزاء فرعية :(٢)

١- أفكار تأتينا من حاسة واحدة .
٢- أفكار تصل العقل بوساطة أكثر من حاسة واحدة .
٣- أفكار تأتينا عن طريق التفكير أو التأمل الذاتي فقط .
٤- أفكار نتوصل إليها بوساطة الإحساس بالطرق المختلفة ، إضافة إلى التفكير .

١- الأفكار التي تصل العقل بوساطة حاسة واحدة :

وهي التي تتكون بالانطباعات الحسية ، وبعبارة أخرى ، إنها تتكون عن طريق ادراك كل حاسة من الحواس للأشياء او الموجودات الطبيعية مثل الضوء ، والألوان ، كالأبيض والأحمر والأصفر ، وزرقة البحر ... الخ . وكذلك جميع الأصوات والنغمات التي تدركها الأذن ، والروائح بالأنف .(٣) وهكذا بالنسبة لبقية الحواس . ففيما يتصل بفكرة الصلابة يقول لوك : "إن فكرة الصلابة تأتينا عن طريق اللمس ، لأنها تنشأ بسبب المقاومة التي نجدها في الجسم ، حين يحاول أى جسم آخر أن يشغل نفس المكان " .(٤) وفوق هذا ، أن فكرة الصلابة هي أكثر الأفكار التي نتلقاها عن طريق الحواس ثباتا ، سواء أكنا في حركة ، أو كنا في سكون ، وفي أى موضع كنا عليه ، واقفين جالسين ، نحس دائما بأن هناك شيئا ما يمنعنا من السقوط الى أسفل .(٥)

والجسم في هذه الحال يشغل مكانا ما . ذلك ، لأن معنى الصلابة ماهو إلا احساسنا بوجود شيء صلب ، أى شيء يشغل حيزا ، أو مكانا معينا .

1-Ibidem .
2-Ibid;P:77
3- Ibid,P:78
4-Ibid,P:79
5-Ibidem

لكن لوك من جانب آخر يفرق بين الصلابة وامتداد الجسم .[1] فيرى أن امتداد الجسم ليس شيئا سوى اتحاد واسترسال اجزاء صلبة قابلة للانقسام ، ولها القدرة على الحركة .

في حين أن امتداد المكان هو استرسال أجزاء ليست صلبة وغير منقسمة ، وغير متحركة .

٢- الأفكار التي تتكون في العقل بوساطة حواس مختلفة :

ومن الأفكار التي تأتي الى الذهن بوساطة أكثر من حاسة واحدة ، كأفكارنا عن المكان ، والامتداد ، والشكل والحركة ، والسكون كلها تكونت في أذهاننا نتيجة انطباعات حسية ،وذلك عن طريق حاسة العين ، وحاسة اللمس .[2]

٣- الأفكار البسيطة التي تأتينا عن طريق التفكير (التأمل الذاتي) :[3]

تتكون في الذهن أفكار من الموضوعات الخارجية ، التي تصل إليه بوساطة الحواس هذه الأفكار يجعلها الذهن أو الفكر موضوعا لتأملاته ،إذ يتجه الى ذاته ليتأمل نفسه ، ويلاحظ عملياته الداخلية التي يقوم بها حول هذه الأفكار . لذلك يبدأ العقل بالتزود بأفكار جديدة ، لم تكن فيه من قبل ، وأهم هذه الأفكار هي :

آ- الادراك ، أو قوة التفكير .

ب- الارادة او الرغبة .

ويسمى قوة التفكير العقل ، والرغبة بالإرادة ، وهما قوتان في النفس ، باعتبارهما ملكة ، تأتينا من التفكير .[4]

٤- الأفكار البسيطة التي تأتينا عن طريق الإحساس والتفكير :

مثل اللذة ،والألم ،والقلق ، القوة والوجود والوحدة .[5]

1-Ibid,P:81
2-Ibid,P:83
3-Ibidem
4-Ibidem
5-Ibid,P;84

اللذة والألم هما فكرتان تصاحبان جميع أفكارنا الظاهرة والباطنة تقريبا ، تأتيان بوساطة الإحساس والتفكير ، وهما الأكثر استقرارا أو اكثر دواما .

ورب سائل يسأل : كيف تتكون هذه الأفكار ؟ أو بالأحرى ، كيف تتشكل فكرة الوجود والوحدة ، والدوام ، والقوة في العقل ؟

يجيب لوك عن هذا السؤال بقوله : " إن الوجود والوحدة فكرتان يثيرهما في العقل كل إحساس خارجي ، وكل فكرة ندركها بانفسنا ".(١) فتنشأ فكرة العدد من تكرار الوحدة . وتنشأ فكرة الدوام من ملاحظة الزمن الذى يقضي بين أفكارنا في تعاقبها .

أما فكرتنا عن القوة فهي تتكون في الذهن بوساطة الإحساس والتفكير معا .(٢)

هذه هي الأفكار البسيطة عند لوك ، ويذكر إضافة الى كل ذلك بعض الاعتبارات المتصلة بهذه الأفكار ، وتحدث عن الكيفيات الموجودة في الأشياء ، من حيث هي قوة تستطيع احداث هذه الأفكار في عقولنا ، يكتب : " أسمى فكرة كل ما يدركه الذهن بذاته ، كل ادراك في الذهن حين يفكر ، وأسمى صفة الذات القوة او الملكة التي تنشئ بعض الأفكار في الذهن ".(٣)

لوك - كما هو معروف - يميز بين نوعين من الصفات او الكيفيات في الجسم :

١- الكيفيات الاولية للأشياء .

٢- الكيفيات الثانوية .

١- الكيفيات الأولية : وهي الصفات الأساسية ، والثابتة في الجسم ، الملازمة له دائما وباستمرار ، لا تفارقه ابدا ، مهما حدث في هذا الجسم من تغيرات ، وما طرأ عليه من تحولات .(٤)

هذه الكيفيات موضوعية ، أي أنها موجودة في الأشياء ، خارج وعينا ، ومستقلة عنه . بهذا المعنى لا يمكن أن توجد هذه الأشياء بدونها . وبما أن هذه الكيفيات موجودة

1-Ibid,P:86
2-Ibidem
3-Ibidem
4-Ibid,P,89

في الأشياء ذاتها ، فإن لوك يطلق عليها كيفيات واقعية ، كالشكل ، والامتداد ، والصلابة ، والعدد ، والحركة أو السكون . وليقرب هذه الفكرة الى اذهاننا يضرب مثلا بحبة القمح ، ويقول : " خذ حبة قمح وقسمها إلى قسمين ، فسيظل كل قسم منها على درجة من الامتداد والصلابة ، وعلى شكل معين ، وحركة ، ثم قسم هذا الجزء ثانية إلى نصفين ، وسيبقى كل منهما محتفظا بنفس الكيفيات السابقة ، وواصل في التقسيم ، مرة ثالثة ورابعة . . إلى أن تصبح الحبة أصغر من أن تدرك بالحواس ، ستجد أن كل جزء منها ما زال محتفظا بكل هذه الكيفيات السابقة " . (١) لأن عملية التقسيم هذه سواء تمت بوساطة طاحونة أو مدق ، أو من أى جسم آخر ، لا يمكن بأية حال أن تزيل عن أى جسم مهما صغر حجمه ، كيفيات الصلابة والامتداد والشكل والحركة وما إليها بالتقسيم . وإنما كل ما تستطيع فعله ، هو أن تجعل من الجسم الذى كان في السابق شيئا واحدا ، كتلتين أو اكثر من المادة . (٢) وهذه الكتل المتميزة تصبح أجساما مستقلة ، وهي ما يسميها لوك بالكيفيات الأصلية او الأولية للأجسام . والتي تكون فينا - في نظره - أفكارا بسيطة ، مثل الامتداد والشكل والصلابة . . . (٣)

ويمكن اجمال القول ، في أن الكيفيات الأولية عند لوك واقعية ، موضوعية ، أصلية موجودة في الأشياء ذاتها . ملازمة لها ، أى لا يمكن أن تنفصل عنها بأى حال من الأحوال ، ومهما كانت أوضاع تلك الاجسام . فوجود الأشياء مشروطة بوجودها .

٢- الكيفيات الثانوية :

إذا كانت الكيفيات الأولية عن الأشياء - كما شاهدنا - لا تنفصل عن الجسم اطلاقا ، بل يحتفظ بها مهما كانت التغيرات التي تطرأ على هذا الجسم أو ذاك . فإن الكيفيات الثانوية ولو أنها تبدو ملازمة للأشياء ، فهي ليست كذلك .

لنقرأ ما يلي : " الكيفيات الثانوية ، وهي تلك الكيفيات التي في حقيقتها ليس لها وجود في الأشياء ذاتها ، بل هي قوى تحدث فينا احساسات مختلفة بوساطة كيفياتها الأولية ، أى بوساطة حجم وشكل وحركة أجزائها غير المحسوسة . . مثل الالوان

1-Ibid P,89
2-Ibidem
3-Ibidem .

والأصوات ، والطعم .. وغير ذلك ، وهذه أسميها بالكيفيات الثانوية " .[1] وكما هو واضح ، أن الكيفيات الثانوية عند لوك ليست في الأشياء ذاتها ، فالأشياء لا تحتوى في داخلها سوى القدرة على إثارة هذه الأحاسيس فينا . فما يبدو لنا في الفكرة جميلا رماديا دافئا ليس في الأشياء ذاتها ، بل مجرد انفعالات ذاتية ، تنجم[2] عن شكل وحركة الدقائق التي منها تتألف الاشياء والتي لا تدرك من قبل الحس .

ويمكن مناقشة المسألة على النحو التالي :

إن التفرقة بين الكيفيات الاولية والثانوية ليست من ابتكار لوك ، وإنما قام هو بتطويرها ، فقد سبقه الى هذا الموضوع علماء وفلاسفة كبار امثال جاليليو وبويل ، وهوبز وديكارت . . . وهم الذين أثروا تأثيرا قويا في فلسفة لوك - كما رأينا - فجاليليو مثلا يؤكد بناء على نظرية ديمقريطس على ذاتية اللون والرائحة . . . الخ . والمادة في تصوراته تتألف من عدد لانهائي من الدقائق الجسيمية ، وكل واحدة منها تملك شكلا معينا ، ومقدارا معينا ، ومكانا محددا تشغله في الفراغ ، تتحرك ، أو تبقى ثابتة ، لكنها لا تملك لونا او طعما او رائحة . اذ أن هذه الكيفيات غير موجودة أصلا في المادة بذاتها ، وإنما تظهر للذات المدركة فقط .[3]

وهذا لا يعني أن نظرة جاليليو إلى المادة هي نفسها نظرة الفلاسفة الماديين اليونانيين . إنها تختلف عنها ولو على نحو جزئي على الأقل . فديمقريطس مثلا ، الذى لم يكتف ، باسباغ كيفيات موضوعية على المادة فحسب ، بل عمم آراءه الذرية لتشمل الحياة والروح أيضا ، فقد اعتبر بأن النفس تتألف من ذرات نارية . إلى جانب هذا ، ميز بين ما يوجد في الظن ، وما يوجد في الواقع . ففي الظن يوجد الحلو والمر والبارد واللون . . . الخ .[4]

أما ما يوجد في الواقع فهو الذرات والخلاء لا أكثر .

في الحقيقة أن إثارة مسألة كيفيات الأشياء لم تظهر بصورة جدية إلا حينما أوضح ديكارت فكرته عن التفرقة بين نوعين من الكيفيات في الأشياء ، الاولى ، كالامتداد

1-Ibid,P:90

(٢) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٦٨ .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها : الصفحة ٢٣١ .

(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٩٣ .

والشكل والحركة . . وهي كيفيات موجودة في الأشياء ذاتها ، لا تنفصل عنها ، والثانية تعتمد على الأشياء ، وعلى الذات المدركة في آن معا .

وفي هذا الخصوص يكتب ديكارت : " فمع أن تأكدنا من وجود الجسم حين نرى شكله ليس أقل من تأكدنا من وجوده حين نرى لونه ، إلا أن معرفتنا لخاصية الشكل فيه معروفة أكثر وضوحا من معرفتنا للخاصية التي بها يبدو لنا ملونا "(١) . ويمضي قائلا : " واضح إذن أننا إذا قلنا لشخص ما أننا ندرك ألوانا في الأجسام ، فكأننا قلنا له أننا ندرك في هذه الأجسام شيئا نجهل طبيعته "(٢) .

وأيا ما كان الأمر ، فإن فكرتنا عن الشكل - حسب ديكارت - فكرة واضحة لا غبار عليها ، في حين أن فكرتنا عن اللون فكرة غامضة ، وغير واضحة .

فاللون بهذا المعنى ليس في الأجسام كما يبدو لنا أمام العين ، وانما هو في الحقيقة عبارة عن مجموعة من الحركات الصغيرة التي لا ترى بالعين المجردة ، فهي حركات نتصورها ، ولا نتمثلها .(٣) ومع كل ذلك ، فإن ديكارت لم يدخل تماما في مجال الذاتوية ، لأن اللون عنده ناتج عن كيفية فعلية موجودة في الأشياء . كما أوضح يويل من جهته هذه التفرقة ، يقول : " إن الصفات الأولية للمادة موجودة فيها ، ولا بد أن تظل كذلك مهما قسمناها إلى اجزاء دقيقة صغيرة ، سيبقى لها شكل وحجم متميزين ، شأنها شأن الاجسام الكبيرة "(٤) . ثم يضيف إلى ذلك " إن هذه الصفات الأولية كالشكل والحجم حين تؤثر في أعضاء الإنسان تؤدى إلى مايعرف بالصفات الحسية ، تلك الصفات التي غالبا ما نخطئ فننسبها إلى الأجسام نفسها ، إذ أننا تعودنا منذ الطفولة على تصور ارتباط الصفات الحسية بالأشياء الطبيعية ووجودها فيها ، بينما هذا خطأ ، إذ ليس هناك شيء حقيقي في الاجسام سوى صفاتها الاولية "(٥) .

---

(١) ديكارت ، مبادئ الفلسفة ، ترجمة : د . عثمان امين ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠ ، ص : ٥٣ .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٧٠ .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٤) د . عزمي اسلام ، جون لوك ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٦٨ .
(٥) المرجع السابق ، المعطيات المقدمة سابقا ، الصفحة نفسها .

وهذا ما ذهب اليه هوبز أيضا في كتابه المقدم آنفا "التنين" (الوايثان) .

يرى أن هذه الكيفيات الثانوية التي نعتقد أنها موجودة في الأشياء وجودا حقيقيا ، إلا أنها في الواقع على خلاف ذلك ، لأنه لا يوجد في الأشياء سوى تلك الكيفيات الأولية الحقيقية التي تحدث تلك الكيفيات الثانوية .(١)

يسير لوك في هذا الدرب وينحو هذا المنحى ذاته ، فقد ميز - كما بينا - بين الكيفيات الأولية والثانوية ، فالأولية موضوعية أى قائمة في الأشياء غير منفصلة عنها . أما الثانوية فليست كذلك ، فهي لا توجد في الأشياء ، بل هي مجرد انفعالات ذاتية ، تنجم عن حركة الدقائق والأجزاء التي منها تتألف الاشياء غير مدركة حسيا ، ويضيف إلى هذين النوعين من الكيفيات ، النوع الثالث ، وهو القوى الخالصة ، كاللذة ، والألم ، ولا أحد يشك في ذاتيتها .

وقد ذهب شراح لوك ، ونظروا الى موقفه من مسألة الكيفيات الأولية والثانوية على انه تعبير واضح عن فكرة ذاتية الكيفيات الثانوية ، وموضوعية الكيفيات الاولية .(٢) غير أن ثمة من يرى رأيا آخر ، فإذا كانت الكيفيات الأولية مصاحبة للأشياء ، بل ملازمة لها ، وهذا أمر لا خلاف حوله ، فإن الكيفيات الثانوية ، وفق تصور هؤلاء ، ليس من الضرورى أن تكون موجودة في الأشياء ،إذ يمكن أن توجد فيها ، كاللون الأبيض في اللبن أو الثلج ،ويمكن ألا توجد . كتصور جسم دون لون مثل الهواء ، أو جسم دون صوت مثل الصورة ، أو جسم دون طعم مثل الماء وهكذا دواليك .(٣)

وللدكتور فؤاد زكريا رأى في هذا الصدد أبرزه بقوله : "إن صح هذا التفسير للتفرقة بين الكيفيات الأولية والثانوية على أنها تفرقة بين الكيفيات التي تدخل في مفهوم الجسم أو التي لا تدخل ، فان هذه التفرقة لا تؤثر على الاطلاق في القول بذاتية الكيفيات أو عدم ذاتيتها ".(٤)

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة ، نفسها ، الصفحة نفسها .

(٢) د . فؤاد زكريا ،نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للانسان ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٦٦ .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٤) المرجع السابق ، المعطيات المقدمة سابقا ،ص : ٦٧ .

ويواصل مناقشة هذه المسألة فيقول : " ولو فرضنا أن الجسم بكل صفاته ، راجع إلى أفكار ذاتية ، فإن هذا لا يمنع من استمرار التفرقة بين نوعين من الصفات ، أحدهما لا يمكن تصور الجسم بدونه ، والآخر قد يوجد في الجسم او لا يوجد " (١) .

ثم يضيف : " إنك تستطيع أن تسلم ، مثلا بأن كل ما يتعلق بالجسم صادر عن الذات ، وتؤكد في الوقت ذاته أن هناك صفات لا تستطيع الذات أن تبعث فكرة الجسم دون بعثها هي الأخرى ، وصفات أخرى يمكن بعث فكرة الجسم بدونها ، فالكيفيات الأولى في هذا التفكير جزء من تصور الجسم ذاته سواء كان مصدر هذا الجسم ذاتيا او موضوعيا " (٢) * .

ويخلص الى نتيجة ، ترمي الى ان تفرقة لوك بين الكيفيات الاولية والثانوية قد لا تكون الا مجرد تفرقة لغوية ، تتعلق بعلاقة كيفيات الجسم المختلفة ، وهي في نظره ، تفرقة تظل صحيحة مهما كان الاصل الذى ينسب الى هذه الكيفيات . (٣) وهذا يعني أن فؤاد زكريا يوافق لوك على هذه التفرقة بين الكيفيات الاولية والثانوية ، مع انه في الموضع نفسه يشير الى تردد لوك بين التفسير المادى والمثالي . واظن ان هذا هو الموقف الصحيح ، لاننا نرى لوك - في بعض المواضع - يؤكد على ان معظم افكار الاحساس توجد في الذهن ، دون أن تشابه شيئا يوجد خارجنا ، تماما ، كالاسماء التي تدل على هذه الافكار عندما نسمعها . ويتحدث لوك حديثا آخر شبه مادى عن حركة ما من أعصابنا او ارواحنا الى المخ ، وعن حركة اجسام من الاشياء الخارجية الى العين تبعث فينا صورها ** .

اما الفلاسفة الذين جاؤوا بعده ، فقد حاولوا ازالة ذلك الحاجز الذى وضعه

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

* يبدو ان الدكتور فؤاد زكريا ،استخدم هنا ، ما يعرف بعملية (الرد ، Reduction) وهي تحويل بعض الموضوعات الى موضوعات اخرى معادلة لها كرد الكسور الى مخرج واحد . فقد رد الكيفيات الموضوعية الى كيفيات ذاتية .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ٦٨ .

** فكرة الارواح الحيوانية هذا تشبه الى حد كبير معنى فكرة الارواح الحيوانية عند ديكارت .

لوك بين نوعي الكيفيات .

اما النوع الثالث من الكيفيات الذى تمثله اللذة ، والألم .. لايشك أحد في ذاتيته .(١)

وقد بلغ هذا الاتجاه قمته عند باركلي ،وخاصة في المرحلة التي صدر فيها كتابه : " مبادىء المعرفة البشرية " . وهي المرحلة التي اكتمل فيها موقفه المثالي ، فقد اعتبر ان الكيفيات الأولية والثانوية كلها ذاتية . فإذا كان لوك - كما أسلفنا - يرى أن كيفيات الامتداد والشكل والحركة توجد في الأشياء ، فإن باركلي على العكس يرى أن هذه الكيفيات ليست إلا أفكارا توجد في الذهن ، ويعتقد أن الخطأ الذى وقع فيه بعض الفلاسفة ومنهم لوك بالطبع ، أنهم حاولوا الفصل بين الكيفيات الأولية والثانوية ،وجعلوا لكل منها مصدرا مستقلا ،وهذا في نظره مستحيل ،فيتساءل ،فيما إذا كان بمقدور المرء أن يتصور شكلا وامتدادا دون لون ، أو كيفية أخرى من الكيفيات الثانوية ؟ نقرأ ما نصه : " إن هؤلاء الذين يقرون بأن الشكل والحركة وسائر الصفات الأولية الاساسية توجد في جواهر خارج العقل ، يعترفون في الوقت نفسه بأن الألوان والأصوات والحرارة والبرودة وسائر الصفات الثانوية لا توجد على هذا النحو ، بل هي - كما يقولون لنا - ليست إلا احساسات ذاتية موجودة في العقل وحده ... وهم يعتقدون صحة هذا اعتقادا جازما لا ترقى إليه الشبهات ، والآن إذا كان من المؤكد أن هذه الصفات الاولية ، لا توجد منفصلة أبدا عن سائر الصفات المحسوسة الأخرى ، ولا يمكن أن نتصورها ، إلا عن طريق التفكير فقط ،لا عن طريق الواقع المجرد عنها . فلا بد أن يستنتج من ذلك أن هذه الكيفيات الأولية توجد هي الاخرى في الذهن " ،(٢) ويؤكد أنه " مهما أجهدنا أنفسنا في تصور وجود الأجسام خارج العقل فلن نجد أمامنا دائما إلا أفكارنا الذاتية نفسها ، فعلينا أن نتأملها ".(٣) وهكذا

---

(١) د . فؤاد زكريا ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
عند ديكارت ، فقد كان ديكارت يستخدم نفس هذه الفكرة من قبل بمعنى أنها جزئيات لطبقة رقيقة من الدم تتحرك بسرعة خلال الأعصاب ، فتوصل بين المخ والعضلات من جهة ، وبين أعضاء الحس والمخ من جهة اخرى (راجع د . عزمي اسلام ، جون لوك ، المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ٦٩).

(٢) د . يحى هويدى ، باركلي ، نوابغ الفكر الغربي ، دار المعارف بمصر ١٩٦٠ ص : ٤٧ .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ،الصفحة نفسها .

فبعد أن فصل لوك بين الكيفيات الأولية والثانوية - كما رأينا - نجد باركلي - وهو على حق - يرفع عنها كل الحواجز ، بمعنى أنه ليس هناك فصل بين هذه الكيفيات . لكن أن يعود باركلي ليقول بأن هذه الكيفيات كلها ذاتية ، وهذا مالا يمكن أن نقبل به ، أوعلى الاقل من الوجهة الطبيعية . لنضرب مثلا على ذلك بحائط أبيض اللون : ففي نظر المثالي كباركلي مثلا هذا الحائط الذى يبدو له أبيض ليس في حقيقته كذلك . فماذا يعني هذا الكلام ؟

يعني أول ما يعني أن المثالي يحاول تبرير هذا الموقف بالاستناد إلى التحليل العلمي للون الأبيض من ناحية طبيعة الموجات الضوئية ، وكيفية التقاط حدقة العين لها . وهذا يؤدى إلى حقيقة أخرى تختلف عن الحقيقة التي تطلعنا عليها الحواس في موقفنا الطبيعي (الاعتيادى) . وهذا أمر لا مجال لإنكاره ، لكن أن يستنتج من هذا أن الحائط الأبيض الذى أمامي ليس في حقيقته أبيض ، وهذا خلط بين الموقف العلمي والموقف الطبيعي[1] ، فيما يبدو .

ومن المعروف أن فكرة ذاتية الكيفيات ، لم يعبر عنها بشكل واضح إلا في المرحلة التي وصل فيها العلم إلى درجة معينة من التقدم . وأصبح بإمكان العلماء - حينذاك - القيام بتحليل الألوان والأصوات الى موجات لها ذبذبات أو أطوال معينة وهذا ما أشار اليه آرون في كتابه عن جون لوك ، من أن روبرت بويل كان أول من وضع تفرقة حاسمة بين الكيفيات الثانوية والأولية ، مؤكدا بأن الكيفيات الثانوية ترتد إلى الذات .[2] لكن مقابل هذا ، لابد من أخذ الموقف الطبيعي ، الذى يؤكد على الوحدة التي لا تنفصم بين الكيفيات الأولية والثانوية بعين الاعتبار بين الحائط وبياضه ، فهما يمثلان وجهين لشيء واحد .

ب- الأفكار المركبة :

إن الأفكار المركبة - في نظر لوك - هي تلك الأفكار التي يؤلفها العقل من الافكار البسيطة الموجودة في العقل ، او من مجموعة من الأفكار المركبة التي نتجت

(١) د . فؤاد زكريا ، نظرية المعرفة ، والموقف الطبيعي للانسان ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٧١ .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ٧٢ .

عن أفكار بسيطة كالجمال ، الإنسان ، الجيش ،الكون ،وما الى ذلك .[1] ويلاحظ أن هذه الأفكار ، بالرغم من أنها مركبة من عدة أفكار بسيطة ، أو أفكار مركبة من أفكار بسيطة ، مع ذلك ، فإن العقل يستطيع اعتبار كل منها شيئا واحدا .[2] هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، أن العقل يكون الأفكار المركبة بصورة ارادية ،إذ بإمكانه أن يكرر أفكاره متى شاء ، وأن يقوم بتوحيدها إن أراد . لكن هذا لا يعني أنه حر في كل شيء ، بمعنى أنه يملك حق التصرف في كل شيء . بل لابد من الاعتماد على الأفكار البسيطة والتقيد بها ، لأن الأفكار البسيطة - في تصورات لوك - هي المادة الأساسية والوحيدة لكل التأليفات والتركيبات .[3] إنها تأتي كلها من الأشياء ذاتها . والعقل في هذه الحال لا يستطيع أن يحصل على أكثر مما يوحي إليه منها ، إذ أن العقل لا يستطيع أن يحصل على أية افكار ناتجة عن الانطباعات الحسية غير تلك التي تأتيه من العالم الخارجي عن طريق أعضاء الحس ، وعلى أية أفكار أخرى ناتجة عن العمليات الذهنية غير تلك التي يجريها بداخله . إلا أن العقل عندما يكتسب هذه الأفكار البسيطة ، فإن وظيفته لا تقتصر فقط على ملاحظة ما يأتيه من العالم الخارجي ، وإنما يستطيع أيضا ، بما له من إمكانات أن يصوغ هذه الأفكار الموجودة لديه ، صياغة جديدة ، ويوجدها في أفكار جديدة مركبة .[4]

يريد لوك ، هنا ، أن يشير إلى الدور الفعال الايجابي الذى يقوم به العقل تلقاء الأفكار المركبة .

فالعقل فاعل بالنسبة لها ، لأنه هو الذى يؤلفها . أما الافكار البسيطة ، فانها ليست من صنعه ،لذلك فهو ، - أى العقل - ينفعل بها .

يقسم لوك الأفكار المركبة إلى ثلاثة أنواع هي :

اولا - أفكار مركبة عن الأعراض .

ثانيا - أفكار مركبة عن الجوهر .

ثالثا - أفكار مركبة عن العلاقات .

1-Locke,Essai philosphique , Ibid,P:117
2-Ibid,P:118
3-Ibidem.
4-Ibid,P:119

اولا - أفكار مركبة عن الأعراض وهي على نوعين :

١- أعراض بسيطة .

٢- أعراض مركبة .

١- الأفكار المركبة عن الأعراض البسيطة : هي أفكار مركبة نتجت عن قيام العقل بتكرار أو اضافة فكرة بسيطة الى نفسها أكثر من مرة .(١) وقد تكون عملية التكرار هذه تتعلق بالوحدة المكانية أو الزمانية ، أو العددية . فبالنسبة للأفكار المركبة من الأعراض البسيطة للمكان يوضحها لوك على النحو التالي :

" إننا نحصل على الأفكار عن المكان بواسطة البصر واللمس ، المكان من حيث اعتباره مجرد بعد ، والذى يفصل بين جسمين ، بدون أن تكون بينهما صلة ، سمى باسم المسافة ، أما إذا نظرنا اليه على أساس ارتباطه بجسم معين يشغله ، وادخلنا في حسابنا طول ذلك الجسم ،وغرضه ، وارتفاعه ، فهذا ما اسميه بالسعة وهو نفس المعنى الذى يفهم من كلمة الامتداد "(٢) .

ويزيد المسألة ايضاحا حين يقول : "إن الناس قد تعارفوا على قياس المسافة بين أى جسمين أو نقطتين بوحدات قياسية معينة ، مثل الكف ، والقدم ،والذراع والغلوة*، والميل . . . الخ . وفكرتنا عن المكان من حيث هو المسافة أو البعد بين اطراف ونهايات اى شيء ممتد أو موضع ، تثير في عقولنا انواعا غير متناهية من الأشكال .(٣)

الامتداد الزمني وأعراضه البسيطة :

فلو سألنا ، كيف نعرف الزمن ؟ وما هي الوسيلة التي تؤدى إلى تكوين تلك الفكرة ؟

لأجاب قائلا : "إن ملاحظة الإنسان لأفكاره هي أحسن وسيلة يمكن أن تؤدى إلى تكوين هذه الفكرة ، فإذا تأمل الانسان ظهور هذه الأفكار الواحدة تلو الأخرى ، فإنه سيصل لا محالة إلى تكوين فكرة عن معنى التتابع ،وذلك لانه سيلحظ أن هناك

(1) Ibidem

(2) Ibid,P:121

* الغلوة : وحدة قديمة من وحدات الطول .

(3) Ibidem,

فكرة تظهر ثم تختفي لتظهر محلها فكرة اخرى جديدة ، وهكذا فكل فكرة تتبع الاخرى وتزول ليحل محلها فكرة اخرى جديدة " .(١) وقد يسأل سائل ، هل لوك يوحد بين الزمن والامتداد الزمني ؟ الجواب ، لا ، انه يفرق بينهما . الزمن عنده ليس سوى المسافة او البعد بين حادثتين متتابعتين ، او فكرتين متلاحقتين ، بعبارة اخرى ، الزمن ليس الا حالة من احوال او عرضا من اعراض الامتداد الزمني . والامتداد الزمني ما هو الا امتداد الوجود في الزمن ، بمعنى استمرار الشيء الممتد في الوجود ، وذلك في تتابع اجزائه ، وتلاحقها بظهور اجزاء جديدة واختفاء اخرى .(٢)

وثمة سؤال آخر يمكننا ان نطرحه هو ، كيف يمكن للانسان ان يقيس الامتداد الزمني ؟ في حين انه ليس اكثر من فكرة عامة غير محددة ؟ يرى لوك ان افضل وسيلة لقياس الامتداد الزمني تكمن في حركة الشمس ، باعتبارها حركة منتظمة موجودة منذ الأزل ، يتفق عليها الناس جميعا ، لأنها المقياس الذى يمكن الاعتماد عليه في هذا المجال ، أى في تكوين فكرة عن المقاييس التي نقيس بها ، مثل السنوات ، والأيام والشهور ، والساعات والدقائق .(٣)

الامتداد الزمني إذن هو مسافة أو بعد يتكون من التغيرات الدائمة للتتابع وليس بوساطة أجزاء أو اطراف متتابعة للمكان . وهذا ما يسميه لوك بالامتداد الزمني .

- فكرة العدد : الأفكار المركبة عن العدد تنتج من تكرار فكرة الوحدة ، بإضافة الواحد إلى نفسه ، إما مرة واحدة ، وإما مرات متكررة . يكتب لوك : " العدد هو أكثر بساطة ، وأكثر كلية من جميع أفكارنا " .(٤)

فيضيف : " إننا إذا أضفنا هذه الفكرة وكررناها مرة بعد مرة فإننا سنصل إلى الأفكار المركبة عن أعراضها المختلفة ، فإذا جمعنا ١+١ سنصل إلى فكرة عن الثنائية ، وإذا كررنا عملية الاضافة بجمع ١٢ وحدة من هذه الوحدات إلى بعضها

---

(1) Ibid,P:135

(٢) د . عزمي اسلام ، جون لوك ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٨٩

(٣) المرجع السابق ، المعطيات المقدمة سابقا ص : ٩٠

(4) Ibid,P:155

سنصل إلى الفكرة المركبة عن الدستة ، وهكذا عن العشرين أو المليون ، أو أى عدد آخر " .(١)

أما الأفكار المركبة عن المتناهي فيحددها بقوله : " يبدو لي أن المتناهي واللامتناهي ليسا سوى حالات أو اعراض لفكرتنا عن الكم ، سواء أكان هذا الكم مكانيا أو زمانيا أو عدديا " .(٢) ويعتقد من جهة أخرى أن فكرة المتناهي إيجابية ، بينما فكرة اللامتناهي سلبية ، ومخفية ، أى غير متعينة ، وغير محدودة .*

لنتوقف قليلا عند هذه النقطة ، فنلاحظ أن لوك يؤكد على كمية المتناهي واللامتناهي فقط ، بينما في الواقع يكونان بحسب الكيف أيضا ، ثم أنه إذا كانت فكرة اللامتناهي في نظره سالبة فان المتناهي لابد أن ينطوى على اللامتناهي ، الذى يتألف من موضوعات وظواهر متناهية لاعد لها ولا حصر . فالوحدة المتناقضة بينهما تجعل من الممكن معرفة اللامتناهي ، ولو أن الانسان في حياته اليومية ، مرتبط أشد الارتباط بموضوعات متناهية فحسب .(٣)

إذن اللامتناهي والمتناهي بالرغم من كونهما جانبين متعارضين للعالم الموضوعي ، مرتبطان بعضهما بالبعض الآخر ولا ينفصلان .(٤)

٢- الأفكار عن الأعراض المركبة :

وهي التي لا تنتج عن تكرار أو اضافة الفكرة الواحدة البسيطة إلى نفسها مرة أو أكثر ، بل عن طريق قيام العقل بربط مجموعة من الافكار البسيطة ، لتكوين فكرة جديدة مركبة مثل أفكارنا المركبة عن الجمال ، والشجاعة .

ثانيا- افكار مركبة عن الجوهر :

قبل مناقشة هذه الفكرة لابد أولا وقبل كل شيء من القاء نظرة تاريخية عامة عن

---

(1) Ibidem.

(2) Ibidem

* فثمة فرق بين ما هو متعين ، وما هو محدود ، فالمتعين خاص بالكيف ، بينما المحدود خاص بالكم (راجع : د . جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٧١ .

(٣) راجع ، مجموعة من العلماء السوفييت ، الموسوعة الفلسفية ص : ٤٠٧ .

(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

فكرة الجوهر ، وكيف تطورت عبر العصور ، بدءا بالعصر اليوناني القديم ، ومرورا بالعصر الوسيط ، ثم وصولا الى العصر الحديث .

لم هذا الاهتمام بهذا الموضوع على هذا النحو ، الذى قد يبدو زائدا عن اللزوم ؟ ذلك ، لما للجوهر من أهمية كبيرة ، لا في الفلسفة فحسب ، بل في مجال العلم أيضا .

وسأحاول التركيز بصورة خاصة على مفهوم الجوهر عند كل من ديكارت وسبينوزا ، ولا يبنتز ، ثم مقارنة مفهوم هؤلاء للجوهر ، مع مفهوم لوك له ، هذا من جهة ، وبين لوك والفلاسفة اللاحقين به من جهة اخرى . ومعلوم أن مفهوم الجوهر قد تضاربت حوله الآراء ، وتباينت خلال تلك العصور .

في الحقيقة أن مفهوم الجوهر قريب إلى حد ما من مفهوم المضمون ، لكن ليس إلى درجة التطابق ، فهو غير مطابق له ، لأنه يشكل الجانب الحاسم في المضمون ففي سمات الشيء يلاحظ أن هناك الأهم والأساس . وهناك ما هو أقل أهمية . مجموع السمات (مجمل عناصر الشيء) يشكل المضمون (١) . وعلى هذا يمكن القول إن الجوهر هو مجموعة العناصر الحاسمة والأساسية للشيء ، التي بفقدانها يفقد الشيء ماهيته الداخلية . فالجوهر - كما قلنا - يتشابه مع المضمون ، ويختلف عنه في الوقت ذاته ، متشابه معه لأنه يتألف من عناصر تدخل في قوام المضمون . وهذه العناصر حد مشترك بين المضمون والجوهر . ولكنه يختلف عن المضمون في بقية السمات أى أنه أوسع من المضمون ، لأنه يجسد عناصر الأشياء كما يجسد أشكالها أيضا .

فالجوهر إذن هو الجانب الرئيسي الداخلي الثابت نسبيا من الشيء (٢) .

وما من شك في أن مفهوم الجوهر قد تطور عبر العصور ، ويمكن تلخيص مراحل تطوره على الشكل التالي :

١- الجوهر بمعنى أنه أصل الوجود :

طاليس مثلا اعتبر الماء أصل الموجودات ، وهو الجوهر الاول لكل الاشياء (٣) .

---

(١) افانا سييف ، أسس المعارف الفلسفية ، دار التقدم - موسكو ١٩٧٩ ، ص : ١٣٤ .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٣) دكتورة حلمي مطر ، الفلسفة عند اليونان ، المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ٤٦ .

انكسمندريس قال (بالابيرون Apeiron) أي المادة الاولى اللامتعينة . وأنكسمنس أكد على الهواء ، لأنه في نظره أكثر قدرة على الانتشار ، وأكثر قدرة على النفاذ في الأشياء .(١)

هيرقليطس يرى أن مبدأ الأشياء هو النار ، بينما اختار فيثاغورس العدد كحقيقة الأشياء ، ربما لثباته ، ويعتقد بارمنيدس بوجود جوهر لا متغير ، ولا متحرك ، وغير مخلوق .(٢)

فالوجود بهذا المعنى واحد متماسك ، ومتجانس ، لا ينقسم ، كله ملاء ، لا خلاء فيه .

أما بالنسبة للفيثوس وديمقريطس فالأمر يختلف ، فهما يؤكدان على أن ليس في العالم إلا الخلاء والذرات ، منها تتألف جميع الموجودات .(٣)

إذا كان بارمنيدس قد أبطل الحركة - كما شاهدنا - فإن ديمقريطس على خلاف ذلك ، إذ اقر بحركة الذرات في الفراغ .

٢- الجوهر بمعنى الكلي :

إن الوجود عند افلاطون - كما سبق القول - يفيد المعقول الثابت ، الذي يقابل المحسوس المتغير الفاني . فقد لاحظ طيب تيزيني في كتابه " مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط " أن " الشيء " يعاني لدى افلاطون ، من كون التعريف ينتسب إلى شيء آخر ، غير الأشياء الحسية . ولا يمكن في نظره ايجاد تعريف عام وشامل لشيء حسي ، لأن الأشياء الحسية متغيرة باستمرارية وغير ثابتة .(٤) وهو في هذا شبيه ببارمنيدس الذي يؤمن بالثبات والاستقرار .

٣- الجوهر بمعنى الشيء ذاته :

في تعريف ارسطو للجوهر ، يقول فيه : " إنه أي الجوهر مالا يحمل على

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٥٩ .

(٢) د . طيب تيزيني ، مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط ، دار دمشق ، الطبعة الخامسة ١٩٧١ ، ص : ٧٧ .

(٣) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ٩١ .

(٤) د . طيب تيزيني ، مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٠٠)

موضوع ، ولا يحل في موضوع ،أو هو الشيء القائم بذاته ، الذى لا يوجد في غيره".(١)

الجوهر وفق - هذا التصور هو الموضوع ، وليس المحمول في القضية المنطقية ، بعبارة أخرى ، الموضوع هو الجوهر ،والمحمول هو ما يضاف إليه من صفات مثل : هذه الوردة حمراء . وهكذا بقيت فكرة أرسطو للجوهر هي السائدة في العصر الوسيط ، وحتى في مطلع العصر الحديث كذلك .

يذهب توما الاكويني الى أن الجوهر يتدرج في نظام هرمي ، وقمته الجوهر الاول هو الله ، أن كل وجود ، بالفعل أو بالإمكان فقط ، لا يمكن أن يكون إلا وجود الأشياء الفردية ، وهذا النوع من الوجود يسميه الاكويني جوهرا .(٢)

كما تحدث الفلاسفة العرب-المسلمون - عن الجوهر ، نقرأ ما يلي : " إن مفهوم الذرية الاسلامية العربية يحتوى بشكل عام على منحيين أساسيين رئيسيين ومتعارضين فيما يخص الجوهر ، أو الجزء الذى لا يتجزأ ، المنحى الأول يرى أن الجوهر غير قابل للتجزئة والتقسيم ، أما الثاني فيؤكد على أنه (أى الجوهر) قابل للتجزئة بشكل نهائي ".(٣)

ونقرأ في موضع آخر : " لقد جعل ابن سينا " الممكن بذاته " جوهرا وعرضا ،أما الجوهر الممكن بذاته ، وهو المادة ، فإنه ذات لا يحتاج لكي يوجد إلى العرض الموجود فيه ، والجوهر هو المادة الأولى ،ومن هذه المادة الأولى تتكون الأجسام المتحققة المتحركة ، أما الأجسام هذه فتقوم على أساس من الهيولى والصورة ".(٤)

ثم جاء ابن رشد ليوحد بين الوجود والجوهر ، بين المظهر والجوهر ،بين المادة الجوهر ،والصورة الظاهرة ،ويكون بهذا قد حل اشكال الانفصال الميتافيزيقي لدى كل من افلاطون وأرسطو(٥) ، مع الأخذ بالحسبان الفرق بين افلاطون وارسطو من هذه المسألة .

---

(١) دكتورة حلمي مطر ، الفلسفة عند اليونان ، المعطيات المقدمة سابقا ،ص : ١٦٩

(٢) جماعة من الاساتذة السوفييت ، المعطيات السابقة نفسها ،ص : ١٧٣ .

(٣) د . طيب تيزيني ،مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط ،المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٣٥ .

(٤) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها ،ص : ٣١٢ .

(٥) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٣٨٨ .

وعلى العموم ، يمكن القول إن مفهوم الجوهر في الفلسفة اليونانية القديمة كما هو الحال في فلسفة أرسطو ، وفي فلسفة العصر الوسيط ، كما هو الحال بالنسبة لابن سينا ، وابن رشد ، لم يكن إلا تعبيرا عن الأشياء الملموسة ، وارتباط الفكر بهذه الأشياء ، ارتباط الجوهر بالموقف الطبيعي (١) .

وفي العصر الحديث نجد فكرة الجوهر قد بلغت أوج تطورها عند ديكارت وسبينوزا ولا بينتز .

وفي الطرف الآخر ، وفي العصر ذاته نجد بعض الفلاسفة أمثال جون لوك وبارلكي ، وهيوم ، قد انتقدوا فكرة الجوهر ، واعتبروها دخيلة ، ومفروضة على الذهن البشري (٢) . على نحو ما ، ولو أن لوك قد قبل هذه الفكرة ، لكنه لم يكن مرتاحا لها ، ولم يقبل بها إلا حين أراد البرهنة على وجود الله .

أما باركلي فقد وجه انتقادا شديد اللهجة لفكرة الجوهر ، وسنأتي الى التفاصيل فيما بعد .

فبالنسبة لديكارت ، يكتب بخصوص الجوهر : " إننا حين نتصور الجوهر ، انما نتصوره موجودا غير مفتقر إلا الى ذاته في وجوده " (٣) .

معنى هذا أن تصورنا للجوهر يعني تصورا موجودا لا يحتاج في وجوده إلى شيء يوجده غير ذاته ، وقد تنبه ديكارت إلى ما يمكن أن يرافق هذا التفسير من ملابسات ، لذلك عاد ليؤكد بأنه ليس هناك من جوهر له هذه الصفة سوى الله (٤) . ثم أشار إلى أن لفظ الجوهر يمكن نسبته الى النفس ، وإلى الجسم بمعنى واحد . ووفق هذا التصور ، يقسم الجوهر إلى نوعين :

١- جوهر مادي (الجسم) وطبيعته الامتداد .

٢- جوهر روحي (النفس) وطبيعته التفكير .

أما الجوهر عند سبينوزا ، فإن الفكرة الأساسية التي تنبني عليها فلسفته

---

(١) د . فؤاد زكريا ، نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للانسان ، المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ٢٨ .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٣٠ .

(٣) ديكارت ، مبادئ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٤٦ .

(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

هي فكرة الجوهر الشامل الواحد ، ففي تعريف له ، يكتب : " أعني بالجوهر ما هو في ذاته ، وما يمكن تصوره بذاته ، أى ماكان تصوره ليس بحاجة إلى تصور شيء آخر لابد له أن يتكون منه " (١) .

إن الجوهر بهذه المعنى قائم بنفسه ، علة بذاته ، إذ لا يحتاج إلى علة توجده . من الملاحظ أن هذا التعريف - كما يقول - فؤاد زكريا - إن هو إلا امتداد منطقي للتعريف التقليدى وخاصة عند ديكارت ، غير أن سبينوزا استطاع أن ينتهي إلى نتيجة هامة ، وهي أن الجوهر واحد لا كثرة فيه (٢) .

ديكارت ، كرس بموقفه الفلسفي ثنائية ، وازدواجية الفلسفة ، حيث أنه في الفيزياء ينطلق من الوجود ، من المادة ، وفي الميتافيزيقا ينطلق من الروح ، كل منهما قائم بذاته . أما سبينوزا فيرفض هذا الموقف ، ويستبدل ثنائيته بأحادية ، او الواحدية* (monisme) . التي اخذت صورة أخرى في مذهبه المسمى (وحدة الوجود ، Pantheisme) المذهب القائل بإن الله والطبيعة شيء واحد ، أو بعبارة اخرى ، أن الله متوحد مع الطبيعة ، إذن الجوهر عند سبينوزا ما هو إلا ظاهرة في طبيعتها لا يمكن أن نتصورها إلا كموجودة ، ما هو إلا الواقع الخالق لذاته الموجود لنفسه .

واستنادا إلى هذه النظرة ، تصبح الطبيعة موجودة بحكم قواه ، بحكم قدرته الداخلية . إن الطبيعة تمتلك القدرة اللانهائية ، وغير المحدودة على الوجود ، فالطبيعة على هذا الأساس مأخوذة ككل في وحدة كافة اجزائها . بتعبير آخر : إن الطبيعة بهذه الصورة الشاملة للوجود أو الجوهر ، هو الواقع الوحيد الذى يوجد بالضرورة بحكم قوى ذاتية .

بالنتيجة يمكن القول بأن أحد المقومات الأساسية للجوهر هو كونه سببا لذاته ، لكن هل هو المقوم الوحيد ؟ ، بالطبع لا ، لأنه - كما ذكرت - هو المقوم

---

(١) اندريه كريسون ، سبينوزا ، ترجمة تيسير شيخ الارض ، دار الانوار ، بيروت الطبعة الاولى ١٩٦٦ ، ص : ١٢٠ ، ١٢١ .

(٢) د . فؤاد زكريا ، سبينوزا ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨١ . ص : ٦١ .

* الواحدية : مذهب فلسفي يؤمن بأن الاساس وراء كل الوجود مصدر واحد ، ويوجد مذهب واحدى مادى ، ومذهب واحدى مثالي . الماديون يعتبرون المادة اساس العالم ، بينما المثاليون يعتبرون الروح او الفكرة هي الأساس ، وفلسفة هيجل أكثر الاتجاهات المثالية لمذهب الواحدية اتساقا ، اما الواحدية العلمية ، والمادية المتماسكة تتمثل في المادية الديالكتيكية القائلة بأن العالم بطبيعته مادى . (راجع مجموعة من العلماء السوفييت ، الموسوعة الفلسفية المعطيات المقدمة سابقا ٥٧٢ .)

الاساسي ، وهناك إلى جانب هذا المقوم لوجود الجوهر ، مقومات أخرى مرتبطة به أوثق ارتباط ، أجملها في الاتي :

الجوهر خالد وأزلي** ، لا يمتلك بداية ولا نهاية ، غير ثابت غير قابل للفناء ، والفساد (التحول) . غير منقسم ، لا يمكن أن ينقسم او يجزأ إلى عناصر . بهذا يصبح الجوهر في تصورات سبينوزا واقع مطلق مسبب لذاته ، أزلي لا محدود ، لا يتألف من اجزاء. مما يجدر ذكره ، أن التعاليم عن الجوهر تلحق كذلك بتعاليم (Attribut) التي تعني صفة أو خاصية الجوهر .

فالخواص ما هي إلا صفة ملموسة يظهر من خلالها الجوهر ، ويعرفها سبينوزا فيما يلي : " أفهم من الصفة ما يدركه العقل في الجوهر على أنه مكون لماهيته "[1] .

ويقصد بالماهية ، ذلك الذى إذا وجد ، وجد الشيء بالضرورة ، وإذا غاب ، غاب الشيء أيضا بالضرورة .[2]

وهذا المفهوم للصفة ، هو نفسه عند ديكارت ، يقول في هذا المعنى " حين أرى بوجه عام أن هذه الأحوال أو الكيفيات قائمة في الجوهر ، دون أن أنظر اليها إلا باعتبارها متعلقات لذلك الجوهر ، حينئذ نسميها صفات "[3] . مهما كان الأمر ، فان ما يميز هذا الجوهر هو ما تجسده هذه الصفات أو الخواص ، أن كل خاصية تجسد جانبا معينا من الطبيعة ، والجوهر لا يمكن أن يوجد إلا عبر خواصه ، ومن خلالها ، سبينوزا ، أحيانا يستبدل كلمة الطبيعة بكلمة الله ، الطبيعة والله في فلسفته مترادفان ، او متطابقان .

ويعتقد بعض المفكرين ، أن السبب الذى جعل سبينوزا يسلك هذا النهج ، وينحو هذا المنحى ، هو أن الطبيعة أو المادة كانت تقيم في عصره كشيء ثانوى ، خاضع وتابع لروح عليا سامية هي الله ، فالطبيعة بهذه الحال كانت تقوم كطبيعة مخلوقة .

** الازلية في لغة سبينوزا تختلف عن المعاني الشائعة والمرتبطة بفكرة الزمن ، فهي ازلية الضرورة المنطقية فحسب (راجع سبينوزا ، د . فؤاد زكريا ، المعطيات السابقة نفسها ص : ٦٢ .

(١) اندريه كريسون ، سبينوزا ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٢١ .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٦٢ .

(٣) ديكارت ، مبادىء الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٥٢ .

سبينوزا يرفض هذه النظرة الطبيعية للمادة ، لهذه الغاية نجده يطابق بين الطبيعة المخلوقة ، والطبيعة الخالقة ، أى بين الطبيعة المطبوعة ، والطبيعة الطابعة . (١) بين المخلوق والخالق . فالطبيعة على هذا النحو ، هي الأضداد ، هي تطابق المتناقضات كطبيعة خالقة ، وكطبيعة مخلوقة . الطبيعة تصبح محدودة واللا محدودة . . . الخ .

من أجل هذا كان سبينوزا أميل إلى تسمية الطبيعة بالله . وفضلا عن ذلك ، فقد ميز بين صفة الجوهر اى خاصيته Attribut ، وبين الحال mode.

يقول معرفا الحال : "أعني بالحال ما يطرأ على الجوهر ، أو ما يوجد في شيء غير ذاته ، ويتصور بشيء غير ذاته ". (٢)

فأحوال الجوهر إذن هي مكونات الكون أو محتويات الجزئية الفردية . (٣)

بيد و هذا التعريف للحال متعارضا مع تعريف الجوهر . فالحال - كما رأينا - هو ما يوجد عبر الغير ، هو ما يمتلك سببه من الغير ، بينما الجوهر مصور عبر ذاته ولذاته . الحال لا ينطوى على ذاته في ضرورة الوجود . فسببه خارجي ، في حين أن الجوهر يرفض أى اعتبار من هذا القبيل . ولنا أن نسأل سبينوزا هذا السؤال : هل من الضرورى أن نفهم كافة صفات الجوهر وخواصه ، لنستوعب هذا الجوهر كليا ؟ يجيب سبينوزا بالنفي ، ويؤكد أنه يكفى أن نفهم بعض صفاته ، أن الجوهر وصفاته هي أمور تتجسد عبر الظواهر الفردية . لهذا السبب نستطيع أن نحكم على ماهية الجوهر عن طبيعة كيفيات الأشياء ، أى على أساس كيفيات الصفات نفسها . لكن أية كيفيات يجب أن يعتمد عليها في هذا الشأن ؟ فثمة كيفيات متغيرة غير ثابتة في الأشياء كاللون والرائحة والحرارة . . ثم هناك كيفيات ثابتة في الأشياء كالإمتداد ، وهذا ما ذهب اليه جون لوك ، كما شاهدنا ، حين ميز بين الكيفيات الأولية والثانوية . وعلى أية حال ، سبينوزا يؤكد على الكيفيات الأولية ، ويرى من جهة أخرى ، أن الجوهر ليس واقعا ممتدا فحسب ، بل ومفكرا أيضا ، بما أن الجوهر واحد ، نجد الامتداد

---

(١) د . فؤاد زكريا ، سبينوزا ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١١٦ .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ٦٥ .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

والتفكير لا يمكن فصلهما الواحد عن الآخر ، هذا الجوهر الواحد يعبر عن ذاته ، يعبر عن ماهيته في مجموعة لا متناهية من الخواص ، بما في ذلك خواص الامتداد والتفكير . فالجوهر كوجود غير مشروط ، ولا كثرة فيه .(١)

أما الأحوال على العكس تماما ، فهي كثيرة لا متناهية .

ولما كانت الطبيعة جوهرا فإنها بكل صفاتها موجودة بذاتها . ولما كان العقل الإنساني ، أو بالأحرى امكاناته وقدراته محدودة ، فإنه عاجز عن ادراك حقيقة الجوهر اللانهائي . لما كان الأمر كذلك ، فإن العقل لا يستطيع ادراك ماهية الجوهر اللانهائي الا في علاقتين كامتداد وكفكر .(٢)

وعبرهما تتجلى الماهية اللانهائية على نحو خاص ، من هنا جاء رده على ثنائية ديكارت التي اعتبرت الامتداد والفكر جوهرين ، وليسا جوهرا واحدا . فثمة ملاحظة لا بد من الإشارة اليها وهي أن سبينوزا لم يعتبر الحركة خاصية من خصائص الجوهر . وهذا ما يمكن أن يؤخذ على سبينوزا ، لأن الجوهر أساسا ، لا بد أن يكون قابلا للتغير والتحول ، مادامت المادة ، التي يكون الجوهر من مكوناتها ، في حركة وتطور مستمرين هي أساس العالم وجوهره .(٣)

وليس من شك في أن تقدم العلوم ، ولا سيما العلوم الطبيعية وانتقالها من التفسير الالي الميكانيكي الى التفسير الحركي الديناميكي للكون ، قد أدى الى ظهور فلسفة جديدة .(٤) التي تبنت هذا التغير ، فيبرز لايبنتز في مقدمة الفلاسفة الذين يتزعمون هذا الاتجاه .

فهو يرى أن كل موجود عبارة عن وحدة طبيعية أو هو مناد (monade) أي عالم صغير . والمناد في الأصل كلمة يونانية ، ومعناها وحدة .(٥)

---

(١) جماعة من الأساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ٢٦٠ .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٦٠ .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٤) ادموند هوسرل ، تأملات ديكارتية ، ترجمة الدكتورة نازلي اسماعيل حسين ١٩٧٠ ، دار المعارف بمصر ، ص : ١١

(٥) لايبنتز ، المونادولوجيا ، ترجمة : د . عبد الغفار مكاوى دار الثقافة ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص : ١٠١ .

من المعروف أن المونـاد كان يفسر بطرق مختلفة ، وبحسب المذاهب المتباينة فالمونـاد عند الفيثاغوريين مثلا وحدة رياضية وهو أساس العالم ، وعند برونو في كتابه "المونـاد والعدد والرقم" انه المصدر الوحيد للوجود ، وهو مادة روحانية .(١) وهكـذا الأمر عند لايبنتز على نحو ما يلي من التفصيل : " الجوهر كائن قادر على الفعل ، وهو بسيط أو مركب . فالجوهر البسيط هو الذى لا أجزاء له ، والجوهر المركب هو المجموع المؤلف من جواهر بسيطة ، أو مونادات . . والجواهر البسيطة ، والحيوانات والنفوس والعقول (الارواح) وحدات ، ولا بد أن تكون الطبيعة كلها ممتلئة بالحياة " .(٢) ويمضي قائلا : " لما كانت المونادات بلا أجزاء ، فلا يمكنها أن تتولد أو تفسد ، ولا يمكنهـا أن تبدأ أو تنتهي على نحو طبيعي ، ولهذا فهي تبقى ما بقي العالم الذى يقبل التغير ولكن لا يقبل الفناء . وليس من المستطاع أن تكون لها أشكال ، وإلا كانت لها أجـزاء ، يترتب على هذا أن المونـاد (أو المونادة) بما هي كذلك ، وفي لحظة بعينيهـا ، لا يمكن تمييزها عن مونـاد أخرى إلا عن طريق خصائصها وأفعالها الباطنية التي لا تخـرج عن أن تكون هي ادراكاتها ، ونزوعاتها (اى اتجاهها للانتقال من ادراك الى آخر) ، التي هي مبادىء التغير "(٣) .

يمكن تلخيص ما تقدم في الآتي :

إن المونـاد عند لايبنتز جوهر بسيط ، مغلق ، اى عديم النوافذ ، لا يقبـل التغير ، ولا الانقسام ، او الاحتراق . لا شكل له ولا امتداد ، هو فرد واحد ، هـو عالم مصغر ، فيه صفات ادراك ونزوع . وقد قام كديكارت ، ومن بعده سبينوزا بصياغـة مذهبه في الوجود من خلال آرائه عن الجوهر .(٤)

كان ديكارت - كما رأينا - قد أرجع الجسيمات او الجزئيات الصغيرة الـى الامتداد ، بينما لايبنتز يرى أنه لا يمكن بأي حال أن نستنتج من الامتداد او خصائص الجسم الفيزيائية كالحركة والفعل ، والمقاومة . .(٥) بل خصائصه الهندسية فقـط ،

---

(١) راجع مجموعة من الاساتذة السوفييت ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٥١١
(٢) لايبنتز - المونـاد ولوجيا - المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٠١ .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ١٠٢
(٤) جماعة من الاساتذة السوفييت ، المعطيات السابقة ، ص : ٢٨٦ .
(٥) د . صادق جلال العظم - دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة ، الطبعـة الثانية ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص : ١٤ .

ويتفق مع ديكارت في رفضه للفراغ ، فالعالم ملاء ،ليس هناك - في نظر لا يبنتز - مايسمى بالخلاء ، فالمادة في تصوراته لا متناهية ، وبالتالي تملأ المكان كله ، فهي تشكل جوهرا معقدا ،وهذا الجوهر المعقد الذى هو المادة تنقسم من قبل لا يبنتز صنفين :

١- المادة الاولى : تتقوم بالسمات التالية : التمدد ، والصلابة والكتلة .

٢- المادية الثانية : تمتلك القدرة على الحركة والفاعلية ، وفي فاعليتها تشكل انعكاسا للموناداتَ . ان حالة هذه الموناد ات كلها باطنية يتولد بعضها من بعض بحيث يكون حاضرها حافظا لماضيها ، مفعمة بمستقبلها .(١) وان مستقبلها كماضيها . ويفهم من هنا أن لا يبنتز يستبعد من حسابه مفهوم التطور على أنه ظهور كيفيات جديدة ، واهتم فقط بمفهوم الكم .

وقد اعتمد - كما هو معروف - تعريف ديكارت في الجوهر الذى يقول فيه " إنه مالا يعتمد في وجوده على غيره " .(٢) مستخلصا النتيجة التالية : "إن أى كائن (الله او الروح او اى شيء آخر ، يفي بشروط هذا التعريف) يجب أن يكون مستقلا كل الاستقلال عن جميع الأشياء الأخرى ، مكتفيا بنفسه ، ومحتويا على جميع كيفياته وأحواله ، ومثل هذا الكائن الذى ينطبق عليه تعريف ديكارت لا يمكن أن يعتمد على أى شيء سوى نفسه ، ولا اعتمد في وجوده على غيره ، أى أن ارتباط الجوهر بأى شيء خارج عنه مناف لتعريف الجوهر " .(٣)

هذا هو مفهوم الجوهر عند لا يبنتز .

إذا كان هذا هو موقف لا يبنتز من مفهوم الجوهر ،وقد سبق أن بينا موقف سبينوزا وديكارت منه ، فما موقف لوك من هذا المفهوم ؟

---

(١) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٦٩ ، ص : ١٣٠ .

(٢) د . صادق جلال العظم ، دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة ، المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ١٠ .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ،ص : ١١

لوك يلاحظ أن تصور الجوهر عند هؤلاء الفلاسفة كان غريبا عن أذهاننا فهو مبهم ، وغامض ، وغير معروف على الاطلاق ، ومع ذلك لم يخاطر برفضه رفضا كليا (١) كما فعل باركلي وهيوم لاحقا . وكما يقول رسل فقد قبل لوك بسلامة الحجج الميتافيزيقية المتعلقة بالجوهر وبوجود الله ، لكنه على ما يبدو لم يكن مقتنعا بها ، أو مطمئنا اليها (٢) .

يكتب لوك في هذا الموضوع ما نصه : " وفكرتنا عن الجوهر بصفة عامة هي فكرتنا عن ذلك الشيء المجهول الذى نفترض وجوده وراء تلك الكيفيات الحسية الموجودة في الأجسام ، والتي لا يمكن أن نتصور وجودها أو قياسها بدون وجود شيء يحملها ، هذا الشيء الذى لا نعرفه ، والذى نفترض وجوده هو ما أسميه الجوهر " (٣) .

يلاحظ هنا تأثير ديكارت في لوك بشكل واضح .

ديكارت - كما سبق القول - يعرف الجوهر بأنه حامل للاعراض ، ثم أنه ميز بين نوعين من الكيفيات في الاشياء : كيفيات ثانوية ، كاللون والطعم والرائحة .. وكيفيات أولية كالامتداد . وقد أدت به هذه التفرقة إلى القول بالجوهر . فإذا تساءل المرء مثلا : ما الذى يبقى من قطعة الشمع لو زالت منها كل هذه الكيفيات العرضية ؟ يجيب ديكارت ، إنه الجوهر (٤) .

والجوهر عنده نوعان : جوهر مادى ، طبيعته الامتداد ، وجوهر روحي وطبيعته التفكير (٥) .

وهذا ما ذهب إليه لوك أيضا ، ولم يكن حديثه عن الجوهر بشكل عام إلا مدخلا للحديث عن الجواهر الجزئية . ذلك أن ماهية الجوهر في نظره ، مجهولة ، فمهما بذل المرء من جهد ، ومهما تعمق في فحص فكرنا عن الجوهر فلن يجد إلا فكرة عن شيء لا يعرفه . يكتب لوك : " إذا سئل أحدنا ما الشيء الذى يحتوى على لون أو ثقل أو وزن ؟ لما كان لديه أي جواب سوى الأجزاء الصلبة الممتدة ، وإذا سئل

---

(١) رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ١٧٧ .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
3-Locke, Essai philosophique , P:230

(٤) د . عزمي اسلام ، جون لوك ، المعطيات المقدمة سابقا ص : ٩٨ .
(٥) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

مرة ثانية ما الشيء الذى تكمن فيه الصلابة والامتداد ؟ فكان موقفه ليس أفضل من موقف الهندى الذى سئل عن مكان العالم ، قال : إن العالم يحمله فيل ، وحين سئل : على أى شيء يقف الفيل ؟ أجاب : على سلحفاة كبيرة ، ولكن حين سئل عما تقف عليه السلحفاة الكبيرة ، قال على شيء لا أعرفه " .(١)

لوك كما هو واضح ، يحاول استخلاص النتيجة ، التالية :

إن هناك أشياء يمكن معرفتها وإدراكها . وهناك من جهة اخرى - أشياء موجودة ، لكنها غير معروفة ، ولا يمكن معرفتها ، وهذا ما يسميه لوك بالجوهر . والجوهر بهذا المعنى هو ذاك الشيء المجهول الذى نفترض وجوده وراء تلك الكيفيات الحسية الموجودة في الأجسام ، والسؤال الذى يفرض نفسه هو : هل يمكن اعتبار الكيفيات الأولية عند لوك جوهرا ؟ لكون أن هذه الكيفيات ثابتة في الشيء وملازمة له ، بحيث أنه لا يمكن أن يكون له وجود بدونها ؟ وهل الكيفيات الثانوية على هذا الأساس اعراض ؟ باعتبارها غير أساسية في الشيء ولا ثابتة فيه ؟

إنه من الصعب ايجاد جواب شاف عن هذه الأسئلة . وربما لغموض الموقف ، فلوك نفسه يحس بهذا الغموض الذى يكتنف فكرتنا المركبة عن الجوهر ، إذ يرى أنه كل ما ازددنا تعمقا في طبائع الأشياء ، فإننا لابد أن نقع في ظلام وجهل لا حد لهما .

ويمكن القول إن ما يعنيه لوك بالجوهر يمكن جمعه من هذه الكيفيات مجتمعة .

من المعروف أن لوك يقسم الجوهر - كما فعل ديكارت من قبل - إلى نوعين :

أ- جواهر مادية : كأفكارنا عن الكيفيات الأولية للأشياء ، وأفكارنا عن الكيفيات الثانوية .

ب- جواهر روحية : وهي جواهر غير مادية ، يقسمها بدورها إلى نوعين :

١- جواهر روحية متناهية ، وهي النفس الانسانية .

٢- جوهر روحي لا متناهي وهو الله ، والذى لا يمكن معرفة ماهيته مطلقا .

وعلى أية حال يمكن ايجاز الأفكار المركبة عن الجوهر عند لوك في النقاط التالية :(٢)

1-Locke, Essai philosophique Ibid, P:233.

2-Ibid,P:148.

اولا - إن كل الأفكار التي لدينا عن مختلف أنواع الجوهر ليست إلا مجموعة أفكار بسيطة ، مع افتراض شيء ما يوجد فيها . مع أنه ليس لدينا عنه أية فكرة واضحة متميزة .

ثانيا - إن كل الأفكار البسيطة المتآلفة في موضوع واحد تؤلف الأفكار المركبة عن مختلف أنواع الجواهر .

ثالثا - إن معظم الأفكار البسيطة التي تؤلف أفكارنا المركبة عن الجواهر ما هي إلا قدرات - مهما ملنا إلى الاعتقاد بأنها كيفيات ثابتة ، يضرب لنا مثلا على الذهب ، بأن أفكارنا المركبة عن جوهر الذهب إن هي إلا فكرة مركبة من افكارنا البسيطة عنه ، مضافة إلى فكرة مبهمة غير واضحة عن ذلك الشيء الذى يتوقف عليه وجود كل هذه الأفكار البسيطة أى الجوهر .

وهكذا فإن الجسم شيء ما عند لوك دائما ، بجانب الامتداد والشكل والصلابة والحركة ، ولو أن هذا الشيء مجهول وغير مدرك .(1)

وفي ضوء ما سبق يمكن الإشارة إلى بعض الملاحظات :

١- إن لوك أثناء عرضه لفكرة الجوهر ، بدأ يعرضها بشكل عام ، ثم بعد ذلك انتقل إلى الحديث عن هذه الفكرة بشكل خاص . وهذا يعني أنه استخدم المنهج الاستدلالي ، الذى يبدأ من العام إلى الخاص ، من الكلي إلى الجزئي ، وهو المنهج الذى يتعارض مع اتجاهه التجريبي ، المعتمد على المنهج الاستقرائي ، يبدأ من الخاص إلى العام وهكذا ،

٢- إن فكرة الجوهر هذه ، لم يقبل بها لوك - إن جاز هذا القول - إلا على مضض ، فلم يأت بها إلا ليحل بها مشكلة وجود الله .

٣- ثمة اضراب وغموض في تصوره للجوهر . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى تأرجحه بين المادية والمثالية ، لذلك لم يستطع أن يحسم المسألة ، أي لم يستطع التخلص نهائيا عن التصور المثالي للجوهر ، على الرغم من أن الطابع المادى هو الأغلب في فلسفته . لذلك حاول الفلاسفة المثاليون الذين جاؤوا بعده ، استثمار هذا

---

(1) د . عزمي اسلام ، جون لوك ، المعطيات السابقة نفسها ص : ١٠١ .

الضعف لتدعيم موقفهم المثالي ، منهم جورج باركلي وديفيد هيوم . فإذا كان لوك - كما لاحظنا - يقرر وجود كيفيات أولية، إنها قائمة خارج الذات ، ومستقلة عنها ، وذاتية الكيفيات الثانوية ، فإن باركلي يزيح عنها ذلك الحجاب ، - كما سبق القول - فيقول ردا على لوك : " إنه لا داعي لهذه التفرقة بين كيفيات أولية وثانوية . لأن الثانية لا تنفصل عن الأولى "(١) .

وعلى ذلك ، فإن جميع كيفيات المادة من ثانوية وأولية متوقفة في وجودها على الذات ،ولا وجود لها خارجها . وبالتالي فليس هناك ما يبرر افتراض وجود جوهر مادى يقوم هذه الكيفيات .(٢) وهكذا ينتهي باركلي إلى ذاتية الإحساس ، والغاء الجوهر المادى .

وقد تساءل باركلي ، ما الذى يدعونا إذن إلى افتراض وجود جوهر مادى قائم خارج العقل ؟ وأجاب : لا شيء . " إن الماديين افترضوا وجود هذا الجوهر أول الأمر لكي يكون مقوما للصفات في المادة ، لكننا قد رأينا أن هذه الصفات الأولية منها والثانوية تنحل إلى مجموعة من التأثيرات الذهنية والأحوال الذاتية القائمة في العقل ولا وجود لها خارجة "(٣) .

لا ريب أن موقف باركلي من الجوهر المادى كان له تأثير كبير في فلسفة ديفيد هيوم ، يكتب في هذا المجال : " إنه يود أن يسأل هؤلاء الفلاسفة الذين يتحدثون عن الجوهر والعرض عما إذا كانت لديهم فكرة واضحة عن هذه الأشياء ، " عما إذا كانت فكرة الجوهر مثلا قد اشتقت من الآثار الحسية أم من التفكير التأملي ؟ فإذا كانت الحواس هي التي حملتها إلينا فاني أسألهم أى الحواس قد أوصلتها ، وعلى أى نحو كان ذلك ؟ فإذا كنا قد أدركناها عن طريق البصر فلا بد أن تكون لونا ، وإذا كانت قد وصلت إلينا عن طريق الأذن ، فلا بد أن تكون صوتا ، وإذا كانت قد جاءت عن طريق الحلق ، فلا بد أن تكون طعما .

وهكذا فيما يتعلق بسائر الحواس . ولكني أعتقد أن حاسة ما من الحواس

---

(١) د . يحيى هويدى ،باركلي ، نوابغ الفكر الغربي ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٤٦ .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٤٧ .
(٣) المرجع السابق ،المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ٧٥ .

لن تستطيع أن تؤكد لنا أن الجوهر لون أو صوت أو طعم . فلا بد أن يكون مصدر هذه الفكرة التأمل أو التفكير إن كان ثمة وجود لها على الإطلاق " .(١)

ويخلص هيوم إلى القول : ليس لدينا أية فكرة عن الجوهر اللهم إلا أن يكون مجموعة من الأفكار الجزئية المحسوسة ، وبغير هذا لن تكون لدينا أية فكرة عنها عندما نتناولها بالحديث والتفكير " .(٢)

هنا هيوم يحاول الاعتراف بالموقف الطبيعي ، ولكنه من جهة لا يستخلص الدلالة الحقيقية لهذا الاعتراف . على أية حال ، فإن نقد هؤلاء الفلاسفة لفكرة الجوهر ، - وإن كانوا يعترفون في كتاباتهم ضمنيا بأن هذه الفكرة - مرتبطة بموقف الإنسان الطبيعي ، فإن ذلك ناجم - كما بينا - من الخلط بين الموقف العلمي ، والموقف الطبيعي . فالتمييز بين الموقفين لم يكن واضحا في معظم الأحوال ، لوك - كما اسلفنا - يعترف بأن ماهية الجوهر شيء غامض لا يمكن معرفته ، وهذا لا يعني أنه فيلسوف لا أدرى ، مثل كانط ، الذى ذهب إلى القول بأننا نعرف العالم كما يظهر لنا أما ما هو هذا العالم في واقعه الملموس فهو لا يعرف عنه شيئا .(٣) في هذا الموقف يترك كانط الأرضية المادية وينتقل إلى مواقع اللاأدرية ، أى عدم معرفة حقائق الأشياء ، (الشيء في ذاته) . فمادام هناك فصل بين العرض والجوهر لا يمكن أن نعرف جواهر الأشياء ، حتى ولو عرفنا ظواهرها مهما كانت الحقائق العلمية موثوقة . إن هذه الحقائق في تقديرات كانط لا تعطينا معلومات عن عالم الاشياء في ذاتها ، والذى في مقدور وعينا ادراكه ، ظواهر الأشياء فحسب .

استنادا إلى هذا المنطلق نجد نظرية الأشياء في ذاتها تكشف بجلاء ذلك التذبذب الفلسفي بين المادية والمثالية عند كانط ، هذا الاضطراب ، وهذا القلق - إن جاز التعبير - هو الذى أدى به في نهاية المطاف الى مواقف لا أدرية .

لوك بدوره يتفق مع كانط في كون الشيء في ذاته (الجوهر) مجهولا ، وغامضا لكن من جانب آخر يختلف معه ، من حيث أنه اقر بامكان معرفة الانسان للعالم . او على الأقل ما يمكن أن يفيد الإنسان في حياته العملية . غير أن اعتراف لوك بالتصور

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ،ص : ٧٥ .
(٢) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٧٦ .
(٣) اما نويل كانط ، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة - ترجمة : الدكتورة نازلي اسماعيل حسين ، مراجعة : د . عبد الرحمن بدوى ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص : ٩٧ .

المثالي للجوهر ، كالقول بأنه هو الله ،أفضى به إلى الاعتراف ببعض المفاهيم الماورائية التي عمل على معارضتها ،ودحضها ، على الرغم من أن تلك الأفكار ما قالها إلا لكي يبرر بها وجود الله .

ثالثا- الأفكار المركبة عن العلاقات :

تتكون الأفكار المركبة عن العلاقات في الذهن حينما يقوم المرء بعملية المقارنة بين شيء وآخر ، أو بين فكرة وأخرى ، بغض النظر عما إذا كانت هذه الفكرة أو تلك بسيطة أو مركبة .

العلاقة في نظر لوك لا يمكن أن تقوم إلا بين فكرتين أو شيئين (١) . إن أفكارنا عن العلاقات غالبا ما تكون أكثر وضوحا من أفكارنا عن الأشياء المرتبطة بهذه العلاقة ، وبوجه خاص أفكارنا عن الجوهر (٢) .

إنه من الصعب جدا ،وبطريقة اعتيادية ، معرفة او تحديد كل الافكار البسيطة التي تتكون منها الفكرة عن هذا الجوهر . لكن من السهولة بمكان القيام بربط بين أى فكرتين بسيطتين بعلاقة ما ، يضرب لوك مثلا عن العلاقة بين العلة والمعلول .

قبل أن نتبين وجهة نظر لوك من هذه المسألة لا بد أولا من معرفة كيف ظهرت فكرة العلة والمعلول كمشكلة فلسفية ؟ لقد ظهرت هذه الفكرة كمشكلة فلسفية عند الفلاسفة اليونانيين ، وعلى وجه التخصيص عند أرسطو ، الذى تناول هذه المشكلة بشيء من التفصيل في مبحثه " الماورائية " .

أرسطو يذكر أربعة أنواع من العلل :

١- العلة المادية : ما منه يكون الشيء ، " وهي التي لا يلزم وجودها بالفعل وحدها حصول الشيء بالفعل ، بل ربما كان بالقوة كالخشب والحديد بالنسبة للسرير " (٣) .

٢- العلة الصورية : أى على هيئة ما يكون الشيء " وهي التي يجب وجودها بالفعل وجود المعلول لها بالفعل كالشكل والتأليف للسرير " (٤) .

1-Locke,Essai philosophique , Ibid,P:252
2-Ibid,P:253

(٣) د . جميل صليبا ،المعجم الفلسفي ،المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٩٦ .
(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

٣- العلة الفاعلة : " وهي ما تكون مؤثرة في المعلول موجودة له ، كالنجار الذى يصنع السرير "[1] .

٤- العلة الغائية : أى ما من أجله يكون الشيء ، فغاية البذرة مثلا أن تكون شجرة .

ثم بعد ذلك قلص أرسطو هذه العلل لتصبح علتين بدلا من أربع علل وهما : العلة المادية ، والعلة الصورية ، فقد دمج العلة الغائية ، والعلة الفاعلة في علة واحدة ، وهي العلة الصورية ، ثم أخذ فلاسفة العرب المسلمين وغيرهم بهذه النظرة الأرسطية ، واعطوا أهمية كبيرة للعلة الغائية . يقول ابن سينا في هذا الصدد : " والغاية بما هي شيء فإنها تتقدم سائر العلل ، وهي علة العلل "[2] . فلما جاء ديكارت أعطى للعلة مفهوما أوسع ، فشملت العلاقات الطبيعية ، والعلاقات المنطقية على السواء .[3] إذا قلت مثلا : ان (آ) علة (ب) قصدت بذلك ان وجود (آ) يستلزم بالضرورة وجود (ب) .

وفي هذا السياق نجد أن العلاقة السببية شبيهة بالقياس الذى يعتمد على مقدمتين تلزم عنهما النتيجة بالضرورة مثلا :

كل انسان فان

سقراط انسان

سقراط فان

أما جون لوك فقد اعتمد التصور المدرسي لمعنى العلة ، واقتصر على نوع واحد من العلل الاربع الانفة الذكر .

وهي العلة الفاعلة . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى اتجاهه الحسي ، إذ أن العلل الثلاث الباقية ، خاصة ، الغائية منها ، كانت تفسر تفسيرا ما ورائيا ، هذا علاوة على أن الاستعمال الذى كان سائدا لمعنى العلية في العلوم الطبيعية ، في العصر

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة ، الصحفة نفسها .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ٩٧ .
(٣) د . عزمي اسلام ، جون لوك ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٠٨ .

الذى عاش فيه لوك كان مقصورا على العلة الفاعلة فقط .[1] وأيا ما كان الأمر ، لـــوك يبني فكرته على العلة ، على رفضه لوجود الأفكار الفطرية في العقل ، وأكد على التجربة الحسية ، بأنها هي المنبع او المصدر الحاسم لكل معارفنا ، إنها الأساس في تكويـــن الأفكار البسيطة بالذهن ، بعد أن كان خاليا منها تماما ، ويحاول لوك توضيح مـــن أين تأتي أفكار العلة والمعلول ؟

يقول : " نعبر عن مفهوم العام للعلة على ما ينتج الأفكار البسيطة أو المركبة . وكل ما ينتج عن هذه العلة فهو معلول ، وهكذا . . فإن الجوهر الذى نسميه الشـمع أو السيولة فهو عبارة عن فكرة بسيطة ، والتي لم تكن موجودة في الذهن من قبـــل ، وتكونت فيه بفعل درجة حرارة معينة ، ونطلق الفكرة البسيطة عن الحرارة اسم العلة "[2] . والعلاقة بين السيولة الموجودة في الشمع وما ينتج عنها فهو معلول . وهكذا الحـــال بالنسبة لفكرتنا عن جوهر الخشب ، والتي في الحقيقة ما هي إلا مجموعة أفكار بسيطة . فحين تتعرض قطعة (مادة) الخشب للنار نلاحظ أنها تتغير تغيرا ملحوظا ، فتحولها إلى جوهر جديد ، أى إلى رماد ،[3] وتعتبر النار في هذه الحالة بالنسبة للرماد علة ، والرماد معلول .

وبناء على هذا ، فإن كل ما يؤدى إلى ايجاد بعض الأفكار البسيطة ، أو إلى مجموعة أفكار بسيطة مركبة سواء أكانت جوهرا أم عرضا ، والتي لم تكن موجودة فـــي ذهننا من قبل نطلق عليها علة .[4] بينما المعلول هو كل ما يستمد بداية وجوده مـــن شيء آخر .

من الجدير بالذكر أن لوك ميز بين الخلق creation وبين التوليـــــد Generation .

فعندما يكون الشيء جديدا كل الجدة ، ولم يكن موجودا أصلا من قبل ، مثل وجود عنصر المادة ، الذى لم يكن له وجود من قبل ، ذلك ما يسميه لوك بالخلـــق ، بمعنى ايجاد شيء من لا شيء* . أما عندما يوجد شيء ما مركبا من عناصـــر ،

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها .

(2) Locke, Essai philosophique , Ibid P:255

(3) Ibidem

(4) Ibidem

* ان كلمة الخلق لا تعني ايجاد شيء من العدم . وقد تنبه لهذا الخطأ الدكتور طيب تيزيني ، وذلك في حلقة دراسية تحت اشرافه في تاريخ ١٩٨٣/٩/٢٤ فقد ميز بين كلمتي الخلق والابداع ، واوضح ان كلمة الابداع هي التي تعني ايجاد شيء من لا شيء ، وليس الخلق .

وهذه العناصر كانت موجودة كلها من قبل ، ثم ركبت ، وجمعت بعضها مع بعض بطريقة ما ، بحيث ينتج عنها شيء جديد ، مثل هذا الأنسان ، وهذه الوردة ... إلخ [1] ، وهذا ما يسميه لوك بالتوليد . بمعنى ايجاد شيء ليس من العدم ، بل نتيجة سبب معين .

علاقات الزمان :

العلاقات التي تنشأ عن الزمان : يكفي أن نلاحظ هنا أن معظم تسميات الأشياء المتصلة بالزمان ما هي إلا علاقات خاصة . [2] ويضرب لوك مثلا بقوله : "حين يقول شخص ما أن الملكة اليزابيث عاشت ٦٩ عاما ، وظلت في العرش ٤٥ عاما ، وهذه الكلمات ، ما هي إلا علاقة بهذا الامتداد الزمني مع امتداد زمني آخر ، ويعني هذا ببساطة أن المدة التي عاشتها الملكة تساوى ٦٩ دورة سنوية من دورات الشمس ، وأن المدة التي ظلت فيها على العرش تعادل ٤٥ دورة سنوية من دورات الشمس" . [3]

وعلى هذا ، فكل الكلمات التي نجيب بها عن هذا السؤال : كم من الوقت ؟ أو الاجابة عن السؤال متى ؟ يبين لنا كذا وكذا من الوقت . [4]

وحين نفترض أن شخصا ما عمره ٧٠ عاما ، عندئذ نقول إن هذا الشخص طاعن في السن ، نعني من هذا أن مدة حياته أوشكت على النهاية ، وهي المدة التي لا يمكن لأي انسان عادى أن يتجاوزها . [5]

ويفرق لوك بين عمر الإنسان والحيوان على النحو التالي : إن الإنسان يعتبر شابا وهو في العشرين من عمره ، وصغير السن وهو في السابعة من عمره ، بينما نعتبر حصانا مثلا في سن العشرين هرما ، ثم نعتبر كلبا في السابعة من عمره ، ذلك لأننا نقارن عمر كل من هذه الحيوانات مع مختلف الأفكار - عن الإمتداد الزمني - التي نحددها في اذهاننا . [6]

1-Ibid, P:256
2-Ibidem
3-Ibidem.
4- Ibidem
5-Ibidem.
6-Ibidem.

ويعيد لوك إلى الأذهان بأننا نستطيع أن نقول إن الشمس والنجوم التي كانت قبل ولادة الإنسان أنها هرمة ، لأننا لا نعرف بالتحديد متى أوجد الله* هذه الأنواع من الموجودات .(١)

علاقات المكان والإمتداد : يقول لوك : " إنه من البساطة أن نلحظ أن هناك علاقة بين المكان والأشياء التي تشغلها ، كقولنا مثلا : شيء فوق ، أو تحت ، في فرساى ، أو في انجلترا أو لندن ... إلخ .(٢)

وعلاوة على هذا ، فهناك أفكار أخرى ترتبط بالامتداد مثل كبير وصغير ، كما نقول أيضا ، تفاحة كبيرة بالمقارنة إلى الحجم العادى للتفاح ، والكلمات : قوي ، ضعيف ، هي أيضا تسميات علاقات القوة ، مقارنة مع بعض الأفكار التي لدينا عن القوة ، أكبر أو أصغر . فعندما نقول - على سبيل المثال - انسان ما ضعيف ، نقصد بذلك أن هذا الإنسان ليست لديه قوة كافية ، أو قوة الحركة التي يتمتع بها الإنسان العادى .(٣)

علاقة الذاتية والتباين :

حين نرى شيئا ما في مكان محدد ، وفي زمان معين ، لابد من أن نؤكد على أن هذا الشيء هو الشيء ذاته الذى رأيناه ، (هو هو) مثل (أ) هو (أ) وليس لا (أ) ، أى ليس شيئا آخر غيره . ذلك أنه لا يمكن أن نجد أبدا ، أو أن نتصور امكان وجود شيئين من نفس النوع ، بحيث يشغلان نفس المكان في الوقت نفسه .(٤) وهذا ما يسمى بالذاتية او الهوية . ولوك يحاول تطبيق فكرة الذاتية على الجوهر ، ويذكر بهذه المناسبة ثلاثة أنواع من الجواهر :

١- ذاتية الله :

الله في تصورات لوك ليس له بداية ولا نهاية ، خالد أزلي ، لا يفنى ، حال في كل مكان ، وعلى ذلك لا يشك في ذاتيته .(٥)

---

* لوك - كما بينا - يقر بوجود العالم الخارجي ، لكن من جهة أخرى يجعل إرادة الله تتدخل في وجوده .

1-Ibid,P:157
2-Ibidem.
3-Ibidem.
4-Ibid,P:258.
3-Ibid,P:259

إذن الجوهر الإلهي (الله) بهذا المعنى لا متناه .

٢- العقول المتناهية :

الأرواح أو النفوس العاقلة ، متناهية ، لها وقت معين ، ومكان محدد ، لها بداية ونهاية . ومما لاحظه لوك أن ذاتية الإنسان لا ترجع إلى الناحية المادية الجسمية فحسب ، ولا إلى الناحية الروحية فقط ، إنما إلى كليهما معا .

٣- ذاتية الجواهر المادية :

إن الجواهر المادية لها نفس الفكرة ، فكرة التحديد والارتباط بعلاقات زمانية ، ومكانية . هي التي تحدد لنا ذاتية الشيء المادى ، أو كل جزء من أجزاء المادة . هذا فضلا عن العلاقات الأخرى ، كعلاقات النسبية ، مثل : أسخن ، وأحلى ومساو . . . وهكذا .

والعلاقات الطبيعية ، مثل علاقة الأب بالإبن الأكبر أو العكس . و

والعلاقات التنظيمية : مثل علاقة القائد بجيشه أو العكس ، والمواطن ببلده .

في ضوء ما تقدم يمكن ملاحظة ما يلي :

١- إن حديث لوك كان منصبا على أفكارنا عن العلاقات فقط ، وليس عن العلاقات ذاتها . لأن العلاقات ذاتها . كما يرى لوك - ليس لها وجود اطلاقا في العالم الواقعي . فإذا قلت أن زيدا أكبر من عمرو ، فليس ثمة في الواقع غير زيد وعمرو فحسب . أما العلاقة بينهما فهي من صنع العقل وحده .

هنا نلاحظ أن العلاقة عند لوك لا تتضمن أى مضمون موضوعي ، فنظام الطبيعة وفق هذا التصور ، ينبغي استخلاصه من العقل ، لا من الطبيعة نفسها . وهذا ما قام به هيوم أيضا فيما بعد ، فقد أرجع العلاقة بين الظواهر وتعاقبها إلى ظاهرة ذاتية ، هي قوة الميل إلى التوقع ، فالرابطة التي تربط بين العلة والمعلول ، أو السبب والمسبب ، قائمة في هذا الميل الذى نشعر به ، ويجعلنا نتوقع حدوث ظاهرة ، إذا تكررت مشاهدتنا لها مقرونة بظهور ظاهرة اخرى .(١)

---

(١) د . يحيى هويدى ، مقدمة في الفلسفة العامة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٤٩ .

يكتب هيوم : " . . . ذلك أنه حينما أدى تكرارنا لفعل معين أو عملية معينة إلى ميل فينا نحو العودة من جديد إلى أداء الفعل نفسه ، أو العملية نفسها ، دون أن يكون ثمة دافع من تدليلات العقل وعملياته ، قلنا دائما عن هذا الميل أنه أثر العادة . . . " . (١)

مهما كان الأمر ، فانكار لوك وهيوم أن تكون للعلاقة معنى موضوعي يعني بطريقة أو أخرى التشكيك فيما تنقله إلينا الحواس ، مع أن لوك ومن ثم هيوم أكدا على الحواس كأساس للمعرفة .

وللرد على هذا الفهم نقرأ لدى أنجليز ما يلي : " لكي نفهم مختلف جوانب أو أجزاء اللوحة العامة للظاهرات العالمية نضطر إلى انتزاعها من صلتها الطبيعية أو التاريخية ودراسة كل منها بمفرده حسب خصائصه ، حسب أسبابه وسببياته الخاصة " . (٢) فيشدد على أهمية هذه السألة قائلا : " السبب والمسبب هما تصورا ن لا يتسمان بأية اهمية مأخوذان بذاتيتهما ، إلا شرط تطبيقهما على كل حالة بمفردها ، ولكن ما أن نبحث هذه الحالة بمفردها في صلتها المشتركة مع الكل العالمي بجمله ، حتى يتلاقى هذان التصوران ويتشابكان في تصور التفاعل الشامل الذى تتبادل فيه الأسباب والمسببات أماكنها باستمرار ، فإن كل ما هو هنا أو الآن ، سبب يصبح هناك أو آنذاك مسببا ، والعكس بالعكس " . (٣)

ونستشف من هذا ، أن هناك صلة طبيعية موضوعية بين ظواهر الوجود ، مع الأخذ بعين الاعتبار الطابع النسبي للمنعكسات البشرية التقريبية (٤) لهذه الظواهر . لذلك ، فإنكار لوك أن تكون للعلاقة مضمون موضوعي يعني وقوعه في الذاتية . وبذكرنا هذا الموقف ، بموقفه السابق تجاه الكيفيات الاولية والثانوية . فقد اعتبر الكيفيات الاولية موضوعية ، بينما رد الكيفيات الثانوية الى الذاتية .

---

(١) د . زكي نجيب محمود ، ديفيد هيوم (نص لهيوم رقم ٥) المرجع السابق المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٨٣ .

(٢) لينين ، المادية والمذهب النقدى التجريبي ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٧٧ .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ١٧٨ .

(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٧٩ .

٢- ويلاحظ خلال حديث لوك عن الذاتية (الهوية) ، أهمل فكرة التباين وربما لاعتقاده بأن فكرة الذاتية تستدعي بالضرورة فكرة التباين . فإدراك ذاتية شيء ما معناه تكوين فكرة تميزه وتختلف عنه في آن واحد ، تلك كانت هي الأفكار المركبة عن العلاقات في نظر لوك . وهكذا ، بعد أن أوضح مصدر الأفكار البسيطة منها والمركبة ، انتقل لدراسة أهمية هذه الأفكار ودورها في بناء المعرفة . ونظرا لأهميتها في عملية المعرفة ومدى مطابقتها للواقع ، يقوم لوك بتصنيفها إلى طوائف ثلاث : (١)

أولا - أفكار واقعية ، وأفكار وهمية .

ثانيا - أفكار كاملة ، وأفكار ناقصة (غير كاملة) .

ثالثا - أفكار صادقة وأفكار كاذبة .

أولا - الأفكار الواقعية ، أساس وجودها ، الطبيعة ، فهي متوافقة مع الوجود الحقيقي للأشياء . (٢)

بينما الأفكار الوهمية ليست كذلك ، فهي لا تستمد وجودها من الطبيعة ، بل تعتمد في تكوينها وتركيبها على الخيال ، وليس بالتالي ما يطابقها في الواقع . (٣) ويرى لوك أنه إذا بحثنا هذه الأنواع المختلفة من الأفكار ، نجد أولا وقبل كل شيء ، أن جميع الأفكار البسيطة واقعية لأنها تتمشى مع حقيقة الأشياء ، أما أفكارنا المركبة للجوهر ، تكون واقعية عندما تتفق مع وجود الأشياء . (٤)

ثانيا - أفكار كاملة ، وأفكار غير كاملة :

من بين أفكارنا الواقعية ، منها كاملة ، وغير كاملة ، أي ناقصة . (٥)

الأفكار الكاملة وهي التي تمثل نماذجا حق التمثيل ، أما الأفكار غير الكاملة ، وهي التي لا تمثل نماذجا تمثيلا كاملا ، وإنما في إطار جزئي فقط . وقد حاول لوك تطبيق هذا التقسيم على الأفكار البسيطة والمركبة على الصورة التالية : (٦)

1-Locke,Essai philosophique ,Ibid,P:292
2-Ibidem.
3-Ibidem.
4-Ibidem.
5-Ibidem.
6-Ibidem.

أ- الأفكار البسيطة كلها أفكار كاملة ، مطابقة للواقع ، لأنها ناتجة عن تأثير القوى الموجودة في الأشياء ، لذلك لابد أن تتطابق معها .

ب- أفكارنا عن الجوهر : فهي في نظر لوك - أفكار واقعية إلا أنها ناقصة ، غير كاملة ، فالإنسان - كما بينا - مهما حاول أن يصل إلى معرفة ماهية الجوهر ، فإنه يعجز عن ذلك ، فلا نستطيع تكوين أية صورة ذهنية واضحة أو فكرة كاملة عنه .

جـ- أفكارنا المركبة عن الأعراض : يعتبرها لوك كاملة ، لأنها في الأصل نابعة من الأفكار البسيطة .

ثالثا- الأفكار الصادقة ، والأفكار الكاذبة :

يذكر لوك أن الصدق والكذب لا يظهران بوضوح إلا في القضايا ،[1] أما ما نسميه الحقيقة الماورائية فإنها تحتوى على قضية بصورة ضمنية لا صراحة .[2] لذلك ، فأية فكرة من أفكارنا لا تكون صادقة أو كاذبة إلا إذا تناولها العقل بالحكم ، إما بالإثبات أو بالنفي .[3] وقد طبق هذا المعنى على الأفكار التالية :

١- إن جميع الأفكار البسيطة ، وخاصة تلك التي تتكون في الذهن بفعل الإحساس ، تعتبر أفكارا صادقة . لهذا فإنه من النادر أن نجد من يخطيء فيخلط بين اللون الأحمر وبين فكرة اللون الاخضر ، أو بين الحلاوة ، وفكرة المرارة . فإذا كان ثمة احتمال في الخطأ فسببه يرجع إلى التسمية التي نطلقها على هذه الأفكار ، وليس على الانطباع الحسي الصاحب لها .[4]

٢- أفكار مركبة عن الأعراض : لا تعتبر بالنسبة للوك كاذبة ، لأنها تتكون من مجموعة أفكار بسيطة ، ارتبطت بعضها مع بعض ، إلا أنها مع ذلك ، فهي عرضة للخطأ ، خاصة فيما يتعلق بمطابقة مفهومها على ما تدل عليه ،

1-Ibidem.
2-Ibidem.
3-Ibid,P:313
4-Ibid,P:309

أو تشير إليه بالنسبة للآخرين .(١)

٣- أفكارنا المركبة عن الجوهر : إنها لا يمكن أن تكون أفكارا صادقة إذا أردنا بها الدلالة والإشارة إلى حقائق الأشياء وماهيتها . لأنها - كما أوضح لوك سابقا - مجهولة لا يمكن معرفتها .(٢)

1-Ibid,P:309
2-Ibid,P:310

الباب الثالث

مجـــال المعرفـــة

الفصل الاول

أنواع المعرفة

المعرفة عملية انعكاس الواقع ، مرتبطة أوثق الارتباط بالممارسة ، تزود الإنسان بالمفاهيم الخاصة بظواهر الواقع ، وتساعده على إخضاع الطبيعة ، وتسخيرها لخدمته .(١)

لوك - كما شاهدنا يحدد نظرية المعرفة في أنها البحث في أصل المعرفة البشرية ،ويقينها ،ومداها ، وفي إدراك أوجه الاتفاق أو الاختلاف بين الأفكار .

يكتب في هذا الصدد : " إن معرفتنا خاصة بأفكارنا ، بما أن العقل ليس له سوى استدلالاته ، وأفكاره الخاصة به ، وهي الشيء الوحيد الذى يتأمله العقل ، أو القادر على تأمله ، فمن الواضح إذن ، أن معرفتنا تدور حول أفكارنا فقط .(٢) ويضيف قائلا : " يبدو إذن أن المعرفة ما هي إلا إدراك أوجه الاتفاق والارتباط ، أو التناقض والاختلاف بين فكرتين من أفكارنا .(٣) ويضرب لذلك مثلا فيقول : " أننا حين نعرف أن اللون الأبيض ليس هو الأسود ،معنى هذا ، أننا عرفنا أن فكرتي اللون الأبيض والأسود ليستا متشابهتين ، بل مختلفتين ، وكذلك حين نعرف أن مجموع زوايا المثلث قائمتان ، فإن هذا يعني أننا أدركنا التساوى ، والتشابه بين فكرتنا عن مجموع الزوايا الثلاث في المثلث ، وبين فكرتنا عن الزاويتين القائمتين "،(٤) لكن كيف تتم عملية إدراك الاتفاق أو الاختلاف بين أفكارنا ؟ يرى لوك ، أنه لكي نفهم بشكل أكثر وضوحا ، وأكثر تمييزا هذه العملية ، أو بالاحرى ، ما يقوم عليه هذا الاتفاق والاختلاف يمكن رده إلى أربع نقاط .(٥)

١- إدراك الذاتية أو التماين .

٢- ادراك العلاقة بين الأفكار .

٣- التلازم في وجود الرابطة ، الرابطة الضرورية .

---

(١) راجع مجموعة من العلماء السوفييت ، الموسوعة الفلسفية ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٤٨٢ .

2-Locke,Essai philosophique ,Ibid,P:427
3-Ibidem.
4-Ibid,P: 428
5-Ibidem .

١- الذاتية أو التباين :

إن إدراك الذاتية أو التباين في تصورات لوك - مسألة ضرورية وأساسية لا مجال للشك فيها .

فأى عملية عقلية أيا كان نوعها ، لا بد وأن تعتمد عليها .

يكتب لوك : " إن أول عمل يقوم به العقل حين تكون لديه أية عواطف أو أفكار هو إدراك أفكاره ، وحين يدرك العقل أفكاره يعرف ماهية كل منها ، وبالتالي يدرك الفروق بينها ، وذلك لأنني كي أدرك أية فكرة من أفكارى ، لا بد وأن أعلم أن هذه الفكرة ليست فكرة أخرى ، وهذا أمر ضرورى ، وبدونه لا يمكن أن تقوم أى معرفة ، ولا استدلال ، أو تخيل أو أفكار متميزة "(١) .

بهذه الصورة يدرك العقل بوضوح تام ، وبدون أن يقع في الخطأ . ان كل فكرة تتفق مع نفسها ، فهي ليست غير ذاتها ، كأن نقول مثلا : T هي T ، وليست لا T . إن العقل يدرك أن الأفكار المتميزة تختلف الواحدة عن الأخرى ، ويقوم بهذه الأعمال كلها ، بفضل قدرته الطبيعية على الفهم والإدراك ، دون الحاجة إلى توسط أو جهد .(٢)

٢- العلاقة :

إدراك العلاقة بين أية فكرتين أيا كان نوعهما ، سواء أكانتا عن الجوهر أم عن الأعراض ، أو غيرها ، ذلك أنه ، بما أن جميع الأفكار المتميزة يجب أن تكون دوما ، وباستمرار متباينة عن بعضها البعض ، فلن يكون هناك مجال لقيام أية معرفة ثابتة على الإطلاق ، ما لم ندرك العلاقة بين أفكارنا ، ونكشف بالتالي عن الاتفاق والاختلاف بين فكرة وأخرى ، عن طريق المقارنة التي يقوم بها العقل .(٤)

٣- التلازم في وجود الروابط الضرورية :

التلازم في الوجود بين الأفكار بالنسبة لموضوع معين ، يدخل ضمن العمليات العقلية التي يعتمد فيها العقل على إدراك أوجه الاتفاق او الاختلاف بين الأفكار .

1-Ibidem.
2-Ibid,P:428
3-Ibidem.
4-Ibidem.

يرى لوك ان هذا النوع من الروابط ينتبي بصورة خاصة إلى الجوهر ، ويسوق مثلا : "إننا حين ننسب صفة الصلابة للذهب ، إنما نعني أن هناك فكرة معينة ، وهي فكرة الصلابة ، ترتبط باستمرار بفكرتنا عن شيء معين أصفر اللون ثقيل الوزن ، قابل للانصهار ، يذوب في الماء الملوكي l'eau régale وهي ما يؤلف فكرتنا عن الذهب" . (١)

٤- الوجود الحقيقي :

هذا النوع الرابع والأخير هو إدراك انطباق الوجود الحقيقي على أية فكرة موجودة في الذهن . (٢) يقول لوك : " قد لا أكون مخطئا إذا اعتبرت هذه الأنواع الأربعة من الاتفاق أو الاختلاف يكمن في كل ما نعرف ، أو نستطيع القيام به . . . " . (٣)

مثال ذلك : " قولنا الأزرق ليس هو الأصفر ، يتعلق الأمر بالذاتية أو الهوية ، وقولنا : إن المثلثين اللذين لهما قاعدتان متساويتان بين متوازيين متساويان ، يتعلق الأمر هنا بالعلاقة ، وقولنا أن الحديد يتأثر بقوة المغناطيس ، هنا نحن أمام التلازم في الوجود ، أي إدراك الترابط الضروري بالنسبة لموضوع واحد .

أما قولنا بأن الله موجود ، فهذا يتعلق بالوجود الحقيقي ، أي مطابقة الفكرة لهذا الوجود . (٤)

انواع المعرفة ودرجاتها :

يميز لوك بين ثلاثة انواع من المعرفة :

١- المعرفة الحدسية .

٢- المعرفة البرهانية .

٣- المعرفة الحسية .

1-Ibidem.
2-Ibid,P:424.
3-Ibidem.
4-Ibidem.

١- المعرفة الحدسية : هي المعرفة التي يدرك فيها العقل اتفاقا أو اختلافا بين فكرتين مباشرة ، دون تدخل أية فكرة أخرى ،[1] في هذه العملية لا يحتاج العقل ليجهد نفسه في البحث عن برهان ، إنه يدرك الحقيقة بلمحة خاطفة ،وبضربة واحدة ، كما تدرك العين الضوء بمجرد النظر إليه .[2]

ويزيد لوك المسألة إيضاحا عندما يقول : " وهكذا فإن العقل يدرك بأن الأبيض ليس أسودا ، وبأن الدائرة ليست مثلثا ، وبأن ثلاثة أكثر من اثنين ، وأنها تساوى واحدا زائد اثنين "[3] .

ويعتقد لوك أن هذا النوع من المعرفة هو أوضح أنواع المعرفة ، وأكثرها يقينا ، بل ومن أبعد من هذا ، أنه بالحدس يتوقف كل يقين ، ولا يحتاج المرء إلى يقين أعظم منه .[4] لكن كيف نفسر علاقة هذا النوع من المعرفة (المعرفة الحدسية) مع موقف لوك من المعرفة الفطرية ؟

وهذا ما سنتبينه فيما بعد .

من المعروف أن الحدس بالنسبة للمعرفة ليس من ابتكار لوك ، فقد سبقه إلى ذلك ، عدد من الفلاسفة ، فأرسطو مثلا يرى أن الحدس إدراك الشيء الحاضر في الذهن من حيث هو حاضر ،وعند ابن سينا أنه سرعة الانتقال من معلوم الى مجهول .[5] وإذا ما انتقلنا إلى الفلسفة الحديثة نجد أن أوضح من تحدث في هذا الموضوع هو ديكارت ،وسبينوزا لاحقا .

فالحدس عند ديكارت هو الرؤية العقلية المباشرة للحقيقة ، وهي نظرة عقلية بلغت من الوضوح والتمييز العقلي ، مايزول معها كل شك . وعملية الحدس العقلي لا تتعلق بالحواس بل بالذهن الصافي اليقظ الذى يستطيع وحده أن يصل إلى الفكرة البسيطة الواضحة .

1-Ibid,P:432
2-Ibidem.
3-Ibidem.
4-Ibidem.

(٥) د . جميل صليبا ، مقالة الطريقة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٥ .

يقول ديكارت في هذا المعنى : " أنا لا أقصد بالحدس شهادة الحواس المتغيرة ، ولا الحكم الخداع لخيال فاسد المباني ، وإنما أقصد به التصور الذى يقوم في ذهن خالص منتبه بدرجة من السهولة والتمييز لا يبقى معهما مجال للريب أو التصور الذهني الذى يصدر عن نور العقل وحده "(١) .

وفي الواقع أن الحدس يمثل نقطة هامة في فلسفة ديكارت ، فقد حاول أن يصل الى مبدأ يقيني أو بديهي ، يمكن أن يتخذ منه نقطة انطلاق لاستنباط كافة معارفنا .

فحقيقة الذات او الكوجيتو " أنا أفكر إذن أنا موجود " ، واضحة ويقينية لا تحتاج - في نظر ديكارت - إلى أى دليل أو برهان .

وهكذا فالحدس عنده مرتبط في آخر تحليل بالمنهج الاستنباطي يصلح كمقياس للصدق الكامل (٢) .

سبينوزا من جهته أكد مثل سلفه ديكارت على أهمية الحدس في مجال المعرفة ، فهو يرى أن الحدس أكثر أنواع المعرفة فائدة وأهمية ، فبالحدس يمكن ادراك ماهية الأشياء وجواهرها (٣) .

وأيا ما كان الأمر ، فإن تأثير ديكارت في جون لوك فيما يتصل بالمعرفة الحدسية ، يبدو واضحا لا مجال للشك فيه ولكن هذا لا يعني أن هناك تطابقا تاما في وجهات النظر ، فالاختلاف بين الموقفين واضح لا لبس فيه .

سنتبين هذا بجلاء ، وسنكون والحالة هذه قد وصلنا الى جواب عن السؤال الذى تم طرحه قبل قليل ، والمتعلق بصلة المعرفة الحدسية بموقف لوك من المعرفة الفطرية .

فديكارت يرى أن المعرفة الحدسية تعتمد أساسا على العقل ، وما يراه العقل بوضوح وتميز بعيدا كل البعد عن أية تجربة حسية ، مثل : "الكوجيتو" الذى ورد ذكره أعلاه (٤) ، أما لوك فعلى العكس من ذلك ، فهو يؤكد على أن المعرفة الحدسية لا بد

---

(١) ديكارت ، القاعدة الثانية من قواعد لهداية العقل .
(٢) مجموعة من العلماء السوفييت ، الموسوعة الفلسفية ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٧٧ .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٤) د . عزمي اسلام ، جون لوك ، المعطيات السابقة نفسها ص : ١٣٩ .

أن تعتمد على التجربة الحسية ،وإلا لما أمكن وجود الحدس ،ولو أنها في حد ذاتها عملية عقلية خالصة .[1] واستنادا إلى هذه النظرة يمكن القول إن لوك أخذ بحدسية ديكارت ، لكن في الطرف الآخر ،قد أقامها على أسس تجريبية . أو بمعنى آخر ، أنه قبل الحدس الديكارتي كجزء لفلسفته التجريبية .

لوك - على هذا الأساس ،لا ينظر إلى الحدس على أنه مقدرة غامضة على معرفة ، غير طبيعية .

٢- المعرفة البرهانية :

وهي المعرفة التي تتم حالما يدرك العقل الاتفاق والاختلاف بين الأفكار ،لكن لا يحدث ذلك مباشرة ،ودفعة واحدة ، بل بكيفية تدريجية ،وبالاستعانة بأفكار أخرى .[2]

فحين يعجز العقل عن التوفيق بين أفكاره بطريقة المقارنة بصورة مباشرة في كشف الاتفاق او الاختلاف بين هذه الأفكار ، يلجأ إلى طريقة أخرى ، وهي طريقة المحاكمة أو الاستدلال .[3]

فمثلا عندما يرغب العقل في معرفة الاتفاق أو الاختلاف بين مجموع الزوايا الثلاث لمثلث ما ، وبين زاويتين قائمتين ، لا يستطيع أن يفعل ذلك مباشرة ، لأنه في هذه الحالة لا يمتلك معرفة حدسية ، لذلك يحاول بطرق أخرى إيجاد زوايا أخرى تتساوى مع زوايا المثلث الثلاث . وعلى هذا النحو يكشف العلاقة بينهما .[4]

ويسمي لوك هذه المعرفة (المعرفة البرهانية) لأنها تعتمد على الأدلة والبراهين ، وتحتاج بالتالي إلى مجهود عقلي . واستنادا إلى هذا ، يحاول لوك توضيح الفرق بين المعرفة الحدسية والبرهانية على الشكل التالي :[5]

٢- إن المعرفة البرهانية تترك المجال مفتوحا للشك ، لأنها لا تتم - كما سبق القول - مباشرة ، بل بوساطة أفكار أخرى ، بينما المعرفة الحدسية على خلاف ذلك ،تتم مباشرة .

---

(١) المرجع السابق ،المعطيات المقدمة سابقا ، الصفحة نفسها .

2-Locke,Essai philosophique ,P:433.
3-Ibidem.
4-Ibidem.
5-Ibid,P:434.

ب- إن المعرفة البرهانية أقل وضوحا من المعرفة الحدسية . وذلك لاعتمادها على الأفكار الوسيطية ، وفي حالة ما إذا كان هناك عدد كبير منها ، سميت بالبراهين المطولة .(١)

جـ- إن كل درجات الاستنباط يجب معرفتها بالحدس وبذاتها . فالخطوات العقلية التي يسير عليها الذهن في المعرفة البرهانية ، تعتمد في أصلها على المعرفة الحدسية ، إلا أن هذه المعرفة البرهانية بالرغم من اعتمادها على هذه الأخيرة ، فإنها ليست على درجة كافية من الوضوح كما هو الحال في الحدس ، وذلك لاستعانتها بالذاكرة اللازمة لتذكر العلاقة بين الأفكار الوسيطية ، والأفكار الأخرى الأصلية . ويعتقد لوك أن تدخل الذاكرة في عملية التعقل ، يجعل الشك في صحتها أمرا ممكنا ، لكن من جانب آخر ، يعتبر المعرفة البرهانية ، بالرغم من أنها أكثر صعوبة ، وأكثر تعقيدا من الحدسية ، فإنها تساعد بالتأكيد على تقدم العلوم وتطورها ، في الوقت الذى تكتفي فيه المعرفة الحدسية على تفسيرها .

٣- المعرفة الحسية : فهي المعرفة التي نكتسبها من العالم الخارجي بوساطة الحواس ، إنها تتم بتأثير الأشياء الخارجية على أركان الحس ، فمعرفتنا بالعالم المحيط بنا - كما يرى لوك - تعتمد بصورة أساسية على الإدراك الحسي . فالإحساسات وهي العمليات التي تقوم بها الحواس تنقسم إلى مجموعات بصرية لمسية ، وذوقية وشمية . من الواضح أن لكل مجموعة من هذه الإحساسات صفة نوعية ، أى مجموع كلي من الصفات التي يمكن مقارنتها بصفات الإحساسات من المجموعة الأخرى ، فالألوان لا تشبه الأصوات ، ولا الذوق أو الروائح ، وأكثر الإحساسات تطورا الإحساسات البصرية ، وتليها اللمسية والسمعية والذوقية والشمية .(٢)

لوك يثير بعض التساؤلات حول ما إذا كان المرء يحس في داخله ادراكا متباينا حينما ينظر إلى الشمس في النهار ، ويفكر فيها أثناء الليل ؟ أو حين يفكر فقط في الطعم ، أو تلك الرائحة ؟(٣)

1-Ibidem.

2- Ibid,P:438

3-Ibidem.

يوضح لوك هذه المسألة قائلا : " إننا نجد بوضوح الفرق بين فكرة تثيرها ذاكرتنا في عقلنا ، أو بين دخول هذه الفكرة إلى عقولنا عن طريق حواسنا " (١) .

وليس من شك في أن هذه النظرة كان لها أثر كبير في فلسفة هيوم الذى ذهب في نص له من كتاب " رسالة في الطبيعة البشرية " إلى أن " إدراكات العقل البشرى بأسرها تنحل من تلقاء نفسها إلى نوعين متميز أحدهما من الآخر ، وسأطلق عليهما لفظتي انطباعات وأفكار . وينحصر الفرق بين هذين النوعين في درجات القوة والحيوية اللتين يطبعان بهما العقل ، ويلتمسان بهما الطريق إلى فكرنا أو شعورنا " (٢) .

ويمضي قائلا : " فإما الإدراكات التي ترد إلينا بأبلغ القوة والعنف ، فلنا أن نسميها (بالانطباعات) ، وإني لأجمع تحت هذا الإسم كل إحساساتنا وعواطفنا ، وانفعالاتنا عندما تظهر للمرة الأولى في النفس . أما نسخة الأفكار فأعني بها ما يكون في التفكير والتدليل العقلي من صور خافتة لتلك الإحساسات والعواطف والانفعالات " (٣) .

والفكرة بهذا المعنى هي تلك الصورة الذهنية الخافتة ، أو الباهتة عن الانطباعات الحسية حينما نستعيدها في ذاكرتنا ، وعلى هذا ، فليس من العسير علينا ادراك تأثير لوك في فلسفة ديفيد هيوم .

ومما يجدر ذكره أن لوك يرى أننا نستطيع إضافة نوعا آخر من المعرفة الى النوعين السابقين وهو معرفة وجود أجسام خارجية ، وذلك عن طريق الإدراك والإحساس (٤) . وأن احدى سمات العلاقة القائمة بين الإحساسات وخصائص أشياء هذا العالم التي تثيرها وتسببها ، هي أن الخصائص المختلفة للأشياء الخارجية قد تتطابق مع خاصية الإحساس نفسها . (٥) ونتوصل إلى معرفة العالم الخارجي بالاحساسات التي تقوم بوظيفتين اساسيتين :

---

(1) Ibidem.

(٢) نص لديفيد هيوم ، ترجمة د . زكي نجيب محمود ، نوابغ الفكر الغربي - المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٧١ .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(4) Ibidem.

(٥) مجموعة من العلماء السوفييت ، الموسوعة الفلسفية ، الصفحة نفسها ، ص : ١١

١- تقوم الإحساسات المنفصلة بدور الإشارة ، فاللون مثلا يشير إلى درجة حرارة المعدن المعرض للحرارة ، وليس اللون نفسه هو مصدر معرفتنا بدرجة حرارة الجسم ولكننا نعرف مقدما العلاقة المشتركة بين اللون ودرجة الحرارة .

٢- الوظيفة الثانية والأكثر أهمية للإحساسات هي أنها جزء من الصورة التي يعطيها الإدراك الحسي ، يوضح الصلات والعلاقات الكافية في العالم الموضوعي ، وبالتالي فهي حلقة وصل بين الإنسان والعالم الخارجي (١) .

وثمة ملاحظة في غاية الأهمية والحساسية ، ومفادها أنه إذا كانت الإحساسات تعتبر انعكاسا لواقع موضوعي ، فإن الحسية المنسقة تحت شروط معينة تؤدى إلى المادية كما هو الحال بالنسبة لفرنسيس بيكون وهوبز ولوك ، وكذلك بالنسبة لكوندياك ولا مترى وديدرو ، وفيورباخ لاحقا . أما إذا كانت الاحساسات تعتبر ذاتية فحسب ، ولا شيء أكثر من ذلك ، أو تعتبر شيئا في ذاته غير قابل للمعرفة ، فإن الحسية تفضي إلى مثالية ذاتية (باركلي ، ماخ) أو ربما تؤدى بالنهاية الى "اللا أدرية" (هيوم كانط) فبالنسبة لباركلي في الحقيقة انه لم يصل إلى مثل هذا الموقف المثالي إلا في المراحل الأخيرة من تفكيره ، فهو في فترة تاليف " نظرية جديدة في الإبصار" كان لا يزال يعترف بحقيقة العالم الخارجي المادى ، لكن لما الف كتابه : " مبادىء المعرفة البشرية" فإن موقفه تغير تماما ، بحيث لم يعد يهمه أى شيء يمت بصلة إلى المادة . وبهذا اكتمل موقفه المثالي ووصل إلى مرحلته النهائية . وقد أكد - كما أشرنا سابقا - بأن جميع الكيفيات الأولية (الامتداد والحركة والشكل ...) . والثانوية (اللون ، والصوت والذوق ...) ذاتية ، أو بالأحرى أنها أفكار توجد في الذهن (٢) ، وقد مثلت بالحائط الأبيض كنموذج على ذلك .

ويعتقد باركلي أن الخطأ الذى وقع فيه الفلاسفة السابقين عليه ، فهم لوك على وجه التخصيص ، قد حاولوا الفصل بين الكيفيات الاولية والثانوية ، فيتساءل باركلي هل بإمكان المرء أن يتصور امتدادا أو شكلا دون لون أو كيفية أخرى من الكيفيات الثانوية ؟

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٢) د . فؤاد زكريا ، نظرية المعرفة ، والموقف الطبيعي للانسان ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٦٩ .

ولا شك أن باركلي كان يهدف من وراء ذلك للوصول إلى نتيجة ، وهي أن جميع كيفيات الأشياء الملموسة ، والكيفيات الذاتية تتوقف على الذهن الذى يدركها (١) .

في هذا الصدد ، نقرأ لدى لينين ما يلي : " إن باركلي يبدأ بالمحاكمة التالية : من الجلي لكل من يراقب مواضع المعرفة البشرية أنها إما أفكار تدركها الحواس بالفعل ، وإما أفكار نحصل عليها بملاحظة انفعالات العقل وأفعاله ، وإما أفكار تتشكل بمساعدة الذاكرة والخيال . . . بوساطة البصر أكون أفكارا عن النور وعن الألوان ، وعن درجاتها وأنواعها المختلفة ، وبواسطة اللمس أدرك الجامد والرخو ، الحار والبارد ، الحركة والمقاومة . . . ، وبما أن مختلف الأفكار تلاحظ الواحدة مع الأخرى ، فإنهم يرمزون اليها باسم واحد ، ويعتبرونها شيئا ما ، مثلا يلاحظ لونا معينا ، وذوقا معينا ، ورائحة معينة ، وشكلا معينا ، وتماسكا معينا ، مجموعة معا ، فيعتبرون هذا شيئا مستقلا ويرمزون إليه بكلمة (تفاحة) ، وتشكل مجموعات أخرى من الأفكار حجرا ، شجرة ، كتابا ، وما إلى ذلك من الأشياء الحسية " (٢) .

وطبقا لما ذهب إليه باركلي يرى لينين أن الاشياء بنظر هذا الفيلسوف (باركلي) هي " مجموعات أفكار " مع الاخذ باعتبار الملاحظة التالية ، وهي أن ما يقصد بهذه العبارة الأخيرة إن هي إلا الصفات أو الاحساسات الاتفة الذكر ، وليس الأفكار المجردة . (٣) علما بأن جميع صفات المادة ثانوية كانت أو أولية متوقفة في وجودها على الانا ، على الذات ، وليس لها وجود في الخارج (٤) .

لقد رأينا كيف حاول باركلي في محاوراته الثلاث (بين هيلاس وفيلونوس) اثبات ذاتية الاحساس . فالحرارة والبرودة ، والطعوم والأصوات والألوان ليس لها وجود في الأشياء المحسوسة ، بل فينا ، وفي احساساتنا الذاتية ، ولم يقف باركلي عند هذا الحد ، بل ذهب أبعد من هذا بكثير .

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات المقدمة سابقة ، ص : ٧٥ .
(٢) لينين ، المادية والمذهب النقدى التجريبي ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٧
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٤) د . يحيى هويدى ، باركلي ، نوابغ الفكر الغربي ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٤٧ .

فإذا كان لوك قد أقر بوجود الكيفيات الأولية للأشياء ، بينما الكيفيات الثانوية لا تدخل ضمن مفهوم الأشياء ، بل هي عبارة عن إحساسات ذاتية ، فإن باركلي اعتبر الكيفيات الأولية غير موجودة أصلا في الأشياء ، إنها لا تشذ عن القاعدة السابقة . ذلك أن هذه الكيفيات الأولية (الامتداد ، والحجم والحركة ...) لا توجد إلا مصاحبة للكيفيات الثانوية ، وهذا يعني أن ما ينطبق على هذه الكيفيات ينطبق على تلك ، ولا شيء غير هذا .(١)

وعلى هذا الأساس ، لا وجود للمادة خارج العقل ، وأن وجودها قائم في ادراكها ، وأنها تتكشف لنا أثناء عملية الإدراك .(٢) ولنفهم هذه النقطة بوضوح أكثر ، نقرأ لدى باركلي : " إذا أمعن المرء النظر فيما نقصده بكلمة الوجود ، عند استخدامها بالنسبة إلى الأشياء المحسوسة ، فأنا أقول عن هذه المنضدة التي أكتب عليها موجودة ، وأقصد بذلك أنني أراها وأحس بها ، وإذا ما غادرت حجرة مكتبي فسأقول عنها إنها كانت موجودة ، وأقصد بذلك أنني لو لم أكن قد غادرت الحجرة لكنت قد أدركتها ، أو أن ثمة عقلا آخر يقوم بإدراكها* الآن " .(٣)

وفي نص آخر له من كتاب المحاورات الثلاث يكتب : " سل البستاني يعتقد بوجود شجرة الكرز في الحديقة وسيخبرك أنه يعتقد بوجودها لأنه يراها ويلمسها ، وفي كلمة واحدة لأنه يدركها بحواسه ، ثم سله بعد ذلك ، ولم يعتقد أن شجرة البرتقال غير موجودة ، وسينبؤك أنه يعتقد بعدم وجودها لأنه لا يدركها ، وعلى ذلك فإن الشيء الواقعي أو ماله وجود عنده ، هو ما يدركه بحواسه ، أما مالا يدركه فيقول عنه أنه غير موجود " .(٤)

وهذه هي النتيجة التي انتهى إليها باركلي وهي أن وجود الشيء قائم في كونه مدركا ، أو قابلا للإدراك .(٥)

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٤٨ .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ٧٨ .
* اى ادراك الله للاشياء حين لا ندركها نحن .
(٣) المرجع السابق المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٤١ .
(٤) د . يحيى هويدى ، المقدمة في الفلسفة العامة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٣١ .
(٥) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

ويحاول التدليل على صحة نظره في الكلمات التالية :

" إنه عندما أقول إن رائحة ما كانت موجودة الآن ، فإنني اعني بذلك أني قد شممت هذه الرائحة ، أو أن صوتا ما كان فإن معنى هذا أنني قد سمعته ، أو أن لونا أو شكلا قد وجد فإن هذا يدل على أنني قد أدركته عن طريق البصر أو اللمس . ذلك هو كل ما أستطيع أن أفهمه من وراء هذه الأقوال وما شابهها . وكل ما يتردد عن وجود مطلق للأشياء غير الفكرة الأصلية ، بينه وبين وجودها المدرك ، يبدو لي مجردا تماما عن المعقولية " . (١)

ويواصل حديثه قائلا : " فوجود هذه الأشياء قائم في ادراكها ، ومن المستحيل أن يكون لها وجود مستقل عن العقول أو الطبائع المدركة التي تقوم بادراكها " . (٢)

لهذا السبب ، يرى باركلي أن القول بوجود الأشياء المستقلة عن عقولنا ينطوي على تناقض ، يكتب : " حقا إن ثمة فكرة راجت بين الناس رواجا غريبا مؤداها أن المنازل والجبال والأنهار ، في كلمة واحدة ، أن الاشياء المحسوسة لها وجود طبيعي أو واقعي مستقل عن كونها مدركة بالعقل . ولكن على الرغم مما قد يكون صادفه هذا المبدأ من يقين وموافقة كبيرين ، وما استقبل به في حياتنا من حفاوة ، إلا أن كل من يراجع نفسه بصدده ويطرحه للبحث مرة أخرى ، سيرى إذا لم أكن مخطئا في تقديري ، مقدار التناقض البين الذي ينطوي عليه " . (٣)

وثمة كلمة لابد من الإشارة إليها وهي أن باركلي اتهم الماديين بالانهماك في التجريد ، ففصل الإحساس عن الموضوع يعني عند باركلي تجريدا فارغا لا أساس له ، (٤) لأن الموضوع والاحساس في تقديره هما بالفعل الشيء نفسه ، ولذلك لا يمكن بأي حال من الأحوال تجريد الواحد من الآخر ، بهذا المعنى فهما ملتحمان ومتلازمان . (٥)

---

(١) د . يحيى هويدي ، باركلي ، نوابغ الفكر الغربي ، المعطيات السابقة نفسها ص : ١٤٢ .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٤) لينين ، المادية والمذهب النقدي التجريبي ، المعطيات السابقة نفسها ص: ١٩
(٥) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

من هذا المنطلق يمكن ابراز بعض الملاحظات :

١- إن اتهام باركلي الماديين بالانهماك في التجريد دليل واضح على أن المادية ليست ضحلة ، فبإمكانها ، بل من مقتضياتها القيام بعمليات تجريبية . فكان يعتقد أن التجاء الماديين - من بينهم لوك - لعملية التجربة دليل على ضعفهم . لكن العكس هو الصحيح . فالتجاؤهم لعملية التجريد يعتبر نقطة هامة جدا لتصفية الحساب مع بعض أوهام المثالية ازاء المادية .*

٢- إن المادة عند باركلي ليست شيئا آخر غير هذه الصفات التي تبدو لحواسنا ، وليس هناك ما يسمى بالجوهر ، أي المفهوم لهذه الصفات . هناك انكار واضح للجوهر المادي .

٣- إن المادة ليست هي الأساس للأفكار أو للصور القائمة في العقل ، فالصورة لا يمكن أن تشبه الا صورة مثلها ، لا نموذجا بعيدا عنها . فالمادة المفترضة وجودها ، إنها ثابتة ، بينما الأفكار متغيرة باستمرار .(١)

٤- إذا كان وجود الشيء هو كونه مدركا " بامكان المرء أن يتساءل : متى يكون الشيء مدركا ؟ في الحقيقة أن الشيء لا يدرك كلما شئنا ذلك ، وإنما يكون هذا الشيء مدركا عندما تتوافر شروط معينة ، وإلا لما استطعنا ادراكه مطلقا .(٢)

فحين يؤكد باركلي أن المنضدة الموجودة في الحجرة لا وجود لها من دون ادراكها ، فلا بد أن يضيف الى محاكمته القول بأنني لا أدركها إلا إذا انتقلت إلى الحجرة ذاتها ، أي الحجرة التي توجد فيها المنضدة . وعلى ذلك ، فلا بد من وجود شروط معينة لإدراك هذا الشيء أو ذاك ، وهي شروط لا أستطيع التحكم فيها ذاتيا ، بل ينبغي أن أقبلها على علاتها ، لأنها غير خاضعة لإرادتي . ولما

---

* يرجع الفضل في بلورة هذه الفكرة إلى الدكتور طيب تيزيني ١٩٨٣/٩/٢٦ .

(١) د . يحيى هويدى ، باركلي ، نوابغ الفكر الغربي ، المعطيات السابقة نفسها ص : ٧٠ .

(٢) د . فؤاد زكريا ، نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للانسان المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٧٢ .

كانت هذه الشروط غير متوقفة على الذات ، فإنها ستحيلنا ثانية إلى فكرة الوجود[١] . لأنه إذا لم يكن بإمكاننا القول بوجود الأشياء دون كونها مدركة لاستحالة حديثنا عما يجرى في أماكن مختلفة ، أو ما سيقع إذا حدث كذا وكذا ، ولما أمكننا أن نقدم خطوة واحدة إلى الأمام[٢] .

لقد بادر لينين لانتقاد موقف باركلي المثالي بقوله : " لقد حاكم الأسقف باركلي بصراحة ، وحاكم ببساطة ، ففي زمننا يلبسون الأفكار ذاتها بشأن استبعاد المادة من الفلسفة استبعادا اقتصاديا ، في شكل أكثر دهاء وتشوشا بوساطة اصطلاحات جديدة ، لكي يعتبر السذج أن هذه الأفكار هي الفلسفة الحديثة "[٣] .

كما انتقد لينين أيضا كانت وهيوم ، ناعتا إياهما باللاعرفانيين أى باللاأدريين ، لانهما يثقان بشكل كاف بمعطيات أعضاء الحواس ، ولا يرون في الإحساسات صورة صحيحة عن هذا الواقع الموضوعي[٤] .

أما بالنسبة للوك فالأمر يختلف ، بالرغم من تحفظاته التي تحد ميدان المعرفة كان بعيدا كل البعد عن اللا أدرية التي أرتمى في أحضانها كل من هيوم وكانط ، إنه يعتقد أن مهمتنا لاتهدف إلى معرفة كل شيء ، بل إلى ما يهمنا في سلوكنا فقط ، وفي حياتنا العملية ، وهذا شيء في متناول اليد يمكن تحقيقه[٥] ، وليس من الصدفة في شيء أن يشير ماركس إلى القيمة التاريخية لمذهب لوك الحسي ، كتب يقول : " لقد أقام لوك فلسفة الحس السليم "[٦] .

أى أشار بصورة غير مباشرة إلى عدم وجود أية فلسفة إلا فلسفة البصيرة المستندة إلى الحواس السليمة . وقد أشاد بكتاب لوك " مقالة في الفهم الانساني " انه جاء في الوقت المناسب وخاصة بالنسبة للفرنسيين ، وذلك لمناهضة ماورائية القرن السابع عشر .

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٧٣ .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٣) لينين ، المادية والمذهب النقدى التجريبي ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢١ .
(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٤٤ .
(٥) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة . المعطيات المقدمة سابقا ص : ١٧١ .
(٦) كارل ماركس ، مختارات من المؤلفات الاولى ، المعطيات السابقة نفسها ، ص: ١١١

ويبقى أن أشير ولو بإيجاز للغة ، لأهميتها عند لوك ،وخاصة في نظرية المعرفة ، وارتباطها بنظرية التجريد (وقد بينا أهمية التجريد عند الماديين) .

وهذا سيقودنا بطبيعة الحال إلى القاء الضوء على الإسمية والواقعية ، والصراعات التي نشبت بينهما . وكيف كان موقف لوك من الاسمية تحديدا .

يرى لوك أن الألفاظ (الكلمات) ما هي إلا رموز حسية ضرورية للتفاهم بين الناس .[1] وبعبارة أخرى إنها علامات حسية معينة تدل على الأفكار الموجودة في الذهن ،وتكون هذه الأفكار التي ترمز إليها هذه الالفاظ هي دلالتها الحقيقية.[2]

ويضرب لذلك لوك مثلا بالطفل الذى لا يعرف عن الذهب سوى لونه الأصفر اللامع ،وذلك يعني أنه لا يعرف إلا لونه هذا ، حين يتلفظ بكلمة ذهب ولهذا ، فعندما يرى اللون الأصفر نفسه في ذيل الطاووس مثلا ، فإنه يتلفظ بكلمة ذهب ،وكلمة ذهب هنا لا تشير إلا الى اللون الأصفر فحسب .

بينما تختلف المسألة بالنسبة لطفل آخر أكبر منه سنا وخبرة . فيعرف علاوة عن اللون الأصفر في الذهب ، ثقل الوزن ، لذلك ، فحين يستخدم لفظة ذهب إنما يدل بها على فكرة مركبة مكونة من اللون الأصفر وثقل الوزن بالنسبة لهذا الجوهر . أما الطفل الثالث الذى هو أكبر منهما ، لا من حيث السن فقط ، بل أيضا من حيث تجربته وخبرته في الحياة . أن له مقدرة على أن يضيف إلى معنى الذهب فكرة الذوبان ،وتصبح لفظة الذهب بالنسبة إليه تشير إلى جسم له ثقل معين أصفر اللون ، قابل للذوبان ،[3] ولهذا ، فكلما ازداد عدد الصفات ، يصبح الشيء أكثر دقة وأكثر تحديدا .

من الملاحظ أن معظم الألفاظ ليست رموزا فردية تدل على جزئيات مادية ، بل مصطلحات عامة .

هنا يطرح السؤال التالي : إذا كانت الأشياء توجد فردية جزئية فقط ، فاين نجد تلك الماهيات العامة التي يرمز إليها بمصطلح عام ؟ ان اللفظ (كلمة) تصبح عامة لأننا نجعلها رمزا لأفكارنا العامة لنسأل السؤال نفسه ، لكن بصيغة

1-Locke,Essai philosophique ,Ibid,P:324.
2-Ibid,P:325
3-Ibid,P:326

أخرى : كيف تتشكل هذه الأفكار العامة ؟ هنا تأتي نظرية لوك في التجريد لتقدم لنا الجواب عن هذا السؤال .(١)

التجريد (Abstraction) عند لوك :

إذا كان استخدام الأسماء لا يعني إلا وضع رموز ترمز إلى الأفكار الموجودة في الذهن ، وإذا كانت هذه الأفكار قد تكونت في العقل بناء على الإحساس والتفكير ، وحيث أن الجزئيات المحسوسة كثيرة ومتعددة ، وكذلك أفكارنا عنها ، فإنه من الصعب أن نجد لكل فكرة بسيطة مفردة في ذهننا اسما خاصا بها ، لأن عدد الأسماء التي نتعلمها في هذه الحالة لا يعد ولا يحصى . فبفضل التجريد نستخلص الخصائص المشتركة بين الجزئيات ، ونسقط الأعراض الثانوية فنحصل على الأفكار العامة والكلية ، التي تدل عليها بلفظ واحد يغنينا عن الألفاظ العديدة للدلالة على كل جزئي فردي من الموضوعات الحسية وكل ما يربط ويحيط بهذه الموضوعات من علاقات زمانية ومكانية .(٢)

ويضرب مثلا باللون الأبيض فيقول : " إن الإنسان قد يلحظ وجود اللون الأبيض في الثلج والطباشير ، وهو نفس اللون الذي رآه بالأمس في اللبن ، ولرؤيته للون الأبيض في الطباشير والثلج واللبن - نجده يبدأ في تكوين فكرة جديدة . لا هي خاصة باللبن ولا بالثلج ، ولا بالطباشير ، بل ممكن أن تنطبق على أي منها ، وكذلك على كل ما يمكن أن يتصف بنفس الصفة ، وأعطى هذه الصفة اسما جديدا هو البياض ، وهكذا الحال بالنسبة لبقية الأفكار الأخرى ... "(٣) .

وعلى هذا النحو تتكون الأفكار العامة كأفكار الإنسان والحيوان ، وخلافهما ، وهذه الأفكار العامة من صنع العقل ومن نتاجه ، تقوم على تشابه الأشياء . ومن هذا المنطلق يبني لوك نظريته في المعرفة ، من أن المعرفة ادراك اتفاق واختلاف بين فكرتين .

لنأت الآن إلى الحديث عن الاسمية بوجه عام ، وعند لوك بوجه خاص .

---

(١) جمة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٧٠ .

2-Ibid,P:113
3-Ibid,P:114

فالمذهب الإسمي (Nominalisme) كما هو معروف اتجاه فلسفي ظهر في العصور الوسطى ، يعتبر المفاهيم الكلية مجرد اسماء للأشياء الجزئية ، ولا وجود لها إلا في أذهاننا (١). وكانت المدرسية (السكولائية) المتزعمة لهذا المذهب التيار الرئيس في فلسفة المجتمع الاقطاعي من أهم القضايا التي كانت تطرح على بساط البحث مسألة علاقة العام بالخاص ، ثم عرفت بعد ذلك بقضية الكليات أي طبيعة المفاهيم العامة (٢). وإذا تتبعنا جذور الإسمية التاريخية نجد أن الفيلسوف سقراط هو أول من اهتم بهذا الموضوع ، فقد اهتم - كما هو معروف - بالبحث عن الماهيات والتصورات ليحدد المعاني الثابتة للأشياء . ثم جاء أفلاطون فكان جل فلسفته - إن لم أقل كلها - بحثا عن هذه الماهيات الثابتة والصور التي أطلق عليها إسم المثل (٣). ثم واصل أرسطو الطريق الذى اختطه أفلاطون ، مؤكدا أن العلم بالكليات ، بمعنى أن موضوع العلم هو الكلي أو الماهية . وذهب إلى أن على الفيلسوف أن يستخلص الماهية من الوقائع الجزئية التي توجد ملتحمة فيها (٤). ومن الملاحظ أنه ، لا سقراط ولا أفلاطون ، ولا حتى أرسطو خطر في أذهانهم هذا السؤال : هل التصور موجود وجودا فعليا أم لا ؟ في الحقيقة أن هذا السؤال غير وارد ، فلم يكن له أى معنى عند هؤلاء اطلاقا ، ذلك أن التصور في نظرهم موجود وجودا فعليا لا مجال للشك في وجوده ، غير أن الوضع لم يستمر هكذا طويلا ، إذ أخذت المدارس التي جاءت بعد أرسطو على كاهلها مناقشة وجود التصورات العقلية : هل هي موجودة وجودا فعليا ، أم أنها مجرد تجريدات ذهنية ، يجردها العقل من الأشياء الجزئية الفردية ؟ ذهب الرواقيون إلى أن هذه التصورات ليست إلا تجريدات ذهنية خالصة ، وصورا ذاتية في النفس لأنه لا وجود خارج الذهن إلا للأشياء المحسوسة ، والوقائع الفردية . فكان الرواقيون بهذا أول من وضع أساس الإسمية ، لقد حاولوا أن يقيموا منطقا جديدا ، بحيث

---

(١) مجموعة من الاساتذة السوفييت ، الموسوعة الفلسفية ، المعطيات السابقة نفسها ص : ٤٦٧ .

(٢) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٦٥ .

(٣) د . يحيى هويدى ، باركلي ، نوابغ الفكر الغربي ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢١ .

(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة ، الصفحة نفسها .

(٥) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

لا تتعارض فيه المعرفة الحسية مع المعرفة العقلية .

وأول شيء أكدوا عليه هو أنه لا يوجد خارج الذهن إلا أفراد معينة مشخصة ، وأشياء محسوسة .(١)

إن الرواقيين - كما سنرى بعد قليل - يتفقون إلى حد كبير في هذه النظرة مع بعض الفلاسفة المحدثين مثل لوك وباركلي . ويكون الرواقيون بهذا قد مهدوا الطريق لإثارة هذه المشكلة أكثر حدة في العصر الوسيط . وخلال النقاش والجدل الحاد اللذين نشبا في هذه الفترة حول هذه المشكلة بالذات ، أديا إلى ظهور تيارين متعارضين : أحدهما يقول بوجود التصورات أو الكليات في الواقع ، والآخر ينكر عليه هذا الوجود . فكان روسلان (المتوفى عام ١١٢٠) أول من أعطى الإسمية قوة لم تكن لها من قبل . يرى أن الأجناس والأنواع ليست إلا مجرد أسماء ، والجزئي هو وحده الموجود وجودا واقعيا .(٢)

أما التيار الثاني : نجد أن القديس انسلم (المتوفى عام ١١٠٩) أكبر المدافعين عن الواقعية . فقد هاجم بعنف الإسميين الذين يحيلون الكليات والتصورات إلى مجرد اسماء او الفاظ ، ودافع عن الوجود الواقعي لها .(٣)

بالرغم من أن معظم الشخصيات الفكرية في العصر الوسيط كانت واقعية بهذا المعنى ، أي من حيث اعتقادهم بأن التصورات والكليات لها وجود واقعي ، وليست مجرد اسماء والفاظ إلا أنه قد ظهر في القرن الرابع عشر وليم اوكام (المتوفى عام ١٣٤٧) الذي نهض بالإسمية مرة أخرى بعد روسلان ، فصاغ قانونا سمي " بقانون الإقتصاد في الفكر " ويعرف أحيانا باسم سكين أو مقص أوكام ، ويقضي هذا القانون بعدم تعديد عناصر التفسير أكثر مما تدعو إليه الحاجة . ولقد كانت الغاية من هذا السكين هي قطع تلك التفسيرات الزائدة عن الحاجة .(٤)

---

(١) د . عثمان امين ، الفلسفة الرواقية ، الطبعة الثانية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧١ ، ص : ١١٩ .

(٢) د . يحيى هويدى ، باركلي ، نوابغ الفكر الغربي ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٢٠ .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٤) هنترميد ، الفلسفة ، انواعها ومشكلاتها ، ترجمة : د . فؤاد زكريا ، دار النهضة ، مصر ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص : ٨٩ .

والاعتماد على مبدأ الاقتصاد ،أى مبدأ بساطة التفسير القائل بأن مايوجد فعلا هو الفردى ،وأن الكلي ليس إلا وهما مجردا ، لا يمكن أن يكون موجودا وجودا فعليا متقوما في الخارج .[١] وبمعنى أوضح ،أن الكلي لا وجود له إلا في ذهن الذات العارفة .

في الحقيقة أن مبدأ الاقتصاد عند أوكام كان موجها بالدرجة الأولى ضد الفرضيات المدرسية المعارضة له ،التي كانت -حسب رأيه- عقيمة ، وجامدة ، ومعقدة إلى الحد الأقصى ،من دون أن تكون هناك حاجة إلى ذلك .[٢]

بيد أن مبدأ الاقتصادفي الفكر اكتسى صبغة ذاتية خالصة عند بعض الفلاسفة المحدثين أمثال ارنست ماخ وافيناريوس وغيرهما ، فهم يحصرون العالم في الإحساسات لا أكثر .

يكتب لينين منتقدا هؤلاء الفلاسفة : "إن مبدأ الإقتصاد في التفكير إذا ما وضع فعلا في أساس نظرية المعرفة لا يمكنه أن يؤدى إلى شيء عدا المثالية الذاتية ، ان التفكير بأني أنا وحدى فقط موجود مع إحساساتي هو الأكثر اقتصادا ، وهذا أمر لا جدال فيه مادمنا ندخل في علم العرفان مفهوما يمثل هذا القدر من السخافة ".[٣]

ثم يتساءل : "هل التفكير في أن الذرة غير قابلة للانشطار أكثر اقتصادا من التفكير في أنها تتألف من الكترونات موجبة وسالبة ؟ "،[٤] ويعود ليؤكد بأن "تفكير الإنسان يكون اقتصاديا حين يعكس الحقيقة الموضوعية بصورة صحيحة ، علما بأن الممارسة ،الاختبار ، الصناعة هي معيار هذه الصحة ".[٥] إلا أنه يرى بالنهاية أن التحدث بصورة جدية عن الاقتصاد في التفكير في نظرية المعرفة لا يؤدى إلا إلى انكار الواقع الموضوعي .[٦] وعلى أية حال ،فبعد انتهاء العصر الوسيط غدت مشكلة الكليات غير ذى أهمية ،وحتى في حالة تناولها كانت تعرض بشكل عرضي ، وبلا مبالاة ،

---

(١) د . يحيى هويدى ،باركلي ،نوابغ الفكر الغربي ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٢) جماعة من الاساتذة السوفييت ،موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ص : ١٨٠ .

(٣) لينين ،المادية ،والمذهب النقدى التجريبي ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٩٤ .

(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٥) المرجع السابق ،المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ١٩٥ .

(٦) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

ذلك أن الذين كانوا يبحثون فيها انصرفوا عنها ،ليتطلعوا إلى قضايا أخرى أجدى وأنجع من هذه المناقشات العقيمة ، كالتفكير مثلا في إقامة قواعد ومناهج للبحث ، وما شابه ذلك . ثم شهدت بعثا جديدا على يد لوك وباركلي .

فبالنسبة للوك ،فقد ذهب إلى أن جميع الأشياء الموجودة جزئيات ، ومع ذلك يمكن صياغة أفكار عامة ،مثل نبات ، حيوان ،تطبق على جزئيات عديدة ، ونستطيع بالتالي أن نعطي أسماء لهذه الأفكار العامة .(١)

يلاحظ لوك أن كثيرا من الألفاظ هي في الأصل عامة ، بالرغم من أن جميع الأشياء الموجودة جزئية ،خاصة ، لكن قد يتبادر إلى الأذهان أنه من المعقول أن تكون الألفاظ التي يجب أن تتوافق دلالتها مع الأشياء جزئية خاصة أيضا . بينما نجد العكس تماما ، فمعظم الألفاظ في أي لغة هي الفاظ عامة وليست خاصة .(٢)

ويعلل أسباب ذلك فيما يلي :

أولا - إنه من غير الممكن ، بل من المستحيل أن يكون لكل شيء جزئي اسم خاص مميز، لأن ذلك يتجاوز امكانات الإنسان وقدراته - فقد سبقت الإشارة إلى ذلك - فهو لا يستطيع أن يتذكر أفكارا متميزة لجميع الأشياء التي يصادفها في حياته . فهناك حيوانات مختلفة الاشكال والأنواع ،ونباتات وأشجار ، وأشياء أخرى كثيرة ،لا يمكن عدها أو حصرها ، فكلها تؤثر في حواسنا ، ولا تستطيع أكبر العقول الإنسانية أن تستوعبها .(٣)

ثانيا - حتى لو كان ذلك ممكنا ، فالناس في هذه الحال سوف تتراكم لديهم الأسماء من الأشياء الجزئية الخاصة ، دون أن تساعدهم على تواصل أفكارهم ، فالتفاهم بين الآخرين لا يمكن أن يحصل إذا كانت الأسماء الدالة على أشياء معينة توجد أفكارها في عقلي أنا فقط .(٤)

---

(١) رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، المعطيات السابقة نفسها ،ص : ١٧٩ .

2-Locke,Essai philosophique ,P:328

3-Ibidem.

4-Ibidem.

ثالثا- ولو افترضنا أن هذا شيء معقول - وهذا ما يبعده لوك من تصوراته - فإن وضع اسم مميز لكل شيء خاص لا يساعد على تقدم المعرفة وتطورها ، بالرغم من اعتمادها على الأشياء الجزئية .(١)

هذه هي الأسباب التي يرى لوك أنها تحول دون ايجاد اسم لكل شيء جزئي .

ولنا أن نسأل لوك هذا السؤال : كيف تتكون هذه الألفاظ العامة (الكلية) ؟ أو بصيغة أكثر تحديدا ، كيف حصلنا على هذه الألفاظ العامة مادامت جميع الأشياء الموجودة هي أشياء جزئية فردية ؟

يجيب لوك : " إن الألفاظ تصبح عامة (كلية) لأننا نجعلها رمزا للأفكار العامة ،والأفكار تصبح عامة عندما نجردها من ظروف الزمان والمكان ، وأي فكرة أخرى يمكن أن يحددها الموجود الجزئي ،وبطريقة التجريد هذه ، تصبح الفكرة قادرة على تمثيل أكثر من فرد واحد ،حيث كل فرد يمتلك في ذاته التماثل (التطابق) مع الفكرة المجردة التي نسميها النوع " .(٢)

ويمكن تلخيص فكرة الكلية عند لوك في الآتي :

١- إن الأفكار الكلية تمثل في حد ذاتها الأفكار الجزئية ، وهذا ما ذهب إليه باركلي أيضا ، فيرى أنه طالما كانت أية فكرة في العقل عبارة عن صورة ذهنية جزئية متعينة ،(٣) سواء أكان ذلك بوساطة الإحساس أم التذكر ، فإن الفكرة الكلية إذا كان لها وجود ، يجب أن تكون بحكم الضرورة نوعا من هذه الصورة الجزئية ، بالرغم من أنها تشير إلى صور ذهنية أخرى كثيرة ،(٤) ومع هذا التقارب في وجهات النظر ، فهناك محل خلاف بينهما .

فيرى لوك أن معنى أية فكرة لا يقتصر على كونه صورة ذهنية للواقع المحسوس ، كما هو الحال بالنسبة لباركلي ، بل يشمل كذلك معنى آخر ، يعتبر موضوعا للفهم أو العقل الإنساني أثناء التفكير .(٥)

1-Ibid,P:329
2-Ibidem.

(٣) د . عزمي اسلام ،جون لوك ،المعطيات السابقة نفسها ،ص : ١٣١ .
(٤) المرجع السابق ،المعطيات المقدمة سابقا : ص : ١٣٢ .
(٥) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها .

٢- إن الأفكار الكلية تعتبر نتيجة لقيام العقل بعمليات معينة ،أي القيام باستبعاد كل ما هو خاص متميز من هذا الشيء أو ذاك ،أو من أي شخص وآخر .

ولذا فالكلي بهذا المعنى لا يمكن أن يكون مظهرا جزئيا في تجسيمه ، بل هو مظهر جزئي جردنا منه كثيرا من الصفات ، فالأفكار تصبح كلية حين نفصل منها كل الظروف الزمانية والمكانية ،كما سبق الإشارة .(١)

٣- إن الكلي مجرد معنى ، إنه صفة أو مجموعة من الصفات المشتركة بين الجزئيات ، جزئيات النوع الواحد ، أي ماهية النوع ، وبالرغم من غموض فكرة الكلية في فلسفة لوك ، فإن الاتجاه الأكثر وضوحا ، هو هذا الاتجاه الثالث ، الذي يؤكد - كما شاهدنا - بإن الكليات ليست سوى معان مجردة تعتبر بمثابة الماهية الإسمية للأنواع.(٢)

من المعروف أن لوك يميز بين الماهية الحقيقية والماهية الإسمية .

الماهية الحقيقية : هي التركيب الداخلي والحقيقي للأشياء .

والماهية الاسمية : هي التركيب المصطنع للأنواع ، لأنها تنطبق على أفكار مجردة معينة ،وتكون ماهية كل جنس أو نوع ليست سوى تلك الفكرة المجردة ، التي يرمز اليها اسم الجنس ، إذا كان هذا هو معنى الكلية في فلسفة لوك ، فما دلالة الألفاظ الكلية عنده ؟ .

من الواضح أنها لا تدل فقط على الجزئية ،وإلا سقطت منها صفة العمومية ، وبالتالي لأصبح التمييز بين الاعداد شيئا عديم المعنى .(٣) لذلك فالألفاظ الكلية لا تشير إلى جزئيات معينة بالذات في الواقع وإنما تشير إلى مجموعة من الصفات الأساسية المشتركة في مجموعة من الجزئيات ، مثل لفظ انسان ، حيوان .. وما خلاف ذلك .

ثم يأتي باركلي ليشن حربا لا هوادة فيه ضد الأفكار المجردة ،وقد اعتقد خطأ انها السبب المباشر في ابعادنا عن الحقيقة . يكتب في هذا الصدد : " ان

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها .
(٢) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها ،الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها ،ص : ١٣٦ .

الطريق إلى الحقيقة قد سد دوننا ، من فرض ما أثقله الفلاسفة بتجريداتهم والفاظهم الجوفاء ، ومع ذلك فإننا نرفع عقيرتنا بالشكوى من أننا لا نرى شيئا ، ولو تعمقنا الأمر لوجدنا أننا نحن الذين قد أثرنا الغبار من حولنا حتى أصبحنا عاجزين عن رؤية شيء " ،[1] ويضيف قائلا : " إنه قد رسخ في عقول الفلاسفة أن العقل قادر على التجريد ، وأن ثمة أفكارا مجردة يستعين بها هذا العقل على التفكير في المسائل الفلسفية العويصة التي تتناولها الماورائية والمنطق "[2] . مؤكدا في ضوء ذلك على " أن هذه الأفكار المجردة ليست إلا مجرد أوهام ، وترسخ في عقول الفلاسفة أنها حقيقة ، مع أنها مصدر الظلام الذي يحيط بالحقيقة ، ومن واجبنا أن نبعدها عن طريقنا لنرى النور ، نور الحقيقة "[3] . ويرجع باركلي السبب في ذلك إلى اللغة ، فقد ظن الناس أن كل لفظ لابد أن يشير إلى وجود شيء في الواقع . فلما كانت اللغة تشتمل إلى جانب الألفاظ المعاني الكلية ، فقد استنتج هؤلاء أن هذه الالفاظ ، والمعاني الكلية تقابل أشياء في الواقع "[4] لكن اعتبر باركلي هذا الإستنتاج خاطئا في الأساس ، ذلك " لأننا - والكلام لباركلي - لو بحثنا في هذه الالفاظ المجردة لوجدنا أنها إما أن تدل على صفات للأشياء ، وإما أن تدل على أشياء تكون موضوعا للصفات . وفي كلا الحالتين لا يمكن أن تنتهي إلى أي وجود مجرد . لأننا إذا كنا بصدد صفات الأشياء ، فإن هذه الصفات لا يمكن أن توجد مجردة عن الأشياء التي تتحقق فيها ، ولا عن سائر الصفات الأخرى التي توجد مقترنة معها "[5] . ويستشهد بمثال فيقول : " إذا رأيت مثلا كرة صفراء تتحرك ، فإن إدراكي لشكل الكرة يكون مقترنا بادراكي للون الأصفر ، ومقترنا كذلك بإدراك الحركة . ومعنى ذلك أنني لا أستطيع أن أجرد أي ادراك من هذه الإدراكات الثلاثة (شكل الكرة ، ولونها ، وحركتها) على حدة ، أو ادعي بعد ذلك أن

---

(١) د . يحيى هويدى ، باركلي ، نوابغ الفكر الغربي ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٣ .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق ، المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ٢٤ .
(٥) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

له وجودا واقعيا مستقلا بذاته ، فاللون الأصفر مثلا لا يوجد في الواقع مستقلا عن الشكل الكروى في هذا المثال " .(١)

ويستدرك قائلا : " حقا إن الذهن البشرى قادر على تجريد صفة اللون الأصفر وحده وتصوره بمفرده منفصلا عن الشيء المتحقق فيه ، وعن سائر الصفات الأخرى . ولكن الوجود المجرد لكل هذه الصفات في الذهن ليس معناه مطلقا أنها موجودة في الواقع على هذا النحو ، فالوجود الذهني شيء ، والوجود الواقعي شيء آخر ".(٢)

ويتبين من خلال هذا العرض السريع للإسمية ، أن لوك ، وباركلي اسميان ، مع الأخذ بعين الاعتبار بطبيعة الحال أوجه الاختلاف بينهما في هذه المسألة .

وفي حقيقة الأمر أن الإسمية كانت أول تعبير عن المادية في العصر الوسيط ، غير أن اصحاب الاسمية لم يدركوا أن المفاهيم العامة تعكس الصفات الواقعية للأشياء الموجودة موضوعيا ، بل تحتويه داخلها .(٣)

وفي العصر الحديث ، لاحظنا كيف حاول لوك فهم هذه المفاهيم العامة على أنها انعكاس للأشياء الخارجية . وقد سبق أن أشرنا الى مسألة التجريد ، والعام والخاص في فلسفة لوك ، وأوضحنا أهمية هذه النقطة في تصفية الحساب مع بعض أوهام المثالية تجاه المادية .

وكانت في الحقيقة نقطة مضيئة وعلامة بارزة في فلسفة لوك المادية .

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٣) مجموعة من العلماء السوفييت ، الموسوعة الفلسفية المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٤٦٨ .

الفصل الثاني

المعرفة بين اليقين والاحتمال

اولا - المعرفة اليقينية :

يرى لوك أن ثمة نوعا من القضايا المنطقية تدخل ضمن المبادئ الأولية والحقائق العامة maximes أو البديهيات aseiomes ، وهي واضحة بذاتها لا تحتاج إلى برهان للتدليل على صحتها وصدقها .(١) إنها واضحة حدسيا لدرجة أن البعض يعتبرها مبادئ عامة فطرية مسلم بصحتها .(٢)

وأن هذه الحقائق الأولية ليست أول ما يعرفه المرء ،طالما كانت معتمدة على وجود الأفكار الجزئية الناتجة عن تأثير الموضوعات الحسية في العقل . فالمرء مثلا يمكنه أن يعرف بصورة يقينية ان ٢ + ٢ = ٤ قبل أن يعرف بعض الحقائق الأولية الضرورية مثل المبدأ : " أن الكل مساو لمجموع أجزائه " .

وهذا لا يعني أن القضية العددية المشار إليها أعلاه ، قضية قبلية ، سابقة على التجربة ، كما هو الحال بالنسبة لديكارت مثلا ، بل إن جميع الحقائق الرياضية - في نظر لوك - هي أيضا حقائق بعدية مثلها مثل الحقائق الأولية الضرورية (الكل أكبر من الجزء) . لأن أول ما يمكن معرفته هو ما يتكون في العقل من أفكار نتيجة التجربة الحسية . وهكذا فالمعرفة التي لدينا عن الحقائق الرياضية ليست يقينية فحسب ، بل هي معرفة حقيقية ، فليست مجرد تخيلات للعقل لا دلالة لها . هنا تبدو أصالة المنهج التجريبي عند لوك .(٣) فمعرفتنا - في تصوراته - حقيقية بقدر ما يوجد تطابق بين أفكارنا وحقيقة الأشياء .

ولكن كيف نعرف أن افكارنا متطابقة مع الأشياء ؟ يجيب لوك عن هذا السؤال بأن هناك نوعين من الأفكار التي يمكن أن نتأكد من تطابقها مع الأشياء :

٢- جميع الأفكار البسيطة تتطابق مع الأشياء .

1-Locke,Essai philosophique ,Ibie,P:489
2-Ibidem.

(٣) د . عزمي اسلام ،جون لوك ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٦٢ .

ب- جميع الأفكار المركبة ما عدا تلك الأفكار المتعلقة بالجوهر ، تتطابق مع الأشياء .

ومهما يكن من أمر ، فقد حاول لوك استخلاص بعض النتائج منها :

١- إن هذه المبادىء وهذه الحقائق ليست أول الحقائق التي يعرفها العقل .(١)

٢- إنها ليست المبادىء والأسس التي يمكن أن تقوم عليها كل معارفنا .

ويوضح لوك هذا الأمر فيقول : " حقيقة أن المدرسيين يقيمون بعض علومهم على مثل هذه الحقائق أو المبادىء ، إلا أنه يبدو من سوء حظي أنني لم أصادف في حياتي مثل هذه العلوم ، ولا أي علم من العلوم يمكن أن يقوم على مثل هذين المبدأين :

(أي الشيء هو نفسه ، انه من المستحيل على الشيء الواحد ، أن يوجد ، وأن لا يوجد في الوقت نفسه ، ويسعدني كثيرا أن أعرف أين توجد مثل هذه العلوم التي تبنى على تلك المبادىء ، أو تقام عليها ، كما يسعدني أن يرشدني أي شخص الى أي علم من العلوم لا يمكن أن يقوم إلا بناء على مثل هذه المبادىء " .(٢)

ثم يتساءل لوك عن فائدة ، وماهية هذه الحقائق العامة ؟ يجيب بقوله : "إنها عديمة الجدوى اطلاقا " .(٣)

من المعروف أن لوك يميز بين نوعين من القضايا :

أ - قضايا تحليلية .

ب- قضايا تركيبية أو اخبارية .

أ - فالنوع الاول من القضايا : يتضمن اليقين ، ولكن هذا اليقين لفظي غير مفيد ، إن هذه القضايا لا تضيف شيئا جديدا لمعرفتنا .(٤) فهي تحصيل الحاصل . ومن الامثلة على هذه القضايا :

١- جميع القضايا الذاتية : حينما نقول مثلا : إن الشيء هو هو لا يدل على شيء أكثر من تكرار الكلمة الواحدة ، أو تأكيدها هي نفسها . على هذا الأساس لا يمكن

1-Ibidem.
2-Ibid,P:496.
3-Ibid,P:495.
4-Ibid,P:505.

أن يكون هناك مجال للشك في صدق هذه القضايا ،وما ماثلها ، التي لا تفيد أي معنى ولا تضيف أي معرفة جديدة .(١)

فبإمكان أي شخص أن يقوم بتأليف مليون قضية من هذا النوع ، الذى لا يضيف أي شيء جديد لمعارفنا ، كقولنا :

" إن النفس هي النفس ، والروح هي الروح ، وأن الصنم هو الصنم ... إلخ ، "(٢) أو كقولنا : الرصاص معدن ،وهذه القضية محمولها تعريفا لموضوعها لم تضف شيئا جديدا على المعنى الموجود .

ب- القضايا التركيبية :

وهي القضايا التي تضيف إلى معارفنا أشياء جديدة لم نكن نعرفها من قبل ، فمحمولها لا يدل على المعنى المعروف في الموضوع كالمثال التالي :

بعض النباتات موسمية ، هذه القضية - بلا شك - تدل على معنى جديد ، هذا بالإضافة إلى ما تحمله كلمة النباتات من معان جديدة ، فهي على حد قول لوك ، قضية اخبارية تركيبية . والجدير بالإشارة هنا أن لوك - كما يقول ايسايا بيرلين ، قريب الشبه من الفرق بين التركيبي والتحليلي ، وبين البعدية والقبلية عند كانط .(٣)

وإن كانط كما هو معروف يميز بين نوعين من القضايا :

أ- القضايا التحليلية : وهي القضايا التي يكون محمولها جزءا من موضوعها أى أنها تحلل مفهوم الموضوع إلى العناصر المتضمنة فيه ،ويضرب كانط مثلا فيقول : " كل الأجسام ممتدة " .(٤) استنادا إلى هذا المثال ، يتبين أن ليس هناك أي توسع في مفهوم الجسم ، بل هناك الاكتفاء فقط بتحليل هذا التصور ، لأن الامتداد متضمن اصلا في مفهوم الجسم قبل الحكم ، بالرغم من أنه لا يشير إليه صراحة .(٥)

1-Ibid,P:506.
2-Ibidem.

(٣) ايسايا بيرلين ،عصر التنوير ، ترجمة : د . فؤاد شعبان ، مراجعة : ناظم الطحان ،وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ١٩٨٠ ، ص : ١٢ .

(٤) كانط ، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة ، المعطيات المقدمة سابقا ص : ٥٤ .

(٥) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

ب- القضايا التركيبية : وهي التي يزيد محمولها شيئا جديدا على الموضوع فتوسع معرفتنا بالموضوع . فالقضية الآتية : "كل الأجسام ثقيلة" يشتمل محمولها على شيء غير متضمن حقيقة في مفهوم التصور العام للجسم .(١)

إن هذا النوع من القضايا - حسب كانط - هو الذي يعطينا معارف حقيقية ، لأن المحمول فيها كما شاهدنا في المثال السابق ، غير متضمن داخليا في موضوعها .

والقضايا المركبة يقسمها كانط بدورها إلى صنفين :

١- القضايا البعدية المركبة : تستخلص مضامينها من التجربة العملية ، أي اللاحقة على التجربة .

٢- القضايا التركيبية القبلية : هي تلك التي نحصل عليها بمعزل عن التجربة .

لا ريب أن القضايا التركيبية هي التي اعتمدها كانط في بناء منطقه المتعالي transcendantal . وعلى وجه التحديد القضايا التركيبية القبلية ، فيكتب كانط : " توجد أحكام تركيبية بعدية مصدرها التجربة ، ولكن توجد أيضا بالتأكيد أحكام تركيبية قبلية في الذهن ، والعقل الخالص "(٢) . وينصب اهتمام كانط على دراسة ثلاثة أشكال للمعرفة هي : الرياضيات والطبيعيات النظرية والماورائية (المعرفة التأملية لكل ما هو قائم)(٣) . فالقضايا الرياضية ، هي قضايا تركيبية قبلية تقوم على أساس تحديد أشكال معينة . وأن الزمان والمكان لا يستخلصان - في نظر كانط - من التجربة العملية التي يحياها الإنسان ، بل من التأملات الرياضية القائمة على مقولة قبلية مستقلة عن كل تجربة . والمقولات هي أشكال قبلية للفكر يصنفها كانط على الشكل التالي :(٤)

١- مقولة الكم : الوحدة ، الكثرة او التعدد ، الكلية .

٢- مقولة الكيف : الايجابية ، السلبية .

٣- مقولة العلاقات : العرض والجوهر ، العلة والمعلول ، او السبب والنتيجة .

٤- مقولة الجهة : الوجوب والامكان ، الضرورة والمصادفة الاستحالة والامكان .

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٥٥ .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٣) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ٣٨٦ .

(٤) رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٣١٩ .

فإذا أردنا عقد مقارنة سريعة بين لوك وكانط ، نجد أنه بالرغم من وجود بعض التشابه بينهما ، وخاصة فيما يتعلق بالقضايا التركيبية والتحليلية - كما أشار أيايا - بيرلين - من قبل ، وإن كان هذا التشابه فيما يبدو ، ظاهريا لا أكثر . فهناك فرق أساسي بينهما :

وأن لوك - كما بينا - فيلسوف تجريبي مادى ، بينما كانط فهو مثالي لا أدرى .

فإذا كان كانط يعتبر القضايا الرياضية ، هي قضايا تركيبية قبلية ، فانها عند لوك قضايا بعدية ،لاحقة على التجربة وليس العكس .

ثم أن الزمان والمكان - عند كانط - يستخلصان من التأملات الرياضية ، السابقة على التجربة ، أما عند لوك فإن الأفكار المركبة عن المكان والزمان مصدرها التجربة . فبامكاننا - حسب تصوره - أن نصل إلى تكوين فكرة عن المكان بواسطة حاستي اللمس والبصر . وأن المسافات المكانية يمكن قياسها بواحدات قياسية ، كواحدات الطول : المتر ، القدم ، وكذلك المسافات الزمانية يمكن قياسها بالساعات او اليوم ... وهذه القياسات استمدها الإنسان من الطبيعة ، أو بالأحرى من حركة الشمس .(١)

أما فيما يتعلق بمعرفة الإنسان للوجود ،يقول لوك :

" إن لدينا المعرفة بوجودنا الخاص (الذات) وتتم بالحدس ، والمعرفة بوجود الله ، وتكون بالبرهان ، والمعرفة بالأشياء الأخرى وتكون بالحس "(٢) .

١- المعرفة بوجودنا فهي تتم - كما شاهدنا - عن طريق الحدس ، بحيث ندرك وجودنا مباشرة ،وبوضوح ويقين . ويكتب لوك في هذا الصدد : " فيما يتعلق بوجودنا فإننا ندركه بوضوح ويقين ، بحيث لا يحتاج إلى برهان . إذ ليس هناك ما هو أوضح لنا من وجودنا . أنا أفكر ، وأحكم ، وأحس باللذة والألم . هل يمكن لأي من هذه العمليات أن تكون أكثر وضوحا بالنسبة لي من وجودى ؟ فإذا كنت

---

(١) راجع الفصل السابق ، الخاص بالافكار المركبة عن المكان والزمان .

2-Locke,Essai philosophique ,Ibid,P:513.

أشك في أشياء أخرى ، فإن ذلك الشك بالذات يجعلني أدرك وجودي ، ولا يسمح لي بالشك فيه ، ذلك أنني إذا كنت أعرف بأنني أحس بالألم فمن الواضح أنني أمتلك ادراكا مؤكدا بوجودي ، كإدراكي بوجود الألم الذي أحس به ، وإذا كنت أعرف أنني أشك ، فلدي إدراك ما بالأمر المشكوك فيه كإدراكي بالفكرة التي أسميها الشك " ،[1] يتبين من خلال هذا النص تأثر لوك بالكوجيتو الديكارتي : " أنا أفكر إذن أنا موجود " . فثمة شيء واحد في نظر ديكارت يظل قائما في منجاة من الشك هو الفكر . وحتى لو فرضنا ، أن الإنسان شك في أنه يفكر ، فمثل هذا الشك يقتضي أن يفكر ، لان الشك ضرب من التفكير .

فيقول ديكارت في هذا المعنى : " إننا لا نستطيع أن نشك دون أن نكون موجودين ، وأن هذه أول معرفة يقينية يستطاع الحصول عليها " .[2] وهذا هو المعنى الذي ذهب إليه لوك ، لكن لنتذكر بهذا الصدد قول باسكال :

" فهناك فارق عظيم ، بين كلمة تكذب عرضا ، وبين تفكير عميق في هذه الكلمة ، يؤدي إلى سلسلة من النتائج " .[3] ولنتذكر كذلك قول ثيودور اويزرمان : " ليس هناك عرض يمكن أن يكون تكرار كلمة بكلمة ، لما كتبه فيلسوف ما فإنه على أقل تقدير سيكون رواية جديدة بكلمات صاحب العرض الخاصة " .[4] وعلى هذا فتأثر لوك بالكوجيتو الديكارتي لا يعني أنه اخذ بهذا المبدأ على علاته ، بل على العكس تماما ، فقد عارضه في الجوهر ، وفي الأساس ، باعتباره معرفة أولية قبلية سابقة على التجربة ، أو على الأصح باعتباره مبدأ فطريا .

وسنتناول نقد لوك للأفكار الفطرية في الباب اللاحق . ولكن ثمة سؤال يطرح نفسه بالحاح وهو : كيف يمكن تفسير التعارض بين رفض لوك للمعرفة الأولية ، والأفكار الفطرية ، وبين اعتقاده بأن هناك نوعا من القضايا المنطقية ، والمبادئ الأولى واضحة بذاتها لا تحتاج إلى برهان لدرجة أن بعض الفلاسفة منهم ديكارت ، يعتبرها مبادئ عامة فطرية مسلم بصحتها ؟[5]

---

14 Ibidem.

(٢) ديكارت ، مبادئ الفلسفة ، المعطيات المقدمة سابقا ص : ٩١ .

(٣) د . نجيب بلدي ، ديكارت ، نوابغ الفكر الغربي ، دار المعارف بمصر القاهرة ، ص : ٢٩٧ .

(٤) ثيدور اويزرمان ، تطور الفكر الفلسفي ، ترجمة : سمير كرم ، الطبعة الاولى دار الطليعة بيروت ١٩٧٧ ، ص : ٧٠ .

(٥) د . عزمي اسلام ، جون لوك ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٤٥ .

في الحقيقة ان لوك يرفض كل معرفة قبلية أولية ، بمعنى أن تكون مطبوعة في عقولنا قبل الميلاد أو ساعة الميلاد ، إذ يرى أن العقل يشبه صفحة بيضاء في وقت الميلاد ، خالية من كل أفكار وخصائص . ولكن ما معنى هذه الأولية التي يتحدث عنها لوك ؟ إنها عبارة عن بعض المبادئ والبديهيات التي يدرك العقل وضوحها وصدقها ، إما عن طريق الحدس ، أو بالبرهان . وهذا ما جعل البعض يظن أنها مغطورة في العقل كفكرة الذاتية ، المشار إليها سابقا ، وهي عند لوك مبدأ اساسي وأول عملية يقوم بها العقل حينما يصبح مزودا باحساسات وأفكار .(١)

٢- معرفتنا بوجود الله :

إن معرفتنا بوجود الله - فيما يرى لوك - معرفة يقينية واضحة ، غير أنه لا يمكن مقارنتها بالمعرفة الحدسية . ذلك أن معرفتنا بالله تتطلب جهدا عقليا ، يتمثل في التفكير والانتباه . يحاول لوك اعطاء بعض البراهين على وجود الله ، وهي أقرب ما تكون ببراهين ديكارت . يقول لوك : " إنه لا يمكن أن يكون هناك شيء من لا شيء ، وما دمت أنا موجودا شيئا له وجود حقيقي ، إذن لا بد أن يكون هناك من أوجدني ... وهو خالق هذا الوجود "(٢) .

فمع أن لوك كان - كما قال رسل - متدينا بعمق ، ومؤمنا مخلصا بالمسيحية ،(٣) وبوجود الله ، شأنه في ذلك شأن ديكارت الذى حاول ، بعد أن توصل إلى حقيقة النفس ، اثبات وجود الله ، أى التحقق من أن فكرة الله موجودة في العقل وجودا قبليا ، خارج التجربة الحسية .

بيد أن لوك ينفي أن تكون فكرة الله مغطورة في العقل ، وأن يكون لها وجود واقعي . ألا يمكن اعتبار ذلك بداية وتمهيدا للالحاد لدى لوك ؟

٣- المعرفة بالأشياء الأخرى :

أما المعرفة بوجود الأشياء الأخرى فهي تعتمد في الأساس على الإحساس،(٤)

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٢) د . عزمي اسلام - جون لوك . المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٧٠ .
(٣) رسل ، الفلسفة الغربية ، المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٧٤
(4) Locke;Essai philosophique ,P:525

فهي يقينية ، إلا أنها ليست على درجة اليقين الموجود في المعرفة الحدسية والبرهانية غير أن لها من اليقين ما يكفي لكي تصبح معرفة ، لكن السؤال المطروح هو : ما الدليل على أن هذه الأفكار نتجت عن إحساسنا بما هو موجود في الواقع ؟ أليس من الممكن أن تكون عبارة عن خيالات وأوهام ؟ يجيب لوك عن هذا السؤال قائلا : " إن الدليل على ذلك يرجع إلى الأسباب التالية :

أولا - أنه من الواضح أن هذه الأفكار (الإدراكات الحسية) تكون نتيجة تأثير حواسنا بعوامل خارجية .(١)

ثانيا - إن هذه الأفكار تدل فعلا على أشياء في الواقع ، بدليل أننا يمكن أن نميز بوضوح بينها ، وبين الصورة الذهنية عن الضوء او الشمس ، فحين أغمض عيني مثلا وأحاول تصورها - أي تصور الشمس . فإن الصورة المنطبعة في ذهني وأنا أنظر إلى الشمس تختلف عن تصوري لها وأنا مغمض العينين .(٢) ويوضح لوك هذا المعنى على الشكل التالي : " إضافة الى هذا فإن كثيرا من هذه الأفكار التي تتكون في الذهن ، غالبا ما تكون مصحوبة بالألم أو اللذة ، فإذا ما حاولنا تذكرها بعد ذلك ، يمكننا استرجاعها مرة أخرى في الذهن بدون هذا الشعور المصاحب "(٣) .

ثالثا - إن حواسنا تعتبر أكبر شاهد على ذلك ، حين تؤكد حاسة بعد أخرى تثبيت أفكارنا الحسية ، وتوضيحها عن الأشياء المحسوسة الخارجة عنا . ويضرب لوك مثلا بالشخص الذي يرى أمامه نارا مشتعلة ، في حالة ما إذا شك في وجودها ، وظن أن عينيه تخدعانه ، بحيث تجعلانه يرى أشياء ليس لها وجود ، يمكنه أن يدركها إذا وضع يده فيها ، ويحس بالألم حين تحرق يده ، وهو في تلك اللحظة لن يشك أبدا بوجودها الحقيقي ، ولن يتوهم بعد ذلك بأن هناك من الأرواح ما تخدعه حين يرى يده وقد احترقت ، ويحس بالألم فيها .(٤)

1-Ibid,P:527
2-Ibidem.
3-Ibidem.
4-Ibid,P:528

ومن هنا نرى أن حواسنا تكمل بعضها بعضا ، وتؤكد بعضها بعضا ،ويعتبر كل واحدة منها شاهدة على صحة الأخرى .[1] مثلا : العصا المكسورة في الماء ، لكن عندما نخرج العصا بصورة حسية ، سوف نكتفي بالحقيقة كما هي . نلاحظ هنا تعاون حاسة العين مع حاسة اللمس .

وفي نص آخر نقرأ لدى لوك ما يلي : " لو كانت لنا حواس تبلغ من الحدة ما يمكنها من ادراك الدقائق الصغيرة للأجسام ، والتركيب الحقيقي الذى تتوقف عليه كيفياتها المحسوسة لبعثت فينا دون شك أفكار مختلفة كل الاختلاف ، ولاختفى ما هو الآن اللون الأصفر للذهب ،ورأينا محله نسيجا منظما من الأجزاء ذات الشكل أو الحجم الخاص ،وهذا ما تكشفه لنا المجاهر بوضوح ... فالدم يبدو للعين المجردة أحمر كله ، ولكن المجهر الجيد الذى يكشف أجزاءه الصغيرة لا يطلعنا إلا على كريات حمراء قليلة ،تسبح في سائل شفاف "[2] .

لوك - فيما يبدو - يخلط بين الموقف العلمي والموقف الطبيعي ،وقد ذهب إلى أبعد من ذلك ،حينما افترض انه لو تغيرت حواسنا ، وأصبحت أسرع واحد لتغيرت معها ظواهر الأشياء تغيرا ملموسا ، ولأصبحت غير متوافقة مع حياتنا العملية.[3] فيكتب في هذا المجال : " فلو كانت حاسة سمعنا أشد ألف مرة مما هي عليه لسمعنا ضجيجا دائما يزعجنا .. ولو كانت حاسة الإبصار أحد ألف مرة مما هي عليه الآن في أحسن المجاهر لرأت العين المجردة أشياء أصغر بملايين المرات مما تراه الآن ،ولاقترب الإنسان من كشف نسيج الأجزاء الدقيقة للأجسام المادية وحركتها "[4] .

إلا أن لوك يحاول استدراك الموقف ، فيكتب : " لن يعود هذا التغيير بنفع كبير ،إن لم يفده (اى الانسان) هذا الإبصار الحاد في الذهاب إلى السوق والتعامل فيه ، وإن لم ير الأشياء التي ينبغي عليه تجنبها عن بعد كاف ..."[5] .

1-Ibid,P:528

(٢) نص منقول من كتاب نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للانسان للدكتور فؤاد زكريا ، المعطيات المقدمة سابقا ،ص : ١٤ .

(٣) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٥ .

(٤) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها ،الصفحة نفسها .

(٥) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

إن لوك - كما هو واضح - يقف من العالم الخارجي ،أو بالأحرى من المسألة الأساسية في الفلسفة التي تدور حول الأولوية في العالم ، هل للمادة ام للروح ؟ للطبيعة أم للفكر ؟ موقفا ايجابيا ، حيث يقر بأولوية المادة أو الطبيعة ، أمام الوعي أو الفكر . لكن في الطرف الآخر تتبدى نقطة ضعف كبرى إلى جانب النقطة المتعلقة بالكيفيات الثانوية ،وذلك عندما يتحدث في النص السابق عن حدة الحواس ، وتغيير ظواهر الاشياء تغييرا تاما ، ولا شك أن هذا الاتجاه كان له أخطر النتائج بالنسبة إلى التفكير في مشكلة العالم الخارجي .(١) وعلى سبيل المثال ،ما ذهب إليه العالم الإنجليزى "ادنجتن "عن المنضدة ، فهي من جهة شيء صلب نكتب عليه ، ويعرفها لنا العلم من جهة أخرى كمجموعة لا متناهية من الجسيمات والموجات الخ ..(٢) لكن هذا العالم الانجليزى يعقب على هذين التفسيرين قائلا : "إن أحدهما صادر عن الأطفال وأنصاف المتمدينين* ، والآخر راجع الى ملاحظة بصرية بلغت مستوى رفيعا من الأحكام العقلي والدقة الرياضية "(٣) .

وهذا المثال - فيما أعتقد - كاف لبيان خطورة الموقف من مشكلة العالم الخارجي .

ومهما يكن من أمر فإن لوك يقر بيقين المعرفة الحسية ، فهي ضرورية في حياتنا العملية . ويكتب فؤاد زكريا في هذا الصدد : "إن لوك قد اهتدى بكل وضوح إلى ذلك الارتباط الأساسي للموقف الطبيعي بقدرة الإنسان على السلوك العملي في العالم الطبيعي ، فإذا حاولت - وأنت تسبح - أن تنظر إلى البحر على أنه ليس خارجيا فلن يكون لهذا من نتيجة سوى غرقك ، وإذا شئت خلال سيرك أن تعد الشجرة فكرة ذاتية في رأسك ، فلن يؤدى ذلك إلا اصطدام رأسك ذاتها بها "(٤) .

وفوق هذا ،إن المعرفة الحسية أساس في بناء أفكارنا البسيطة ، والمركبة على السواء .(٥)

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات المقدمة سابقا ،ص : ١٦ .
(٢) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها ،ص : ٤٢ .
(*) يقصد التفسير الاول .
(٣) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها ،الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ،ص : ١٦ .
(٥) د . عزمي اسلام ، جون لوك ،المعطيات السابقة نفسها ،ص : ١٧ .

لكن هذه المعرفة - حسب نظر لوك - لا يمكنها أن تصل إلى أبعد من الإحساس الفعلي ، ولا تزيد عليه ، بمعنى أن معرفتي الحسية تعتبر مقصورة على ما أدركه بحواسي فقط .(١)

وانطلاقا من كل هذا يمكن القول إن المعرفة اليقينية عند لوك معرفة محدودة قصيرة المدى بحيث لا يمكن أن تحيط بكل الأشياء ، فالإنسان قد يعرف أحيانا أشياء كثيرة ، ولكنه لا يكون متأكدا منها ، لذلك لجأ إلى الظن والاحتمال .

الاحتمال :

الاحتمال - في نظر لوك - هو الميل إلى تصديق قضايا معينة ، وأفكار محددة ، على أنها صادقة ، من غير أن يكون لدينا عنها معرفة يقينية ، فهو مكمل للمعرفة .(٢)

يحاول لوك تحديد الأساس الذي يبنى عليه الاحتمال في مسألتين :

أولا - اتفاق اى شيء مع ما نعرفه نتيجة لتجاربنا ولخبراتنا الخاصة . نقرأ لدى لوك : " لما كانت معرفتنا - كما بينا - ضئيلة ومحددة ، فإن معظم القضايا التي نفكر فيها ونتعقلها ونتحدث عنها ، لا بل نعمل بها ، هي بطبيعتها لا يمكن معرفة صحتها دون أي شك فيها ، ومع ذلك فإن بعضها يقترب كثيرا من اليقين ، حتى أننا لا نشك فيها مطلقا ، بل نوافق عليها ، ونعمل بها باعتقاد جازم . كما لو كانت معرفتنا بها كاملة يقينية "(٣) .

ويضرب مثلا على ذلك : " بأن معرفتنا بوجود الملايين من البشر الذين يعيشون في أمريكا والهند .. تعتبر مجرد احتمال فقط ، ولا يمكن أن تكون معرفة يقينية ، بالرغم من أنني لم أشاهد هؤلاء الناس ، فقد استنتجت وجودهم بناء على إدراك وجود أناس يحيطون بي "(٤) . في هذا المعنى يقول رسل : " أما ما نعتقده اعتقادا جازما إذا لم يكن عاما ولا خطأ ، وكذلك ما نعتقده ونحن على شيء من التردد لانه ليس له مرتبة عالية من الوضوح بالذات فيدعى الرأي المحتمل ، وعلى هذا فالكثرة الكاثرة مما يدعى عادة (معرفة) ماهي

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ١٧٥ .

3-Locke, Essai philosophique , Ibid, P:546.

4-Ibidem.

إلا من الرأى المحتمل ، وحظه من ذلك الاحتمال يزيد أو ينقص "(١).

ثانيا - شهادة الناس الآخرين :

تستند شهادة الآخرين إلى معرفتهم ، وخبرتهم الخاصة . فإذا أخبرني شخص - مثلا - بوقوع حادث ما ، وكان هذا الشخص موضع ثقتي ، فإني سأميل إلى تصديقه في الحال . ويوضح لوك هذا المعنى فيما يلي : " رجل لم يكلف نفسه عناء ملاحظة البرهان ، وإنما سمع ما قاله أحد الرياضيين الثقاة ، من أن زوايا المثلث الثلاث تساوى زاويتين قائمتين ، فوافق عليها ، على أساس أنها صحيحة ، فموافقته هذه تستند إلى الاحتمال "(٢) .

لكن هذه الشهادة - كما يرى لوك - تتطلب مراعاة الشروط التالية :

١- العدد .

٢- النزاهة .

٣- المهارة او الحذق .

٤- هدف المؤلف حين يحاول أن يجذب أو يشد اليه شهادة الآخرين .

٥- التكيف مع طبيعة البلد ، من حيث الظروف الطبيعية ، والعلاقات الاجتماعية .

ويضرب لوك مثلا فيقول : " إنني إذا رأيت رجلا يمشي على الجليد ، فإن هذا يعتبر معرفة ، ولا يمكن أن يكون احتمالا ، لكن إذا اخبرني شخص آخر أنه رأى رجلا في انجلترا ، في الشتاء الماضي ، يمشي فوق الماء الذى تجمد بفعل البرودة ، فإن هذا شيء يتفق مع ما نلاحظه ، لأن هذا غالبا ما يحدث في مثل هذه الأوقات من الشتاء . لذلك فانني غالبا ما أميل إلى تصديق ذلك "(٣) .

ويستطرد قائلا : " أما إذا كان هذا الكلام قد أخبر به شخص ولد في المناطق ما بين المدارين ، أى لم ير في حياته قط ، ولم يسمع بمثل هذا الخبر ،

---

(١) رسل ، مشاكل الفلسفة ، ترجمة د . عبد العزيز بسام ، ومحمود ابراهيم محمد ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الثانية بدون تاريخ ، ص : ١٤٤ .

2-Ibid,P:546.

3-Ibidem.

فإن كل الاحتمال في هذه الحال يتوقف على شهادة الشهود الذين أدركوا مثل هذه الواقعة ،وكلما كان عدد الرواة أكثر ، كانوا موضع ثقة السامع ، ويعرف عنهم أنهم لا يقولون إلا الصدق . كانت درجة الاحتمال أكبر ،وكان الميل إلى تصديق الكلام أكثر "(١) .

لكن يلاحظ أن تناقض خبرة السامع ، مع خبرة أو تجربة المتحدث أو الشاهد غالبا ما يقلل من تصديق الكلام ،ويؤدى بالتالي إلى التقليل من درجة الاحتمال ، إلى ما هو أقرب إلى التكذيب منه إلى التصديق (٢) .

وهذا ما حدث لسفير هولندة - كما يذكر لوك - : "الذى كان يروى للملك سيام أن الماء في هولندة يتجمد أحيانا في الجو البارد ،ويصبح شيئا صلبا لدرجة ان الناس تمشي فوقه ،ولدرجة أنه يتحمل أن يقف أو يمشي عليه فيل واحد - فقال له الملك سيام (أنني كنت أصدق الأشياء الغريبة التي خبرتنا بها من قبل ، لأنني كنت انظر اليك على أنك رجل شريف ونزيه ، أما الآن فإنني على يقين من أنك كاذب "(٣) .

هذه نظرية لوك في المعرفة اليقينية والاحتمالية . ومما لا شك فيه أن البحث في الاحتمال له علاقة بمشكلة الضرورة والمصادفة ، الضرورة تجسد العلاقة الحتمية ، بينما المصادفة تجسد العلاقة الاحتمالية . فالضرورة والمصادفة مترابطتان ترابطا جدليا . فالحدث أى حدث يمكن أن يكون ضروريا ومصادفة في الوقت نفسه ، فإذا أخذنا مثلا ، المطر كحادثة ، فهي بصفتها مصادفة بالنسبة لهلاك النبات ، ونتيجة ضرورية للاحوال الجوية في المنطقة التي تهطل فيها .(٤) فإذن الربط بين مسألة الاحتمال بالمصادفة والضرورة ، يعني أول ما يعني اقرار لوك بجدلية المعرفة ، واقرارا ضمنيا على الأقل ، فالمعرفة في تصوراته ليست ناجزة ،وانما هي سياق تاريخي جدلي .

1-Ibid,P:546.

2-Ibid,P:550

3-Ibidem.

(٤) أفانا سييف ، أسس المعارف الفلسفية ، المعطيات المقدمة سابقا ،ص : ١٤٦ .

الباب الرابع

الأفكار الفطرية في المذهب العقلـــي
وموقف لوك منهـــــا

الفصل الاول

المذهب العقلي ، ومقارنته بعملية التذكر عند أفلاطون

المذهب العقلي - كما شاهدنا - هو تعاليم في نظرية المعرفة القائلة باشتمال العقل على مفاهيم فطرية ، أو مفاهيم موجودة على شكل استعدادات مسبقة في العقل ، فالمفاهيم بهذا المعنى أولية ، أي سابقة على التجربة ، ومستقلة عنها ، مقابل المعرفة البعدية ، التي نكتسبها عن طريق التجربة (١) .

وقد ظهرت الصورة الأولى للمذهب العقلي عند أفلاطون ، وخاصة فيما يتعلق بنظرية المثل . بيد أنه لم يكن هو أول العقليين ، فقد سبقه إلى هذا الاتجاه ، فيثاغورس الفيلسوف الرياضي ، الذى كان لآرائه الفلسفية والرياضية والأخلاقية تأثير كبير في فلسفة أفلاطون ، وقد يكون الفيلسوف الرياضي أميل أكثر من غيره إلى المذهب العقلي لاعتماده على الاستنتاج والاستنباط المنطقي دون الرجوع إلى التجربة أو الخبرة (٢) .

نقرأ في هذا الصدد أنه " عندما يتخلى الفيلسوف عن الملاحظة التجريبية بوصفها مصدرا للحقيقة ، لا تعود بينه وبين النزعة الصوفية إلا خطوة قصيرة " (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فنظرية المثل عند أفلاطون ما هي إلا نتاج للخيال ، لا للتحليل العلمي المنطقي ، وتفكيره في هذا كان صوفيا أكثر منه منطقيا ، إذ يربط بين نظريته في المثل وبين فكرة تناسخ الأرواح .

في محاورة مينون يسعى أفلاطون الى تفسير طبيعة المعرفة الهندسية ، وذلك عن طريق توجيه أسئلة إلى غلام لم يتلق ، قط ، تعليما في الرياضيات ، ويتخذ من هذا المنطلق السبيل للوصول إلى الحقيقة الهندسية ، وإلى المعرفة الفطرية غير المستمدة من التجربة (٤) .

---

(١) د . يحيى هويدى ، مقدمة في الفلسفة العامة ، نفس المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ١٣٧ .

(٢) هانز ، ريشنباخ - نشأة الفلسفة العلمية ، ترجمة : د . فؤاد زكريا . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الثانية ص : ٤٠ .

(٣) المرجع السابق نفس المعطيات السابقة ، الصفحة نفسها .

(٤) المرجع السابق ، نفس المعطيات السابقة ، ص : ٣٣ .

لكن ماذا يعني أفلاطون بكلمة مثل ؟ وما الصلة بين المثل المعقولة والأشياء المحسوسة ؟ هل المثل كامنة في الأشياء ملازمة لها ؟ أم أنها خارجة ومستقلة عنها ؟ وكيف ربط أفلاطون بين هذه النظرية ، وبين عملية التذكر ؟ وما الغاية التي كان يتوخاها من وراء ذلك ؟

في الحقيقة ، أن المثال عند أفلاطون ما هو إلا صورة عقلية مجردة ، وحقيقة معقولة أزلية ، قائمة بذاتها لا تتغير (١) ، والمثل على هذا النحو مبدأ المعرفة ، ومبدأ الوجود . فهي مبدأ المعرفة ، لأن النفس لا يمكن أن تدرك الأشياء ، وتلحظ وجودها إلا إذا كانت قادرة على تأمل المثل . وهي مبدأ الوجود لأن الجسم لا يتحدد كجسم إلا إذا شارك بجزء من مادته في مثال من المثل (٢) .

وجملة القول : " إن المثال هو المعنى المعقول الثابت الواحد ، في مقابل المحسوسات والجزئيات ، الكثيرة المتغيرة ، والتي ينطبق عليها هذا المعنى ، وإن المحسوسات تشارك المثل أو تحاكيها ، وتقترب منها ، فهي أقل منها في مرتبة الحقيقة (٣) .

من الواضح أن افلاطون قد ربط بين هذه النظرية ، وبين عملية التذكر التي تصور لنا النفوس سابحة في العالم العلوي ، عالم المثل ، قبل نزولها إلى العالم المادي المحسوس ، وحلولها في الأجساد . وأن المعرفة والحالة هذه غير ممكنة إلا إذا تذكر المرء الحياة التي كانت تحياها النفس في عالم المثل . وهذا يعني أن هناك أفكارا موجودة في النفس ، كامنة فيها ، لم نكتسبها لا بالتعليم ، ولا بوسيلة أخرى . فالتعليم - على حد قول أفلاطون - إن هو إلا تذكر .

يكتب افلاطون في هذا المعنى : " إن التعليم عبارة عن تذكر ، وقد حصلنا المعرفة قبل أن نولد ، وكانت لدينا عند الميلاد ، إذن فقد كنا قبل الميلاد ، وفي ساعة الميلاد نفسها نعرف كذلك فضلا عن المتساوي ، والأكبر والأصغر سائر المثل جميعا . فنحن لا نقصر الحديث على المتساوي المطلق ، ولكنه يتناول الجمال ، والخير

---

(١) د . جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، المجلد الثاني ، نفس المطبوعات السابقة ص : ١٥٧ .
(٢) المرجع السابق ، نفس المطبوعات المقدمة سابقا ، ص : ٣٣٥ .
(٣) د . فؤاد الاهواني - افلاطون - نوابغ الفكر الغربي ، نفس المطبوعات السابقة ، ص : ١١١ .

والعدل ،والقداسة ،وكل ما نطبعه بطابع الجوهر في مجرى الحوار ،حينما نلقي أسئلة ونجيب عن أسئلة ،أفنستطيع أن نؤكد ،أننا قد كسبنا معرفة هذه كلها قبل الميلاد ؟"(١).

ويتابع افلاطون حديثه قائلا : " إنه من الواضح أننا ندرك شيئا بوساطة البصر أو السمع أو اية حاسة أخرى ، لا نصادف صعوبة في أن ينشأ لدينا من هذا الشيء تصور لشيء آخر ، يشبهه أو يباينه ، كنا قد نسيناه ،وكان قد ارتبط بذلك الشيء"(٢). وهذا يعني بالنسبة لأفلاطون أحد أمرين (٣) :

١- إما أن هذه المعرفة كانت لدينا عند الميلاد ،وبدأنا نعلمها .
٢- وإما أن يكون أولئك الذين يقال عنهم أنهم يحصلون العلم بعد ميلادهم ، لا يفعلون أكثر من أن يتذكروا تلك المعرفة ، وذلك العلم .

أفلاطون يحاول أن يقيم الدليل على بطلان الفرض الأول ، فيتساءل قائلا : " فلو أوتينا المعرفة ساعة الميلاد ، فمتى افتقدناها ؟ فهل افتقدت الروح المعرفة في نفس اللحظة التي تلقتها منها ؟ فهذا قول لا يستقيم مع العقل ،ولذا فلم يبق إلا فرض واحد ، هو أن الروح قد كسبت المعرفة قبل الميلاد . فما دمنا قد كسبنا المعرفة قبل الميلاد فلا بد من أن أرواحنا كانت موجودة قبل اتصالها باجسادنا ، وكان لديها من قوة الذكاء ما نستطيع به تحصيل هذه المعرفة"(٤). هنا يطرح السؤال : كيف يمكن اثبات وجود المعرفة في النفس قبل اتصالها بالجسد ؟ ، يذهب أفلاطون إلى القول ، أنه يمكن بشيء من الانتباه أن يتذكر المرء ما كان قد عرفه ،مثل ما رأينا في محاورة مينون ،التي يعرض فيها أفلاطون أدلة الإثبات أن النفس كانت لديها معرفة سبقة ، فيستدعي سقراط (المتحدث باسم افلاطون) خادم مينون وأخذ يسأله عن طول ضلع المربع ،ولم يكن للخادم أي معرفة عن علم الهندسة ،ومع ذلك استطاع أن يجيب إجابة صحيحة ،كيف تم له ذلك لو لم تكن النفس على علم سابق بهذه الأمور ،وحيث أنها قد اطلعت على جميع الأشياء في عالم المثل فبإمكانها والحالة هذه أن نسترجع

---

(١) أفلاطون - محاورات أفلاطون - ترجمة : د . زكي نجيب محمود . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٣ ، ص : ٢٠٧ .
(٢) المرجع السابق ، نفس المعطيات السابقة ،ص : ٢٠٧ .
(٣) المرجع السابق ،نفس المعطيات السابقة ،ص : ٢٠٨ .
(٤) المرجع السابق ،نفس المعطيات السابقة ص : ٢٠٩ .

ونتذكر كل ما عرفته من قبل .(١)

وهكذا نجد أفلاطون في محاورة مينون يبسط قسما منها حول المعرفة ، من أن للنفس حياة سابقة وذلك قبل ارتباطها بالجسد ، فهي خالدة ، لامتناهية ، لامادية ، مفارقة للمادة ، وعارفة بكل مبادىء الأشياء ، وأسماء الموجودات بالطبع ، بالفطرة ، بحكم التكوين لا بالاكتساب ، وليست حياتها في بدن معين إلا مرحلة من مراحل تاريخها ، ومادامت النفس خالدة فقد اطلعت منذ زمن بعيد على كل شيء ، ثم نسيت كل ما كانت تعرفه .

٢- والدليل الثاني على وجود المعرفة في النفس قبل حلولها في الجسد ، هو ما للروح من مقدرة على ترابط المعاني ، فمثلا ، صورة شخص ما يذكرنا بالشخص نفسه . أو كما يقول أفلاطون ، قد ترى القيثارة فتذكرك بالعازف عليها ، وقد ترى القطع المتساوية من الخشب ، أو الحجر فيستدعي ذلك في نفسك فكرة المساواة المطلقة .(٢)

وقد لاحظ أفلاطون أن الأشياء المادية المتساوية لا تبلغ في تساويها فكرة المساواة المطلقة التي توازن ونقارن بها تلك الأشياء ، ونتخذها مقياسا لها ، ولما كان المقياس لابد أن يكون سابقا للشيء المقيس وجب أن تكون فكرة المساواة أسبق من المتساويات المادية ، وإذا كانت سابقة لها ، فهي كذلك أسبق من الحواس التي أدركتها .(٣)

وهكذا يخلص أفلاطون إلى نتيجة وهي أن المعرفة مفطورة في النفس قبل الميلاد .

يكتب رسل في الموضوع نفسه : " بأن هذه النظرية القائلة بأن المعرفة تذكر تستند أكثر ما تستند إلى وجود أفكار لدينا ، مثل فكرة المساواة المضبوطة ، يستحيل أن نكون قد اكتسبناها من التجربة ، لأن ماصادفناه في تجربتنا عن المساواة نسميه

---

(١) المرجع السابق ، نفس المعطيات السابقة ، ص : ٩٠ .
(٢) المرجع السابق ، نفس المعطيات السابقة ، الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق ، نفس المعطيات السابقة ، الصفحة نفسها .

تقريبية ، أما المساواة المطلقة فلا وجود لها اطلاقا في الأشياء المحسوسة "[1] . من هذا المنطلق يمكن القول إن النفس قد جاءت بالمعرفة من وجود سابق على هذا الوجود ، أي من عالم المثل .

والمعرفة على هذا النحو ليست بعدية ، بل قبلية ، سابقة على التجربة ، ندركها حين نتأمل نفوسنا ، فقبل أن تتصل النفس بالجسد ، طافت في عالم المثل ، وتعرفت هناك على الوجود الحقيقي - حسب المنظور الأفلاطوني بالطبع - أما في الواقع ، فهو اللاوجود .

وحين تتصل بالجسد تنسى ما كانت تعرفه في السابق ، أي قبل أن تهبط إلى الأرض . ولكن النفس أو الروح لا تزال تحتفظ في داخلها بالذكريات ، عما شاهدته في عالم المثل ، وعندما تدرك النفس الموجودات أشباح المثل تعود بها الذاكرة إلى المعرفة المنسية[2] ، إلى عالم المثل .

من المعروف أن مسألة النفس عند أفلاطون على درجة كبيرة من الأهمية ، فهي مقر المثل ، ومصدر المعرفة .[3] ولقد سبق لسقراط أن عبر عن حكمته المشهورة : "اعرف نفسك" ، فسار أفلاطون في هذا الاتجاه ليكشف عن طبيعة النفس ، وأقسامها ، وخلودها ، وكيفية الوصول الى المعرفة .[4] وقد تناول كل ذلك في محاوراته (مينون ، وفيدون ، والجمهورية ...) .

في ضوء ما تقدم يتبين أن المعرفة عند أفلاطون فطرية ، بمعنى أنها موجودة في النفس بصورة قبلية أولية ، وأن التذكر ما هو إلا كشف هذه المعرفة القبلية الأولية .[5] ففي محاورة الجمهورية يتحدث أفلاطون عن الطابع التجريدي ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل ذهب أبعد من هذا بكثير ، بحيث فصل هذه الصور عن المحسوسات المتغيرة .

---

(١) رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، الجزء الاول ، نفس المعطيات السابقة ، ص : ٢٢٨ .

(٢) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، نفس المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ٩٧ .

(٣) د . فؤاد الاهواني ، افلاطون ، نفس المعطيات السابقة ، ص : ٨٩ .

(٤) المرجع السابق ، نفس المعطيات السابقة ، ص : ٨٩ .

(٥) المرجع السابق ، نفس المعطيات السابقة ص : ٩١ .

وجعلها عالما مستقلا قائما بذاته.[1] فإذا كانت المثل - كما سبق القول - معقولات قائمة بذاتها مستقلة عن الكثرة المتغيرة ، بل عن الذهن المدرك لذاته ، فلا بد من أن يكون لها عالما خاصا بها ، مقابلا لعالمنا المادى ، سابقا له ومستقل عنه ، هو عالم المثل.[2]

وقد يثار السؤال التالي : ما الفرق بين المثالية الحديثة - (بغض النظر عما إذا كانت ذاتية أو موضوعية - والمثل عند افلاطون ؟ والجواب عن هذا السؤال ، هو أن المثالية الحديثة ترفض المحسوسات بوصفها مظاهر الأشياء وترجعها إلى معطيات الوعي ، التي لا وجود لها خارج الذهن أو مستقل عنه.[3] بينما نجد أن أفلاطون يسلب المحسوسات كل عنصر ذهني ، ولا يولي اهتماما كبيرا بنفي صفة الخارجية عن الظواهر المحسوسة ، كما هو الحال بالنسبة للمثالية الحديثة ، ان ما يهمه بالدرجة الأولى هو أن يسلب هذه الظاهرة صفة الوجود الحقيقي ، وأن لا تبقى موضوعا للمعرفة ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، فإن المثال الأفلاطوني لا يشترك مع الفكرة باعتبارها موضوع الذهن كما تفهمها المثالية الحديثة ، بل يشترك معها في اللفظ فقط .

فافلاطون يؤكد باستمرار استقلالية المثال ، لا عن الأشياء المحسوسة التي تشارك في ذلك المثال فحسب ، بل أيضا عن الذهن الذى يدركه.[4]

فإذا كانت المثالية الحديثة ترد الوجود إلى الفكر ، كما هو الحال بالنسبة لباركلي ، الذى يرى أن الفكرة ما هي إلا حالة للذهن العارف ، وليست موضوعات متميزة ومستقلة عنه.[5] فمثالية أفلاطون تصبح هي ذاتها حقيقة ، ويكون وجودها مطلقا ، يخضع لها الفكر ، ويأتمر بأمرها . هنا تبدو بشكل واضح النزعة الواقعية في فلسفة أفلاطون ، وليس المقصود بهذه الواقعية الأشياء المحسوسة ، وانما هي الواقعية المثالية ، المشار اليها سابقا ، التي تقابلها الإسمية .

---

(١) أفلاطون ، الجمهورية ، ترجمة : د . فؤاد زكريا - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ - ص : ١٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، نفس المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ١٤٥ .

(٣) المرجع السابق ، نفس المعطيات السابقة ، الصفحة نفسها .

(٤) المرجع السابق ، نفس المعطيات السابقة ، الصفحة نفسها .

(٥) المرجع السابق ، نفس المعطيات السابقة ، ص : ١٤٧ .

فالمثل بهذه الصورة ينتمي إلى عالم خاص به ، مستقل بشكل مطلق عن العالم الخارجي المادى ، وأن معرفتنا بهذا العالم الأخير وبظواهره ما هو إلا تذكر فحسب للمثل .

وأكثر من هذا ، أن أفلاطون لم يكن يعترف بكل ما نسميه الآن علوما ، وإنما كان يضعها في مرتبة المعرفة الظنية ، هذا مع إمكان استثناء الرياضيات والفلك بدرجة أقل .(١) فبالرغم من احترامه لهذين العلمية ، وبوجه خاص علم الرياضيات ، ما يلبث أن يختفي نهائيا أو يكاد ، بمجرد أن يقترب من العالم المحسوس ، أو حين يعتمد على الملاحظة والمشاهدة .(٢) وإن كان في الظاهر يتحدث عن الجدل بمعنى عام ، فهناك جدل صاعد ، وجدل نازل ، فالصاعد يرتفع بالنفس من عالم الحس إلى عالم العقل ، إلى المثل ، والنازل يهبط من المثل مرة أخرى إلى عالم الحس .(٣)

لكن في الحقيقة ان الجدل عند افلاطون ما هو إلا عملية عقلية خالصة ، فليس هناك علاقة جدلية بالمعنى الصحيح لكلمة جدل . فهو إذ يفصل فصلا تاما ما بين عالم العقل ، وعالم الأشياء المحسوسة ، وما كان بإمكانه أن يقبل الرأى القائل بأن المثل ليس إلا تعبيرا عن عنصر المعقولية في العالم الذى نعيش فيه .(٤) ولعل أفلاطون أراد من نظريته في المثل أن تكون نموذجا من الثبات والاستقرار ، وعدم التغير ، وذلك لعدة اعتبارات ، منها ما هو نظرى ، ومنها ما هو اجتماعي وسياسي .

ومن المرجح أن تكون هذه الأسباب مجتمعة هي التي دفعته لاتخاذ مواقف ضد التغير ، وضد المادة والحركة والصيرورة والى وضع عالم المثل في مرتبة أسمى من عالم الواقع المتغير .(٥)

وفي هذا السياق يكتب الدكتور طيب تيزيني ما يلي :

" إن كفاح أفلاطون ضد الاتجاه الفلسفي المادى تضمن نقطتين : الأولى ، نفى وجود حقيقي للعالم المادى . أما النقطة الثانية فهي إعلانه (الفكرة أو المفهوم)

---

(١) المرجع السابق ، نفس المعطيات السابقة ، الصفحة نفسها .
(٢) المرجع السابق ، نفس المعطيات السابقة ، ص : ١٤٨ .
(٣) المرجع السابق ، نفس المعطيات السابقة ، الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق ، نفس المعطيات المقدمة سابقا ، الصفحة نفسها .
(٥) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

كمبدأ وحيد أعلى ومطلق للوجود ، أى كمبدأ حقيقي وحيد "[1] مؤكدا على أن فلسفة أفلاطون في المثل ، جاءت كرد فعل مباشر ضد الفلسفة المادية .[2] وضد فلسفة ديمقريطس الذرية تخصيصا .

ومن الواضح أن فلسفة ديمقريطس المادية قد طرحت عدة مسائل كبرى ، وليس من شك في أن حلها يمثل إحدى المهمات الأساسية للتطور اللاحق في العلوم الطبيعية والفلسفة .[3] ولهذا ، لم يكن صدفة أن تلاقى آراء ديمقريطس الفلسفية هجوما عنيفا ،لا من قبل أفلاطون فحسب ، بل من المثاليين عامة ، وعلى مر العصور . ومهما يكن ،فقد بقيت المادية حتى القرن الخامس قبل الميلاد ، الاتجاه السائد على الفكر الفلسفي اليوناني ، مع أخذنا بعين الاعتبار ظهور بدايات مثالية لم تكن قد صيغت بعد في مذهب فلسفي متكامل ، وعلى يد أفلاطون ، تم انتقال المثالية لأول مرة إلى مستوى المذهب الفلسفي بالمعنى الشامل لكلمة مذهب . فطرحت نفسها كخط معارض للمادية .

وأصبح في الفلسفة اليونانية حينذاك قطبان ، أو خطان متعارضين كل التعارض المادية والمثالية .

وكان ديمقريطس من أبرز ممثلي الاتجاه الأول ،القائل بوجود لانهائي من الذرات ، أو الدقائق المادية التي تتألف منها الأشياء ،وبالفراغ ، وهو المجال الذى تتحرك فيه هذه الذرات ،وأن الأحاسيس عنده مصدر المعرفة وأساسها[4] ، ولكن ليست هي المصدر الوحيد ، فهناك الى جانب الاحاسيس ، العقل ، وبه ندرك الاشياء الدقيقة والمتناهية في الصغر ، التي تعجز حواسنا عن ادراكها . اما الاتجاه الثاني فيمثله افلاطون ، فهو على عكس ديمقريطس والماديين بشكل عام ، إنه يؤكد على أن اللاوجود هو المادة ، وأن الوجود الحقيقي هو المثل ، المفارق للمادة .[5]

---

(١) د . طيب تيزيني ، مشروع رؤية جديدة للفكر العربي الوسيط نفس المعطيات المقدمة سابقا ،ص : ٩٨ .

(٢) المرجع السابق ،نفس المعطيات السابقة ، ص : ٩٩ .

(٣) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ،نفس المعطيات السابقة ، ص : ٩٢ .

(٤) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٩٢ .

(٥) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها : ص : ٩٧ .

ووفق هذه النظرة ، فإن الأشياء الحسية ليست سوى ظلال باهتة للمثل ، وما كان بامكان المرء أن يعرف أكثر من تلك الظلال ،[1] أما ضوء الشمس التي يرمز بها إلى عالم المثل ،فلا تستطيع الحواس إدراكها ، ولكن ما السبيل إلى بلوغها ؟ وللوصول إلى هذه المثل - حسب رأى افلاطون - لابد من أن يتخلى المرء عن كل ما هو مادى حسي ، وأن يضع كفيه على أذنيه ،ويغمض عينيه ، ثم ينطوى على نفسه ،ويركن إلى عالمه الداخلي ،ويحاول أن يتذكر ما عرفته نفسه الخالدة في عالم المثل .[2]

فلما جاء أرسطو ،انتقد نظرية افلاطون في المثل باعتبار أن أفلاطون يفصل عالم المثل عن عالم الأشياء ، إذا كان الحال هكذا ، فكيف يتم التماس بين العالمين ؟ أو بالاحرى كيف يمكن للمثل أن تمنح أي وجود للأشياء ؟

ثم أن هذا الفصل بين العالمين ،عالم المثل ،وعالم المحسوسات ، يؤدى إلى استنتاج أخرق ، وهو أن هناك تشابه بين المثل والمحسوسات .[3] وإلى ما هنالك من انتقادات أخرى .

لكن أرسطو لم يمض في انتقاداته إلى نهايتها بحيث لم يصل إلى حد نفي القول المثالي بعلة مفارقة لاشياء العالم الحسي . ان الأشياء الملموسة ، برأيه وحدة تشمل المادة والصورة ،ولكن هذه الصورة مفارقة ،مجردة من أي مادة ، جاءت اليها من الخارج .[4] وهذا علاوة على رده الضعيف على مثالية أفلاطون حول أزلية الحركة .

ومع ذلك فإن مثالية أرسطو أكثر موضوعية من مثالية أفلاطون ، ذلك أن مثالية أفلاطون - كما شاهدنا - تعتبر الأشياء الحسية أشباحا وظلالا ، في حين أن فلسفة أرسطو الطبيعية تحديدا ، أقرب ما تكون إلى المادية .[5]

وهكذا رسمت نظرية أفلاطون في المعرفة ، باعتبارها تذكرا ، منطلقا للتعاليم المثالية القبلية اللاحقة ، القائلة بوجود معرفة فطرية في العقل ، سابقة على التجربة ،

---

(١) راجع أسطورة الكهف ،للدكتور احمد فؤاد الاهواني ،أفلاطون ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٨٤ .

(٢) جماعة من الاساتذة السوفييت ،موجز تاريخ الفلسفة ،الجزء الاول ،المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٩٨ .

(٣) المرجع السابق ،نفس المعطيات السابقة ، ص : ١٠٣ .

(٤) المرجع السابق ،نفس المعطيات المقدمة سابقا ،ص : ١٠٤ .

(٥) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٠٥ .

ومستقلة عنها.[١] كما هو الحال بالنسبة لديكارت ، ولا بينتز ،وسبينوزا بدرجة أقل .

ثم ظهر بالمقابل اتجاه آخر معاكس له تماما ، وهو الاتجاه المادى الحسي الذى يمثله كل من فرنسيس بيكون ، وهوبز ، وجون لوك ،الذى خص قسما هاما من بحثه - كما سنرى بعد قليل - في نقده لنظرية الأفكار الفطرية .

ومهما يكن من الأمر ، فإن نظرية أفلاطون في المثل أو الصور ، والتجاوء إلى الأسطورة لتفسير معرفة المثل ، فإنه لمن الصعب ،إن لم يكن من المستحيل أن نقبل بهذا التفسير ، وأن نعتقد بإمكان حدوث هذه الرؤية للمثل في حياة سابقة ، أو أن نقتنع بنظرية التذكر .

وتذكرنا أساطير اليونانية بالسوءال الذى طرح عن سبب عدم سقوط الأرض في المكان اللانهائي ،وكان الجواب على هذا السوءال ، هو أن عملاقا يسمى أطلس يحمل الكرة الأرضية على كتفيه .[٢] والمهم ،أن نظرية المثل هذه تقوم على أساس وجود عالم ثابت خالد ، هو العالم المعقول ،مقابل عالم الأشياء المحسوسة . هو عالم الصيرورة والتغير ، والفناء عالم الحركة وعدم الاستقرار . ويقابل هذه التفرقة بين عالم الوجود وعالم المثل ، تمايز في أشكال المعرفة ، عالم الوجود تقابله معرفة ظنية ، وعالم المثل تقابله معرفة علمية .[٣]

وان المثل تدرك بالحدس العقلي ، بعيدا كل البعد عن ادراكاتنا الحسية ، وعن العالم الخارجي ، في حين أن الأشياء المحسوسة تدرك بالظن ، بالمخيلة ، وهما لا يقدمان لنا أية معرفة حقيقية ويقينية . وتأتي الرياضيات لتتوسط بين المعرفة الظنية ، والمعرفة اليقينية التي تدرك بالتفكير ، وتحتوى موضوعاتها على شيء من الإحساسات كما تحتوى أيضا على شيء من المثل .[٤]

فلا بد أن تكون هناك رابطة وثيقة ومتأصلة بين هذه النزعة العقلية الصورية التي شملت فلسفة أفلاطون من ألفها إلى يائها ، وبين اهتمامه بالرياضيات ،كما هو الحال

---

(١) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٩٧ .

(٢) رايشنباخ ، نشأة الفلسفة العلمية ،ترجمة . د .فوءاد زكريا ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٣٣ .

(٣) جماعة من الاساتذة السوفييت ،موجز تاريخ الفلسفة ، الجزء الاول ، المعطيات السابقة نفسها ،ص : ٩٧ .

(٤) المرجع السابق ،نفس المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ٩٨ .

بالنسبة للفيثاغوريين ، فقد عنى أفلاطون بالرياضيات ، ووصل اهتمامه الى الحد الذى جعله يكتب على باب الأكاديمية هذه العبارة : " لا يدخل علينا من لم يعرف الرياضيات " فبمجرد ما أن افتتح الأكاديمية اشترط في دخولها أن يكون الطالب الذى يريد الانتساب اليها أن يكون عالما بالهندسة ، أو ملما بها على الأقل . (١) حتى اعتبرها البعض بأنها مدرسة رياضية . "

بركليس يكتب في هذا المجال ما نصه : " لقد دفع أفلاطون العلم الرياضي بوجه عام ، والهندسة بوجه خاص أشواطا من التقدم بسبب تحمسه لها ، وهذا واضح من الطريقة التي ملأ بها كتبه امثلة رياضية ، يسعى بها في كل مكان إلى اثارة ، الإعجاب بهذه العلوم ، في نفس طلاب الفلسفة " . (٢)

وقد أشار رايشنباخ من جهته الى أهمية الرياضيات عند أفلاطون ، بأنها أسمى صورة للمعرفة . (٣)

لكن يبدو أن هذا الحكم غير صحيح ، ذلك ، أن المعرفة الرياضية كما عرفها أفلاطون تتعلق بالفهم ، فهناك الى جانب هذه المعرفة ، معرفة أخرى ، أرقى من تلك التي في الرياضيات ، وهي معرفة حدسية ، غير استدلالية ولا برهانية ، تعتمد أول ما تعتمد على تعقل المثل . (٤) ولكن هذا لا يحد مطلقا من قيمة الرياضيات عنده . ولنر أفلاطون كيف يتحدث في محاورة الجمهورية عن علم الحساب ، يقول سقراط مخاطبا جلوكون : "إنه (أى علم الحساب) بحثا مشتركا يستعمل في جميع الفنون والعلوم ، وسائر ضروب التفكير ، وهو أول ما يجب على المرء أن يبدأ بتعلمه* . . . انه البحث ، الذى يميز

---

(١) د . فؤاد الاهواني - افلاطون ، المعطيات السابقة نفسها ص : ٦٢ .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٦٣ .
(٣) رايشنباخ - نشأة الفلسفة العلمية ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٣٨ .
(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، والصفحة نفسها .
* ملحوظة : كيف يمكن تفسير قول أفلاطون بأن خادم مينون استطاع أن يعرف طول ضلع المربع بالرغم من أنه لم يكن يعرف علم الهندسة ، وقوله بإن أول ما يجب على المرء أن يبدأ بتعلم ما هو علم الحساب ؟

الواحد والإثنين والثلاثة أعني العدد والحساب ، ألا يشترك بالضرورة كل فن وعلم في هذا البحث ؟ "(١)

ثم يضيف إلى ذلك : " يبدو أنه أحد العلوم التي نبحث عنها والتي تقودنا بالطبع إلى المعرفة الخالصة ، ولو أن أحدا لم يحسن بعد استخدامه ، أنه علم يرفعنا إلى الوجود "(٢) .

استنادا إلى هذا ، يتبين بوضوح اهتمام أفلاطون بالرياضيات وعلى وجه التخصيص علم الحساب ، فالواحد عنده أساس العدد ، والعدد متدرج بالمثال . ثم تطورت نظريته في المثل بمرور الوقت ، وأصبحت في أواخر حياته تعني اعدادا ، وهنا يقترب كثيرا من الفيثاغوريين .

ومجمل القول إن أفلاطون اهتم بالرياضيات ، لكونها العلم الذى يعطينا انموذجا للتفكير العقلي ، وفي هذا السبيل سار ديكارت ، والديكارتيون ، فالبداهة الرياضية هي الغاية التي كان ينشدها في فلسفته .(٣)

---

(١) د . فؤاد الأهواني ، أفلاطون المرجع السابق ، ص : ١٨٦ .
(٢) المرجع السابق ص : ١٨٨ .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٦٣ .

الفصل الثاني

المكانة الهامة التي تحتلها الأفكار الفطرية في نظرية المعرفة

عند العقليين : (ديكارت ، سبينوزا ، لايبنتز)

فقبل الحديث عن نقد جون لوك للأفكار الفطرية لابد أولا وقبل كل شيء من الوقوف عند أهم النقاط الدالة على هذه الأفكار في فلسفة كل من ديكارت وسبينوزا ولايبنتز. والأفكار الفطرية بشكل عام هي مفاهيم كامنة ومتأصلة في الذهن الإنساني ، ومستقلة عن التجربة الحسية ، وتتضمن المسلمات والبديهيات في الرياضيات والمنطق ، والمبادىء الأولية للفلسفة (١) .

وقد تبين لنا في الفصل السابق أن نظرية أفلاطون عن المعرفة باعتبارها تذكرا تشكل حجر الزاوية ونقطة الانطلاق للتعاليم المثالية القبلية واللاحقة ، والقائلة بوجود معرفة قبلية ، سابقة على كل تجربة .

وفق هذه النظرة اعتقد بعض الفلاسفة في العصر الحديث ، وبالأخص ديكارت ان الافكار الفطرية ميول واستعدادات للذهن (٢) .

من المعروف أن ديكارت اصطنع طريقة تضمن فيما يعتقد ، الوجود الحقيقي ، فوجد في الرياضيات ضالته ، فيرى أنه يمكن توظيفها في المنهج العلمي ، لكونها أي الرياضيات تتصف باليقين .

من الجدير بالذكر أن ديكارت كان يعتبر أن المعرفة الاحتمالية تنطوي على تناقض ، لهذا أكد على ما هو يقيني ثابت . ويقوم منهجه - كما أوضحنا سابقا - على عمليتين :

الحدس ، والاستنتاج ، فالحدس هو الرؤية العقلية المباشرة ، وبه ندرك المبادىء الرياضية والمنطقية كمبدأ عدم التناقض ، ومبدأ الذاتية ، كما ندرك بوساطته

---

(١) راجع مجموعة من العلماء السوفييت ، الموسوعة الفلسفية نفس المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ٤٠ .

(٢) المرجع السابق : المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

الطبائع البسيطة ، وهي الخصائص المجردة للطبيعة ، مثل الوجود ، والامتداد ، والحركة والزمان ،والمكان .. أما الاستنتاج فهو عملية عقلية تمكننا من استخلاص فكرة من أفكار أخرى يقينية . ولهذا المنهج أربع قواعد :

١- قاعدة البداهة .

٢- قاعدة التحليل .

٣- قاعدة التركيب .

٤- قاعدة الاحصاء .

وترجع امكانية بلوغ المعرفة - في نظر ديكارت - إلى وجود أفكار فطرية في الذهن تأتي في مقدمتها البديهيات Axioms لكن ينبغي الأخذ بعين الاعتبار أن هذه الأفكار ،وهذه الحقائق - حسب ديكارت - ليست جاهزة مكتملة ، بل انها استعداد العقل لتقبل هذه المبادئ ، وهذه المسلمات .(١)

لنحاول الآن فحص كل قاعدة على حدة ،واستشفاف ما يمكن استشفافه من أفكار فطرية ،ومدى أهميتها عند ديكارت .

١- القاعدة الأولى تقول : " أن لا أتلقى على الإطلاق أي شيء على أنه حق ما لم أدرك بالبداهة أنه كذلك . بمعنى أن أتجنب التسرع والتشبث بالأحكام السابقة ،وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل لعقلي في وضوح وتمييز ولا يكون لدي معهما أي مجال لوضعه موضع الشك " .(٢)

تؤكد هذه القاعدة - كما هو واضح - على شيئين اثنين هما السبب في كثير من الأخطاء .

الأول : التسرع والتعجل في الحكم ،أي اصدار الأحكام من غير تروٍ ،ومن دون التحقق والتثبت منه قبل أن يصل الذهن فيه إلى بداهة تامة .

والشيء الثاني : التشبث بالأحكام السابقة التي تلقيناها في الماضي ، والتي قال بها الآخرون ،من غير أن ننعم النظر فيما إذا كانت على صواب أم خطأ ؟ وظلت

---

(١) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ص : ٢٥ .

2-Descartes,Discours de la methode,par:J.M.Fataud,P:72

عالقة وراسخة في أذهاننا ، ونتيجة لذلك ، يوصي ديكارت بتجنب هذين الأمرين ، لأنهما مصدر الأخطاء والأوهام .

وتؤكد هذه القاعدة من جانب آخر على عدم الانحناء والخضوع لأية سلطة كانت ، وأيا كان مصدرها ، إلا لسلطة العقل والبداهة .

البداهة - حسب ديكارت - هي البداهة العقلية المجردة ، لا علاقة لها بالأشياء المحسوسة ، فإذا أردنا مثلا : أن نحكم على أمر ما بأنه حق ، وجب علينا أن نتبين ذلك ببداهة عقولنا ، لا بحواسنا ، ولا على آراء الآخرين . إذ لا يجوز ، على سبيل الافتراض - اقرار الحقائق التي اثبتها أرسطو ، أو أي مفكر آخر ، بل يجب أن تكون المسألة التي نقوم ببحثها وتحليلها ماثلة في أذهاننا بوضوح تام ، فليس أمامنا إذن إلا سبيلا واحدا ، وهو العقل ، أو كما يسميه ديكارت النور الطبيعي أو الفطرى .

وفوق كل هذا ، أن في القاعدة إشارة إلى معيار اليقين المتمثل في بداهة المعاني والأفكار . فالمعنى لا يكون بديهيا إلا إذا كان واضحا متميزا . ولكن ماذا يقصد ديكارت بالوضوح والتمييز ؟ أو بالأحرى بالفكرة الواضحة والمتميزة ؟

الفكرة الواضحة Idée claire : وهي الفكرة الحاضرة المتجلية لذهن منتبه ، ويقابلها الفكرة الغامضة (١)

اما الفكرة المتميزة Idée distincte : فهي الفكرة التي بلغ من وضوحها واختلافها عن كل ماعداها ، انها لا تحتوى في ذاتها إلا ما يبدو بجلاء لمن ينظر فيها كما ينبغي ، ويقابلها الفكرة المبهمة (٢) Idée confuse.

وفي هذا السياق يمكن استخلاص الحقائق التالية :

١- اهتمام ديكارت بالبداهة باعتبارها المحور الرئيسي ، ونقطة الانطلاق للوصول الى الحقيقة ، وهذه الحقيقة ليست وقفا على أحد دون الآخر ، بل هي عامة ، وفي متناول يد الجميع ، غير أن الحقيقة - في نظر ديكارت - لا تكتسب عن طريق الخبرة أو التجربة ، لانها سابقة عليها ، وموجودة فينا بالفطرة ، بل أنها تظهر من حين لآخر بطريقة

---

(١) ديكارت ، مبادىء الفلسفة ، ترجمة : د . عثمان امين ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٤٥ .

(٢) المرجع السابق ، نفس المعطيات المقدمة سابقا ، الصفحة نفسها .

عفوية ، ودفعة واحدة ، فما علينا إلا أن نتعهد بذورها بالذوق السليم فننتزعها انتزاعا من ذهننا ، ثم نقوم بتسويتها بميزان العقل .[1] البداهة المقصودة هنا ، ليست بداهة الحسيات أو الخيالات ، وانما البداهة العقلية والرياضية .

ديكارت رفض الأفكار غير الواضحة ، فيعتقد أن فكرة (الله موجود) - هي فكرة أولية فطرية تعادل في البداهة الواضحة المتميزة المسألة الرياضية القائلة : " مجموع زوايا المثلث يساوى قائمتين " . بينما يرى في البداهة الحسية عدم الثبات والاستقرار . فهي دائمة التغير والتحول كما وكيفا ، لأنها وليدة الجسم ، والجسم خاضع للتغير باستمرار .

وبالرغم من أن ديكارت كان ماديا في علم نشوء الكون وتطوره ، وفي الفيزياء ، وفي العلوم الطبيعية بشكل عام ، لكننا نجده في هذا الموضع يقلل من قيمة المادة وأهميتها ، وفي الطرف الآخر يعلى من شأن العقل وقدرته على الوصول إلى اليقين ، إنه كما أشار ماركس يفصل فصلا تاما بين فيزيائه وميتافيزيقاه ، فاذا كان ماديا في العلوم الفيزيائية ، كان مثاليا في نظرية المعرفة .[2]

لهذا يرى أن بداهة الحسيات لا تصلح أن تقودنا إلى الحقيقة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان ، شأنها في ذلك شأن بداهة الخيالات ، فهي خادعة لأنها وليدة الجسم أيضا . وقد يتبادر للذهن هذا السؤال : كيف يميز ديكارت بين التخيل والتذهن ؟ التخيل اتجاه من النفس نحو الأشياء المادية ، بينما التذهن اتجاه من النفس نحو الأفكار المجردة ، مثلا : حينما أتخيل مثلثا ما ، لا يقتصر الامر هنا على أن أتذهن هذا الشكل أو ذاك بصورة مجردة ، كشكل ذى ثلاثة أضلاع فحسب ، لكن يضاف إلى هذا نشاط آخر من النفس ، ألا وهو التخيل الذى يجسم لنا الشكل بصورة عيانية وملموسة ، وكأنه ماثل أمام اعيننا ، فالتخيل إذن معاينة .[3]

أما عندما نفكر في شكل ذى ألف ضلع فاننا نتذهن هذا الشكل الهندسي بالسهولة نفسها التي تذهنا بها المثلث المؤلف من ثلاثة اضلاع .[4]

---

(١) د . كمال الحاج ، مدخل الى فلسفة ديكارت ، الطبعة الاولى ، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦١ ، ص : ٣٢ .

(٢) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٤٦ .

(٣) د . كمال الحاج - مدخل الى فلسفة ديكارت ، المعطيات السابقة نفسها ، ص ٣٥

(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٣٦ .

* Descartes, Discours de la methode, Ibid: p, 45

فالذهنيات بهذا المعنى تتجرد من كل شيء حسي مادى ، في حين أن التخيل تمريخ - إن جاز هذا القول - في المادة . والتذهن هو نظر النفس مباشرة إلى ما تفكر به دون المادة ، وهو ناتج عن اتصال النفس بالنفس ، أما التخيل فهو ناتج عن اتصال النفس بالمادة بالجسم بالأشياء المحسوسة .

وجملة القول : إن البداهة الذهنية عند ديكارت هي كشف باطني داخلي في الذهن ، أو بمعنى آخر ، إدراك مباشر للعقل بلغ من القوة درجة لا يقبل معها أى شك على الاطلاق .(١)

وهذا الادراك العقلي المباشر يطلق عليه ديكارت - كما رأينا - "النور الفطرى" ، والعقل في كل نفس بشرية هو منبع ومصدر لكل المعارف ، يستمد ماهيته وجوهره من النفس ذاتها ، لقد وزع توزيعا عادلا بين الناس جميعا .(٢) ليس أحد أعقل من الآخر هذه العبارة في الحقيقة على جانب كبير من الأهمية ، لها قيمة كبرى ، خاصة في العصر الذى عاش فيه ديكارت ، والذى جاء عقب العصر الوسيط ، حيث كانت سلطة الكنيسة هي المهيمنة ، وقد احتكرت الثقافة باختلاف انواعها ومشاربها ، وكان من جراء ذلك أن أصبح العلم مقصورا فقط على فئة خاصة من الناس ، وهي فئة رجال الدين .(٣)

فالناس إذن في رأى ديكارت سواسية من ناحية قدرتهم وامكانيتهم على الفهم ، لكن من أين تأتي تلك الفروقات الفردية ؟ ورد ديكارت على هذا السؤال ، بأنها تكمن في مدى استخدام الإنسان لهذه القدرات ، والإمكانات العقلية .

والمهم أن ديكارت يؤكد على البداهة الذهنية ، وعلى الحقائق الأولية .

القاعدة الثانية : وتسمى بقاعدة التحليل وهذا نصها : " أن أقسم ما أمكنني التقسيم كل واحدة من المعضلات التي أبحثها إلى أجزاء بسيطة ، ولازمة لحلها على أحسن وجه "(٤) . في هذه القاعدة يحثنا ديكارت على تجزئة المسألة أو المعضلة التي

---

(١) المرجع السابق المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
2-Ibide,P:72

(٢) د . يحيى هويدى ، مقدمة في الفلسفة العامة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٢٩ .

نسعى لحلها إلى اقصى حد ممكن ، أي إلى أجزاء بسيطة إلى الحد الذى لا يمكن بسطها أكثر من ذلك ، ثم القيام بمعالجة كل جزء منها على حدة ، وحينذاك يمكن ادراكها ، وبالتالي ايجاد حل لها .

وليس من شك في أن قوة التحليل هذه مستمدة من قضية مسلم بها : "الكل يتألف من أجزائه ، بمعنى أن عناصره البسيطة متضمنة فيه ، والتحليل في هذه الحال يساعدنا على تلمس الطريق للوصول إلى طبائع الأشياء البسيطة ، ليسهل علينا بالنهاية ادراكها وفهمها بوضوح وتمييز .[1] فالمشكلة ، أي مشكلة ، مهما كانت ، تحتوى على مجهول ومعلوم . فالمجهول هو الجانب المخفي ، غير الواضح ، وللوصول إلى هذا المعلوم لابد من تحليل المجهول . لكن التحليل لا يتم بشكل اعتباطي ، وكيفما اتفق ، بل يتم وفق شروط معينة ، من أهمها التبويب والترتيب .[2]

ولا ريب في أن ديكارت قد أظهر براعة فائقة في تحليل الهندسات ، حتى استطاع أن يتبوأ - في هذا العلم بالذات - مكانة خاصة ، إذ تمكن من الاهتداء الى علم جديد وهو "الهندسة التحليلية" . غير أنه اعتبر الفلسفة أشد حاجة إلى التحليل من سواها ، لأنها - في نظره - أكثر العلوم قابلية لإثارة النقاش والجدل ، وللتضليل في احايين أخرى ، وربما كان ذلك هو السبب في اعتقاد ديكارت بأن الفلسفة تتسم بسمات الحذر والدراية والروية .

المهم في الأمر أن التحليل أمر ضرورى لحل أي مشكلة من المشكلات ، لهذا السبب يدعونا ديكارت بالقيام بعملية التحليل ، أي ارجاع المشكلة المراد حلها ، إلى أقل منها تركيبا ، وأكثر منها بساطة ، وهذه بدورها الى أبسط منها حتى نصل إلى المعاني البسيطة التي لا تقبل القسمة بعد ذلك ، التي ندركها بالحدس والاستنتاج .

٣- القاعدة الثالثة تتلخص في الآتي : " أن أقود أفكارى بنظام بادئا بأبسط الأمور وأسهلها معرفة ، كي ارتقي تدريجيا حتى أصل إلى معرفة أكثرها تركيبا ، وأن أفرض ترتيبا بين الأمور التي لا يسبق أبدا بعضها الآخر بالطبع ".[4]

---

(١) د . كمال الحاج ، مدخل الى فلسفة ديكارت ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٣٨ .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(4) Descartes, Discours de la méthode, Ibid: P: 74

من الواضح أن هذه القاعدة تستند في الأساس إلى التأليف والتركيب ، في الحقيقة أن التحليل والتركيب عمليتان متلازمتان ، الواحدة تكمل الأخرى ، فحل أي مشكلة يقتضي التحليل والتركيب معا ، فهناك بعض المفكرين يرون أن قاعدة التركيب هذه هي أساس المنهج الديكارتي .

هذا صحيح ، ولكن من جانب آخر ، يؤكد على مسألة الترتيب والتنظيم أيضا ، وهذا لا يعني أنه ينقص من أهمية التحليل . فالتحليل والتركيب إذن ، عمليتان مرتبطتان لا يمكن فصل الواحدة عن الأخرى ، فبالتحليل ننتقل من المعقد الى البسيط ، من الكل الى الجزء ، ومن العام الى الخاص .

وبالتركيب ننهج الطريق نفسه ، لكن في اتجاه معاكس ، ننتقل من البسيط الى المعقد ، ومن الجزء الى الكل وفق الترتيب المنطقي الذى تنظم فيه القضايا .(١)

ومعنى هذا أن الفكر يسير في اتجاهين اثنين للوصول إلى الحقيقة ، الاتجاه الأول هو الرجوع الى الوراء والعودة إلى الخلف بطرق التحليل ، والاتجاه الثاني : التقدم الى الأمام عن طريق التركيب .

ومعلوم أن الترتيب عند ديكارت على نوعين :

١- ترتيب عقلي .

٢- ترتيب شيئي .

والترتيب العقلي في تصوراته أصح وأكمل ، بينما النوع الثاني ، أى الترتيب الشيئي لا يمكن الاعتماد عليه ، لأنه عاجز عن أن يظهر لنا ما في الترتيب العقلي من روابط منطقية .

وانطلاقا من هذه النظرة نجد أن قوانين الطبيعية تنبثق كلها من العقل البشرى الذى يستطيع أن يحصل عليها بمجرد التأمل والنظر في ذاته .

٤- القاعدة الرابعة تؤكد على " أن أقوم في كل الأحوال باحصاءات كاملة ، ومراجعات عامة ، مما يجعلني على ثقة من أنني لم أهمل شيئا " .(٢) هذه القاعدة الاخيرة

---

(١) د . كمال يوسف الحاج ، مدخل الى فلسفة ديكارت ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٤٢ .

(2) Ibidem.

تدعو الى القيام باحصاءات ومراجعات شاملة ، حتى لا نغفل أي شيء يتصل بالمسألة التي نبحثها ، ونقوم بدراستها .

إذا كان الأمر المطلوب شيئا معينا ، في هذه الحال لابد من الإحاطة بجميع عناصر ذلك الشيء ، أما إذا كان الأمر يتصل بمسألة ما ، كان معنى الإحصاء هنا الإحاطة بجميع جوانب المسألة وشروطها .

وفي كلا الحالتين ، لابد من القيام بعملية الإحصاء لأن اهمال أي شرط من شروط المسألة أو جزء واحد من أجزاء الشيء سيفسد النتيجة .

هذه هي قواعد ديكارت الأربع التي استمدها كما هو معروف من الرياضيات ومن روحها . إنها تشكل بالتأكيد الحجر الأساسي ، واللبنة الأولى ، لا بالنسبة لمنهجه فحسب ، بل هي أساس لتفكيره الفلسفي بوجه عام . كما يتبين من خلالها مدى تمسك ديكارت بالمبادىء الأولية والقبلية .

ولنحاول الآن فهم هذه المبادىء ، وهذه الحقائق البسيطة الأولى التي تنطوي عليها هذه القواعد ، ومقالة الطريقة بشكل عام ، ولعل هذه المحاولة ، قد تساعدنا للوقوف على المكانة التي تحتلها تلك المبادىء ، وتلك الأفكار في نظرية المعرفة .

وامعان النظر في نصوص القواعد الواردة في مقالة الطريقة ، يؤدي إلى القول بأنها ليست إلا مقدمة استهلها ديكارت لتطبيق المنهج في العلم الرياضي ، وفي سائر العلوم الأخرى .[1] ويؤدي النظر فيها كذلك - وهذا هو الأهم في البحث - إلى الوقوف على الحقائق البسيطة والمبادىء العقلية الأولية . ومما لا شك فيه ، أن هذه المبادىء ، وهذه الأفكار ليست مستمدة من الخارج ، ولا مصطنعة ، بل إنها فطرية فينا ، قبلية ، أي سابقة على التجربة .

ويكتب نجيب بلدي في هذا المجال : "إذا استلهمنا روح مقالة الطريقة ، الفينا أن ديكارت لا يبحث عن موضوعات خارجة على النفس بعيدة الموطن عنها ، إنما عن مبادىء النفس ذاتها ، مبادىء أولى ، يقوم فيها اليقين النظري المطلق ، اليقين العاصم من الخطأ "[2] .

---

(١) د . نجيب بلدي - ديكارت ، نوابغ الفكر الغربي ، دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٥٩ ، ص : ٧٤ .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٨٨ .

وما السبيل إلى معرفة هذه المبادئ ؟ وليس من سبيل إلا الشك . الشك في كل ما لم يتصف باليقين التام والمطلق ، الشك فيما تعلمته في الماضي ، في الحواس ، في الخيال ، ألم يقل ديكارت ، إذ لو خدعتني هذه الأشياء مرة واحدة فما الذى يمنعها من أن تخدعني دائما وباستمرار .[1] علي إذن ، أن أتخذ الشك سبيلا للوصول إلى اليقين . فاذا تأملنا القاعدة الاولى ، نجد ديكارت يؤكد على مسألتين : الشك والبداهة ، اذ ان الشك - كما سبق القول - يهدينا إلى نقطة البداية فأنا أشك ، أعني أنا افكر ، فليس هناك من فرق ، بين كوني أشك ، وكوني أفكر . " افكر اذن انا موجود " هذه القضية صادقة بالضرورة لا تحتاج إلى برهان ، أدركها بالحدس ، انها واضحة ومتميزة ، انها من الوضوح والتمييز ، يستحيل أن أنكر صدقها .

ثم استنتج وجود النفس أو الانا وهو شيء يفكر ويشك ، ويتعقل ، ويثبت وينفي ، ويريد ، ويرفض ويتخيل . . ويبدو أنه هناك تماثلات ما بين أنا ، وبين تفكيرى ، أنا جوهر ، وأن لهذا الجوهر صفة لا تخرج عنه هي التفكير .[2]

والتفكير أبعد الأمور عن الاعراض ، والأشياء العرضية ، فتوقفي عن التفكير معناه التوقف عن الوجود ، ومعناه من ناحية أخرى أن الجوهر ، جوهر الأنا ليس مؤلفا من صورة ومادة ، ومن نفس وجسم .

فلا محل هنا للكلام عن الجسم أو المادة ، مادام اليقين عن النفس وحدها ، لا علاقة له اطلاقا بالجسم .[3]

يرى ديكارت ضرورة التمييز بين أنا الشيء ، أي الموجود الجوهرى ، وبين الفعل الذى أقوم به ، او الصفة المتعلقة بي . والجوهر عنده ، ليس له علاقة بشيء معين ، أو منسوبا اليه ، بل إنه الوجود المطلق ، في حين أن وجود الصفات وجود نسبي . والجوهر بهذا المعنى هو الوجود من حيث هو موجود .

إذا كان الجوهر على هذا النحو ، فما مهمة الصفات إذن ؟ صفة الجوهر هي التفكير ، والتفكير وحده القادر على أن يكشف عن وجودى الجوهرى ، أى عن جوهر

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٩٥ .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٩٦ .

النفس ، فعندما أقول : أنا أشك ، أنا أريد ، أنا أرغب . . . جميع هذه الأفعال ، أفعال تفكير ، ومن خلالها أستطيع ان أقر بأني موجود . وبناء على هذا تكون النفس جوهرا ، وصفته المميزة التفكير ، وبعبارة أخرى ، أن النفس جوهر مفكر ، لا تتضمن في ذاتها إلا وعيا وتفكيرا .

والمسألة الثانية التي أكد عليها ديكارت في هذه القاعدة : مسألة البداهة ، وهي إدراك الحقائق مباشرة ، وتقتصر على الحقائق الضرورية أي على الأفكار البسيطة والمبادىء الأولية ، وهذا ما تؤكد عليه القاعدة الثانية ، إذ تنص على التحليل للوصول إلى الطبائع البسيطة ، ففكرة الله ، والنفس ، والجوهر ، وكل ما شابه ذلك هو أفكار أولية ، لا يمكن إرجاعها إلى أفكار أبسط منها ، لذلك سميت بالطبائع البسيطة natures simples.

لنأخذ مثلا فكرة الله ، ان هذه الفكرة - حسب ديكارت - موجودة في نفوسنا ، مثلها مثل الأفكار الأخرى الواضحة بذاتها ، فهي فكرة موجود كامل لا متناه ، إنها تحتوى على كل ما نتصور من كمال ، إنها فكرة بسيطة لا مجال فيها لتأليف أو تركيب ، من حيث أنها تمثل موجودا واحدا حاصلا على جميع الكمالات ، فلا أستطيع أن أحذف منها شيئا ، أو أضيف عليها شيئا . هذه الفكرة ليست مكتسبة أو مستمدة من العالم الخارجي ، بل انها فطرية ، مستقلة عن كل تجربة ، وسابقة عليها ، فهي بسيطة ، والبسيط يدرك بالبداهة العقلية (١) .

يكتب ديكارت في هذا الصدد : " كثيرا ما يرهق العقل نفسه في البحث عن البداهة واليقين في العلوم الرياضية ، فيكون العلم الرياضي ذاته ، والعلوم الوضعية الأخرى ، بحاجة إلى ضمان أكبر من ضمان البداهة واليقين " (٢) .

فما هو هذا اليقين الذى يمكن أن يفوق الذات ، أو يعلو عليها ؟ يرى ديكارت أنه لابد من وجود حقيقة أزلية لا تتغير بتغير الزمان والمكان ، مهما إختلفت العلوم الانسانية وتباينت . وهذه الحقيقة هي فكرة الله ، هذه الفكرة ليست من صنعنا ،

---

(١) ادموند هوسرل - تأملات ديكارتية ، ترجمة الدكتورة نازلي اسماعيل حسن ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص : ١٠ .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

ولا هي من أثر العالم الخارجي فينا ،ولم تكتسب بشكل من الأشكال ، انها مفطورة في كل عقل انساني (١) .

وبالاستناد إلى ما سبق ذكره يمكن القول أن ديكارت يعتقد بوجود حقائق وأفكار فطرية في العقل ،مثل ما بينا من قبل ،وهي الأفكار التي انتقدها جون لوك بعنف كما سنرى ، كفكرة الله ، وحقيقة النفس "الكوجيتو" ، وهي الحقيقة الأولى التي عبر عنها بالقضية : " أفكر اذن أنا موجود " . تحمل في ذاتها علامة صدقها ، وصحتها ،فهي حقيقة عقلية ثابتة ،لا يمكن الشك فيها ، وحتى لو شك فيها ، فإن الشك في حد ذاته تفكير ،ويعني بالتالي وجود الذات المفكرة . هذه الحقيقة فطرية لأننا لم ندركها بالحواس ، أو عن طريق التجربة أو الخبرة ، ولم نبرهن عليها بالقياس ، بل أدركناها بنوع من الغريزة العقلية ، بالحدس ، بالنور الفطرى ، أو الحدس العقلي ،هذا فضلا عن المسلمات ، والبديهيات axiomes . كأن نقول مثلا : زوايا المثلث الثلاث تساوى قائمتين ،أو الكل أكبر من الجزء ،وما شابه ذلك على أنها (٢) واضحة حدسيا ،وصادقة صدقا قبليا .

وكذلك فيما يتعلق بالامتداد والحركة ، ومبادىء الأخلاق الأولى ، كالخير والشر وما شابههما .

من الجدير بالملاحظة ،أن مسألة الأفكار الفطرية ، قد أشكلت على معظم شراح ديكارت ، اعتقدوا أن ديكارت يؤمن بوجود أفكار فطرية ناجزة كاملة في النفس منذ الولادة . غير أن ديكارت يوضح هذا الأمر بقوله : " إن الأفكار الفطرية لا تأتي كاملة مع النفس ، وهي في البدء مجرد قابليات يحتاج الإنسان إلى التدريب فيما بعد ، كي تأخذ شكلا واضحا " . (٣) بمعنى أن فطرية هذه الحقائق لا تعني أنها جاهزة ، مكتملة ، بل تعني استعداد العقل لتقبل المبادىء والمسلمات لا أكثر . (٤) إن العقل لا الحواس هو المصدر الأساسي لكل صنوف المعرفة . وبذلك كان ديكارت من واضعي المذهب

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٢) مجموعة من العلماء السوفييت ، الموسوعة الفلسفية ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٧٧ .

(٣) د . يوسف كمال الحاج ،مدخل الى فلسفة ديكارت ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٨٠ .

(٤) جماعة من الاساتذة السوفييت . موجز تاريخ الفلسفة ، نفس المعطيات المقدمة سابقا ، ص : ٢٥ .

العقلي Rationnalisme الذى يعطى الأسبقية للعقل ، وعدم ارتباط الفكر بالمدركات الحسية .(١)

ولنا أن نناقش ديكارت :

آ- انه بدون شك زعيم المذهب العقلي ، ورائد من روادة ، فقد أراد اليقين عقليا ، طلب الوضوح بالتحليل ، واعادة التركيب ، شك في قدرات الانسان العقلية والحسية معا ، رفض القوالب الفكرية الجاهزة ضمن حدود فطرية غريزية للأفكار الأولية ، النفس ، الله ، والمطلق ، والامتداد ، وضمن اقامة ثنائية حادة بين مادة ولا مادة ، وكل هذا يؤلف حدود نظرية المعرفة عند ديكارت .

والنتيجة : حام ديكارت حول معرفة عقلية ، والوصول إلى اليقين العقلي ، وتكون نتيجته على نحو ما يلي :

١- اليقين عقلي .

٢- نتأكد منه بالفحص العقلي .

٣- العقل عام مشترك بين الجميع .

٤- مصدر اليقين .

ومصدر الصواب هو فكرتنا عن الكامل التي هي دليل على ضرورة اسبقية المطلق المجرد اللامتناهي على المادى الجزئي ، ويظل ديكارت عند هذا الحد افلاطونيا .

ب- مما يؤخذ على ديكارت أنه وصف الأفكار الواضحة المتميزة وصفا غامضا ، مع العلم أنه يؤكد على الوضوح والتمييز ، إذ أنه ترك هذا الموضوع معتمدا على قدرة العقل وحده ، لاكتشاف الحقيقة ، خارج الإحساس ، وخارج أي شيء يمت بصلة إلى المادة ، وإلى التجربة . وهذا يدل بوضوح وجلاء على ثقته التامة بالعقل ، وبمبادئه .

ونقرأ لدى ديكارت ما يلي : " وأنا أعلم أيضا أنه قد تمضي قرون عديدة قبل أن يتاح للناس أن يستخلصوا من هذه المبادئ جميع الحقائق التي يستطاع استخلاصها منها "(٢) .

ويلاحظ في ضوء العبارة السابقة ، أن ديكارت كان معتدا بنفسه إلى حد التطرف . وهذا خلاف ما قدم به نفسه في كتابه " مقالة الطريقة " ، أنه كان متواضعا

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٢) ديكارت ، مبادئ الفلسفة ، ترجمة : د . عثمان امين ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٤١ .

جدا ، فقد أشار إلى أن الطريقة التي انتهى إليها على الرغم من اعتقاده الجازم بيقينيتها ، من أنها الطريقة الوحيدة الصحيحة ، فبإمكان أي مفكر آخر الاهتداء اليها ، أو أن يبدع طريقة جديدة ، أصح منها وأضبط ، وأكثر من هذا أنه لم يلزم أحدا باتباعها .

بينما في كتابه " مبادئ الفلسفة " كما بينا ، الأمر اختلف ، فلهجته تغيرت تماما وبصورة ملحوظة ،إذ يتحدث وكأنه صاحب مذهب ، واثق من مبادئه ، وسلامة منهجه ، لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه . ولم يقف عند هذا الحد ، بل ذهب إلى أكثر من ذلك ، فنرى أنه ينصح الباحثين على أن ينحو منحاه ، وأن يسيروا في الطريق الذى رسمه لهم ، اعتقادا منه انه الطريق السليم والوحيد ، وهنا تبدو قطعية (دغماتية) ديكارت واضحة ، مع أنه صاحب شك منهجي .

جـ - ومن المآخذ الأخرى : إن ديكارت جعل الضامن الحقيقي لوضوح الأفكار وتميزها العناية الالهية ، ألا يمكن أن يكون هذا الضامن الذى يتحدث عنه ديكارت موضع نقاش عند الكثيرين ؟ أعتقد ذلك ، لأن بعض الناس لا يسلم بوجود الله ، والبعض الآخر قد يسلم بوجوده إلا أنه ينفي تدخل إرادة الله في وضوح أفكاره وتميزها .(١)

ومهما يكن من شيء ، فإن المرء لا يشك أبدا في قيمة ديكارت الفلسفية والعلمية ، فقد أعطت آراؤه الفيزيائية دفعا جديدا للمادية في العصر الحديث .(٢) وأن التحولات المنهجية التي شهدها القرن السادس عشر والسابع عشر ، في تاريخ الفكر ، كانت على يد ديكارت ،وبيكون ، ثم على يد لوك لاحقا .

ومما يجدر ذكره أن الفلسفة البرجوازية الرجعية المعاصرة تنظر إلى فلسفة ديكارت من جانب واحد ، أي من جانب مثاليته فقط ، كالتسليم بوجود الله (الأفكار الفطرية) . والماهية الروحية ، بينما الفكر العلمي التقدمي ،في الوقت الذى ينكر على ديكارت

---

(١) د . يحيى هويدى ، مقدمة في الفلسفة العامة ،المعطيات السابقة نفسها ،ص : ١٤١ .

(٢) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ص : ٢٤٧ .

مثاليته ، ينظر إليه كمفكر عبقرى ، عالم من أبرز علماء الرياضيات ، والفيزياء ، وأحد مبدعي الفهم المادى للطبيعة .(١)

وهذه صورة عامة عن فلسفة ديكارت ، ونظريته في الأفكار الفطرية .

وسأتناول بعد قليل ، فلسفة سبينوزا ، محاولا استخلاص ما فيها من أفكار فطرية .

سبينوزا - كما هو معروف - يحاول ، مثل ديكارت ، إقامة الفلسفة على دعائم من المبادىء اليقينية المطلقة ، مستندا في ذلك إلى الهندسة ، فيبدأ بالتعاريف ، وبالمسلمات ، ليبرهن بناء على ذلك ، على نظريته في الطبيعة والأخلاق .(٢)

سبينوزا يحاول - كما شاهدنا - إقامة فلسفة على أسس من المبادىء اليقينية ، وعلى هذا فقد اهتم بدراسة قضايا المنهج ، وذلك من اجل اكتشاف أكثر الوسائل عقلانية لبلوغ الحقيقة .(٣) ويكتب في هذا الصدد : " ينبغي لنا أن ندل على الطريق ، وعلى المنهج اللذين نصل بهما على هذا النحو إلى معرفة الأشياء التي ينبغي لنا أن نعرفها معرفة حقيقية " .(٤)

فكان أن وقع اختياره على المنهج الرياضي ، وبمعنى أدق ، على المنهج الهندسي ، لأسباب منها :

١- لأن الهندسة تبدأ بقضايا صادقة في بناء المعرفة التي ترمي إلى تحقيق سعادة الإنسان . وقد اعتبر اتباع سبينوزا ، أن اتخاذ هذا المنهج يعد بمثابة تحقيق لأمنية سبق أن أعرب عنها ديكارت ، ومهد لها السبيل بكشوفه العلمية ، وخاصة في ميدان الرياضة ، ومحاولته تطبيق المنهج الرياضي على الفلسفة .(٥)

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٥٢ .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة ، ص : ٢٥٩ .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٤) اندريه كريسون ، سبينوزا ، ترجمة : تيسير شيخ الارض ، دار الانوار ، بيروت الطبعة الاولى ، ١٩٦٦ ، ص : ١١٧ .
(٥) د . فؤاد زكريا ، سبينوزا ، الطبعة الثانية ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص : ٣٨ .

٢- إنه ، أي المنهج الهندسي ، أفضل وسيلة للتعبير عن الأفكار بدقة ، وبصورة محددة .

٣- يؤدي إلى تجنب الإسهاب والإطناب ، والأساليب البلاغية من تشبيهات واستعارات .

هذه بعض الدوافع والأسباب التي جعلت سبينوزا يعتنق المنهج الهندسي ، بوصفه طريقة أصيلة للتعبير . (١) فيبدأ بالتعاريف ، وبالمسلمات لبناء نظامه الفلسفي والأخلاقي ، فالمسلمات - في نظره - يقينية حدسية ، أما باقي الحقائق الأخرى ، فيجب أن تستنبط منطقيا من هذه التعاريف ، ومن هذه المسلمات .

فإذا كان ديكارت وجد في النفس أو الروح نقطة الانطلاق ، فإن سبينوزا ، وجد الطبيعة في مجموعها نقطة ابتداء ، انطلق منها لبناء المعرفة .

فأول خطوة يخطوها في معالجته الفلسفية ينطلق في اتجاهه من التسليم بوجود العالم الموضوعي الخارجي ، وهذا ما ذهب إليه جون لوك فيما بعد ، على حين خلقت هذه البداية لديكارت صعوبات لا حد لها فيما يتصل بإثبات وجود العالم الخارجي ، ثم ايضاح العلاقة بين النفس والجسم ، بين الفكر والامتداد ، وسبينوزا تخلص من كل هذه الاشكالات ، ولم يكن يشك مطلقا في وجوده .

وأما ديكارت - كما بينا - يكرس موقفه الفلسفي ثنائية وازدواجية الفلسفية ، حيث أنه في الفيزياء ينطلق من الطبيعة ، من المادة ، وفي الميتافيزيقا ينطلق من الذات ومن الروح ، كل منهما قائم بذاته ، ولا شك أن هذا الفصل بين المادة والروح كان له تأثير سلبي على فلسفة ديكارت .

سبينوزا يرفض هذا الموقف ، والخطوة التي يخطوها في مساره الهادف لتجاوز فلسفة ديكارت هو أنه يرمي ثنائيته جانبا ، ويستبدلها بالأحادية أو الواحدية (٢) ، أي أنه قال بوحدة الوجود* ، الله والطبيعة شيء واحد . في العالم جوهر واحد ،

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٢) الواحدية : monisme : هي المذهب القائل ان الموضوع وفكرته شيء واحد ، (راجع هنترميد قائمة المصطلحات ، الفلسفة انواعها ومشكلاتها ترجمة : د . فؤاد زكريا ، المعطيات السابقة نفسها ص : ٤٢٩ .

* وحدة الوجود : pantheisme ، مذهب يطابق بين الله والطبيعة (راجع موجز تاريخ الفلسفة - الجزء الاول ص : ٦٠) .

واحد فقط هو الطبيعة التي هي علة بذاتها ، أي لا تحتاج في وجودها إلى شيء آخر يوجدها .[1] ومن هذا المنطلق يبنى سبينوزا آراءه المادية ، هذه الطبيعة ، طبيعة طابعة ، أي فاعلة ، وخالقة ، والتي بفضلها يشكل العالم ذاته بذاته ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، أنها طبيعة مطبوعة أي مخلوقة .[2] والطبيعة بهذا المعنى هي العلة والمعلول ، الماهية والوجود . فهي بالتالي خالدة لا نهائية .

من المعروف أن سبينوزا وقف ضد ما يسمى بالكائنات الخارقة ، وضد غائية الوجود . وبصدد انكاره لغائية الوجود يكتب : " لسنا بحاجة إلى أحاديث مطولة ونبين الآن أن الطبيعة لا تسعى إلى غاية محددة لها من قبل ، وأن جميع العلل الغائية ليست شيئا آخر غير أوهام يحملها الناس في رؤوسهم ".[3] ثم يؤكد : " إن جميع ما في الطبيعة يحدث بضرورة خالدة ، وكمال أعلى ، وأن الاعتقاد بالغائية يقلب الطبيعة رأسا على عقب ، وذلك لأنه يرى نتيجة ما هو سبب في الحقيقة والعكس بالعكس ".[4]

ومضى إلى القول : " فقد اعتقدوا إذن اعتقادا راسخا أن في الأشياء نظاما ، وذلك لما هم فيه من جهة بطبيعة الأشياء ، وبطبيعتهم هم أنفسهم ".[5]

فمعارضة سبينوزا لفكرة الغائية واضحة لا لبس فيها . فالطبيعة غير هادفة ، ذلك لأن الكائن الخالد الذى نسميه الله او الطبيعة ينشط بتلك الضرورة نفسها ، الطبيعة توجد لا لغاية معينة ، وتنشط ليس لغرض أو هدف معين . لا من إرادة في الطبيعة ، فالله إذن مفهوم كطبيعة ، لا يفعل على أساس ارادة ، ولا لأجل غاية أو هدف ، شيء يسترعي الاهتمام حقا أن يقوم سبينوزا بانتقاد النظرة الغائية ، وكافة المواقف الوهمية للطبيعة . والطبيعة - كما سبق القول - لا تسلك سلوكا إراديا ، أو غائيا ، لهذا السبب فقط ، لا من خير ولا من شر في الطبيعة ، ولا من نظام فيها ، ولا من فوضى ، ولا من جمال ولا من قبح . فمن الخطأ في تصورات سبينوزا أن نطرح هذا السؤال ، لأية غاية توجد الأشياء ؟ بل السؤال الصحيح في نظره ، وهو السؤال

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٣) اندريه كريسون ، سبينوزا ، ترجمة تيسير شيخ الأرض ، المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٣٣ .
(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٥)

الوحيد الذى يطرح في هذا الشأن هو الاتي : لماذا توجد هذه الأشياء كما هي في الواقع ؟ ونفهم من هذا أن المبدأ الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه هو مبدأ السببية ، القائل إن أي حادث في الكون تحكمه علاقة السبب والمسبب ، أو العلة والمعلول . وأن أي شيء لا يمكن أن يحدث دون سبب أو علة .

هذا هو القانون الأساسي لنظام الكون ، فاسبينوزا يظهر أمامنا حتميا متطرفا ، لكن في حقيقة الأمر ، أنه ينطلق في فهمه للحرية من الإقرار بالحتمية الطبيعية من جهة ، ومن القول بالحرية الانسانية من جهة أخرى ، وذلك ضمن إطار هذه الحتمية ، بحيث لا تتعارض معها (١) .

ويحل هذا الإشكال انطلاقا من مذهبه في الطبيعة ، فالعالم جوهر واحد هو الطبيعة التي هي علة ذاتها ومقوم لذاتها (٢) .

وسبينوزا - كما هو معروف - يرفض حركة الكل ، إلا أنه يفهم حركة الأجزاء في الطبيعة فهما ميكانيكيا خالصا ، كما كان الحال بالنسبة لديكارت .

ومن المعلوم أن الاعتراف بالحركة على أنها الصفة المميزة الأساسية للمادة ، هو نقطة مضيئة ، ولا شك ، بالنسبة للمادية ما قبل الماركسية ، كذلك أن الفهم المادى للحركة كان على صلة وثيقة بالفكر العلمي ، لكن المحدودية للمادية الفلسفية في ذلك العصر ، كانت تكمن في نظرتها الضيقة ، والوحيدة الطرف لقوانين الحركة الجارية في العالم الموضوعي (٣) .

المعرفة عند سبينوزا :

يبين سبينوزا أربعة اساليب أو طرق يمكن بوساطتها الحصول على المعرفة ، وهذه الأساليب هي :

١- طريقة الحصول على المعرفة بوساطة السمع أو النظر ، أو أي سبيل عشوائي آخر ، وتتمثل لنا فيها الأشياء جزئية مختلطة ، لا ترتيب فيها ، مثل معرفتي لتاريخ ميلادى ، ووالدى ، وما شابه ذلك .

٢- الأسلوب الثاني : يتلخص في الحصول على المعارف عبر التجربة غير المنتظمة

---

(١) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٥٩ .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٣) زاموشكين ، وسولوفيوف ، الفلسفة والعملية الثورية ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٩٨ .

الفاضة ، والتي لم يختبرها العقل بعد ، أي القائمة على التجربة التي لم تحدد أبعادها من قبل العقل .

وتقوم على الملاحظة على نحو قصدي وعابر ، وليس على شكل هدف مقصود .

٣- السبيل الثالث : يتجسد - حسب تصورات سبينوزا بطريقة الحكم على جوهر شيء ما بوساطة شيء آخر ، أي المعرفة الناشئة من الإستدلال على ماهية شيء من ماهية شيء آخر . لكن هذا السبيل ليس بكاف ، إذ أنه لا يتسم بالدقة والموثوقية التامين .(١)

والمثل على ذلك : الحكم على سبب ما بوساطة إحدى نتائجه .

٤- الأسلوب الرابع : وهو ذلك الذي يتلخص في الحصول على المعارف بوساطة استيعاب الشيء عبر جوهره الذاتي ، وبوساطة هذا الجوهر ، وهو الأسلوب الذي يؤدي إلى فهم الجوهر عبر ذاته .

سبينوزا يدرس قيمة هذه الطرق الأربع على الشكل الآتي :

١- الأسلوب الأول مهمل من قبله ، ذلك لأنه بعيد عن العلم ، وهذا الأسلوب يبعدنا عن فهم الجوهر بدلا من أن يقربنا إلى فهمه . والمعرفة التي نحصل عليها من خلاله ، فهي متفرقة مهلهلة ،(٢) وأصل اعتقادنا بها وبأمثالها ، أننا لم نصادف ظواهر معارضة لها ، ودون أن يكون لدينا ما يثبت لنا عدم وجود مثل هذه الظواهر .

٢- الأسلوب الثاني في نظر الفيلسوف غير مجد في مجال المعرفة العلمية الحقة ، ذلك أن التجربة غير المنتظمة ذات طبيعة صدفية عابرة ، بهذا السبب لا يمكن أن تكون سبيلا لفهم الجوهر ، ذو الطبيعة الضرورية الأزلية الثابتة .

٣- الأسلوب الثالث : وهو الطريق الذي نعرف من خلاله السبب من النتيجة ، هذا الأسلوب بالرغم من أنه ينطوي على نواقص واضحة ، لكنه ممكن اعتماده في العلم ، غير أنه لا يعطينا دائما معرفة صحيحة ، ذلك لأننا من خلاله لا نستوعب الصفات مباشرة من الجوهر ذاته ، لهذا السبب نجد أنفسنا عاجزين عن مقارنة هذه الصفات بجوهر الموصوف حامل هذه الصفات .

---

(١) راجع ، كتاب سبينوزا للدكتور فؤاد زكريا ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٦٩

(٢) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص : ١٠٩ .

وآن سبينوزا على الرغم من أنه يلاحظ التمايز الواضح بين المظهر والجوهر ، والنتيجة والسبب ، ويحاول آن يتحسس التقارب بينها ، ويوضح بالتالي الجوانب الديالكتيكية في نظرته ، رغم كل هذا ، فإن الشيء الذى يمكن أن يؤخذ عليه ، هو فهمه للجوهر على أنه ثابت لا يتغير .

٤- الأسلوب الرابع : وهو الأسلوب الوحيد الذى يفي بالغرض المطلوب، وبشكل تام ، إذ يقدم لنا معرفة شاملة متكاملة ، أي معرفة للجوهر بشكل متكامل ، ومضبوط . لأجل هذا نجد سبينوزا يسمى هذا الأسلوب بالأسلوب العلمي القويم ، أو الطريقة الحدسية .

ومن الجدير بالإشارة هنا ، أنه لا ينبغي آن تفهم حدسية سبينوزا ، على أنها حدسية صوفية ، كما ذهب إلى ذلك بعض شراحه ، الذين وجدوا في الأسلوب الأخير ، مجالا واسعا للتفسيرات الصوفية ، ولن شئنا المزيد من الإيضاح حول هذه المسألة نقرأ لدى فؤاد زكريا ما يلي :

" ففي رأينا آن من أكبر الأخطاء التي يمكن أن يقع فيها الباحث في فلسفة سبينوزا أن يرى في فكرته عن المعرفة الحدسية مظهر الاتجاه الى تجاوز العقل ، واقتحام ذلك الميدان فوق العقلي الذى لا تكون له من نتيجة إلا التصوف " (١) .

ويعلل موقفه هذا على النحو التالي : " ذلك لأن النوع الأخير من المعرفة (المعرفة الحدسية) يرتبط ارتباطا وثيقا بالنوع الذى قبله ، أي أن المعرفة الحدسية ترتبط بالعقلية وتنشأ منها ، بحيث تبدو في واقع الأمر تكملة وتتويجا لها " (٢) ، وينتهي إلى القول : " هذا الحديث عن العقل ، وتأكيد أهميته بالنسبة إلى المعرفة الحدسية ذاتها ، ليس حديث متصوف على الإطلاق " (٣) .

حقا ، ان حدسية سبينوزا ليست صوفية ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، بل إنها حدسية عقلية ، وهي أشبه ما تكون بحدسية ديكارت .

إنها تدرك الشيء بماهيته أو بعلته القريبة ، أو على الأصح فهي فهم نظرى لجوهر الشيء على أساس فهم ماهية هذا الجوهر ، ويتضح هذا بشكل جلي في تمييزه

---

(١) د . فؤاد زكريا ، سبينوزا ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٧٢ .
(٢) المرجع السابق : المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

بين فكرة الحقيقة ،والفكرة المطابقة* Idée adequate.

أما الفكرة الحقيقية فهي الفكرة التي تتفق مع موضوعها ، أو بالأحرى التي ينبغي لها أن تتفق مع الموضوع الذى هي فكرة له .(١)

هذا في حين أن الفكرة المطابقة تنطوى في ذاتها ، وفي ماهيتها على مؤشر الحقيقة ،تتضمن في ثنايا وجودها موثوقية واضحة ، لذلك فهي ليست بحاجة إلى أي اختبار للتوثق من صحتها ، يعرفها سبينوزا بقوله : " أعني بالفكرة المطابقة فكرة إذا ما نظر إليها في ذاتها ، دون اضافة إلى الموضوع كانت لها خصائص الفكرة الصحيحة أو مميزاتها الباطنية " .(٢) يبدو أن سبينوزا يضع معيارا نفسيا باطنيا ، هو أشبه بوضوح الأفكار وتميزها عند ديكارت .(٣) وفي مثل هذه الحال ،كيف يظهر الخطأ ،أو بصيغة أخرى ، كيف تظهر المعارف المغلوطة ؟

وأن السبب لأغاليطنا -كما يرى سبينوزا - ترجع إلى محاولة تصور الجوهر على أنه شيء مجسم ،وعند محاولتنا لإدراك الجوهر حسيا سنقع في أغاليطه ، لأن من مقومات الجوهر الأساسية هي واقع غير محسوس ، بل معقول ، لا يمكن أن يدرك إلا بالعقل ، كافة صفات الجوهر بناء على ذلك لا يمكن أن تستخلص تجريبيا ، بل تستخلص عن طريق الحدس ، أي بشكل مباشر ، عن ماهية الجوهر ، عن طبيعته الداخلية . إذن الحقائق التي نكونها عن الجوهر تنطوى تحت الأفكار المطابقة ،الأفكار المستنبطة بصورة مباشرة عن جوهر الشيء ،ومتى تكون بحاجة إلى التجربة ؟ يجيب سبينوزا : عندما نحاول أن نفهم الشيء ليس بطبيعته الداخلية ، بل بوساطة الغير .

ويتجدد السؤال مرة أخرى : ما هي الظواهر التي توجد عبر الغير؟ وتفهم عبر الغير ؟ ان هذه الظواهر في فلسفة سبينوزا ما هي إلا أحوال للجوهر ،التجربة تصبح وسيلة لفهم هذه الأحوال .

مما تقدم ،من الصعب على المرء أن يخرج بنتيجة واضحة ومحددة ، لكن نقول مع ذلك أن نظرية المعرفة عند سبينوزا تتسم بطابعها المادى والعقلاني في آن معا .(٤)

---

* الدكتور فؤاد زكريا ، يفضل ترجمة adequate الى لفظ الكافية بدلا من المطابقة (راجع لمطا كتابه "سبينوزا" المعطيات السابقة نفسها ،ص : ٦٩)

(١) أندريه كريسون ،سبينوزا ،ترجمة ،تيسير شيخ الارض ، المعطيات السابقة نفسها ص : ١٢٣ .

(٢) د . فؤاد زكريا ، سبينوزا المعطيات السابقة نفسها ،ص : ٦٩ .

(٣) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها ،ص : ٧٠ .

(٤) جماعة من الاساتذة السوفييت ،موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٦٤ .

وقد عبر سليفان بوضوح عن هذه الثنائية بقوله : " . . . إن جميع التناقضات المتنعة البادية في تفكير سبينوزا إنما هي تعبيرات كثيرة عن تناقض واحد ، فاسبينوزا مادى ومثالي ، ومؤمن بالطبيعة ومما ورائي في آن واحد . وسبب هذا الاتجاه المزدوج لديه لا يعدو أن يكون ذلك الطابع الموزع لذهنه ، الذى كانت تجتذبه النظرة الدينية التقليدية إلى الإنسان وإلى الله ، وهي النظرة التي ورثها من مجموعة كبيرة من الأسلاف اليونانيين ، والرومان ، واليهود ، والمسيحيين ، وتجتذبه في الآن نفسه ، وبقوة متساوية ، المذاهب الطبيعية الميكانيكية كمذهب ديمقريطس وهوبز " (١) .

فاذا تأملنا أنواع المعرفة المذكورة يتبين لنا أن سبينوزا يضع المعرفة القائمة على التخيل والتصور ، والقائمة على الإدراك الحسي للعالم الخارجي في المرتبة الأدنى ، وذلك قياسا إلى الأنواع الأخرى القائمة على العقل (٢) .

فجوهر الأشياء لا يمكن أن يدرك إلا نظريا بحتا .

وعلى هذا الأساس يبقى سبينوزا فيلسوفا عقلانيا في المحل الأول ، فالطريقة الحدسية العقلانية هي الطريقة الأقوم للمعرفة ، فبالرغم من اعترافه بالتجربة ، يبقى النشاط النظرى هو الأهم عنده ، فهي يبقى التجربة الحسية في الظل ليرفع من قيمة العقل ، لأن المعرفة الحسية لديه - كما شاهدنا - عشوائية ، غير منتظمة ، بينما المعرفة العقلية الحدسية ، هي الأساس ، ومصدر للمعرفة الحقة ، منها نستنتج الحقائق اليقينية مباشرة (٣) .

ولعل السبب الذى جعل سبينوزا يفصل بين نوعي المعرفة : الحسية والعقلية ، راجع إلى عدم استيعابه لدور التجربة والممارسة في عملية المعرفة على نحو أفضل ، لو استطاع ذلك ، لما بالغ في هذا الفصل ، ولأدرك بالتالي أن التجربة والممارسة هي بالذات ما يمنح بعض طابعها الحدس ، (أى كونها حقائق تدرك مباشرة بالعقل ، غير أن هذا الفهم لدور التجربة كان بعيدا عن تفكيره (٤) .

فبخصوص معيار صدق الحقيقة يقف الفيلسوف موقفا عقلانيا صرفا ، فاعلاؤه من

---

(١) د . فؤاد زكريا ، سبينوزا ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٦٧ .
(٢) موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

شأن المعرفة الحدسية ، ما هو إلا تعبير بطريقة اخرى من طرق استخدام العقل تختلف عن الطريقة الاستدلالية ، ولم يكن ذلك ناشئا عن وجود نزعة صوفية لديه .(١)

وكما هو واضح ، أن سبينوزا يهمل التجربة ، لكن دون اهمالها بشكل كلي ، هذا يعني أن سبينوزا - إن صح هذا التعبير - يضيق الحدود على التجربة ، بدلا من أن يفسح لها المجال أكثر ، فهو يرى أن الحقيقة تتجسد خارج التجربة . ولهذا تصبح التجربة طريقا لفهم الأجزاء الفردية والمتناهية فحسب .

يبدو من خلال الشرح المتقدم أن سبينوزا في المجال المعرفي أبقى على التناقض بين الجوهر وأحواله ، حيث أن الجوهر - كما رأينا - يتكشف للعقل فقط ، أما أحواله فتظهر في الإحساسات ، وتفهم عبرها ، والتجربة ذات قيمة أساسية بالنسبة للأحوال ، ولكنها تفقد قيمتها في معرفة الجوهر ، وصفاته ، هذا التعارض بين العقل والحواس الذى هو انعكاس للتعارض بين الجوهر وأحواله ، يؤدى في آخر المطاف إلى ميل سبينوزا إلى أن الأفكار الحقيقية تظهر في وعي الإنسان بشكل مباشر ، وتلقائي ، ووعي الإنسان يقوم باستيعاب الرابطة الداخلية للأشياء بضربة واحدة ، وليس كعملية ، وكسيرة طويلة وشاقة للمعرفة التغيرة . وفي هذا يتلخص مضمون الطريقة الحدسية لدى سبينوزا . وفي هذا يطرح السؤال التالي : إن كان الأمر كذلك لماذا لا يستطيع الناس ، أو السواد الأعظم منهم إدراك الجوهر بسهولة ، وبلاصعوبات ؟ يجيب سبينوزا على هذا السؤال ، لأن العقل الإنساني مملوء بتصورات خاطئة عن الجوهر ، فبدون تطهير العقل من هذه التصورات ، لا يمكن للعقل أن يشيع ، أو يضيء لنا الحقيقة . هنا نجد سبينوزا يقترب كثيرا من فرنسيس بيكون ، بشأن أصنام أو أوهام العقل ، والأوهام على نحو ما يفهمها بيكون هي مفاهيم باطلة تغلغلت في أعماق العقل البشرى ، التي يجب التحرر منها للوصول إلى الحقيقة .(٢)

بيد أن سبينوزا يختلف معه في جوانب أخرى ، ففرنسيس بيكون - كما بينا سابقا - حسي تجريبي ، كما هو الحال بالنسبة لجون لوك ، بينما سبينوزا عقلاني حدسي ، ومن ناحية أخرى أن سبينوزا لم يكن يشك اطلاقا كما أوضحنا ، في وجود العالم

---

(١) د . فؤاد زكريا ، سبينوزا ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٧٣ .

(٢) راجع ، موجز تاريخ الفلسفة لجماعة من اساتذة السوفييت ، المعطيات السابقة نفسها ، (ص : ٢٤٠ ، ٢٤١) .

الخارجي ، ولم يكن في نيته أبدا طرح هذه المسألة على بساط البحث ، لأنه كان يعتقد أن إثارة هذا النوع من المشكلات لا جدوى منه ولا طائل تحته .

وعلى أية حال يمكن تعليل اقلال سبينوزا من أهمية التجربة والحواس ، ربما راجع في نظره إلى عدم قدرتها على تكوين محتوى الذهن البشرى من المعرفة عامة ، ومن المعرفة العلمية خاصة ، فليس من سبيل إلى ادراك الحقيقة سوى العقل ، وبالعقل وحده .

ويبقى أن نشير إلى مسألة العلاقة بين النفس والجسم ، أو بين الروح والجسد ، وكيف حاول سبينوزا الربط بينهما . وقد رأينا قبل قليل كيف حاول سبينوزا الربط بين الفكرة وموضوعها ، إنه لا يعتبر هذه العلاقة رابطة بين قطبين متباينين كل التباين ، وإنما الفكرة عنده لا تعدو أن تكون هي نفسها الموضوع ، فليس لها وجود مستقل عن الموضوع ، فهي الموضوع منظورا إليه من خلال الفكر .(١)

ويكتب سبينوزا : " إن الذهن والجسم شيء واحد ، ينظر إليه في الحالة الأولى من خلال صفة الفكر ، وفي الحالة الثانية من خلال صفة الامتداد ، وبناء على ذلك فإن تركيب الأشياء وتسلسلها يكون واحدا ، سواء انظرنا إلى الطبيعة من خلال إحدى الصفتين ، أو من خلال الأخرى " .(٢)

نفهم من هذا أن العلاقة بين الذهن والجسم ، أو بين الفكرة والموضوع ، أن الفكرة عنده هي ذاتها الموضوع ، وأن موضوع الفكرة التي تؤلف الذهن البشرى هو الجسم ، وهذا الأخير لا يعدو أن يكون حالا من أحوال الامتداد موجود بالفعل .(٣)

من المعروف أن سبينوزا حمل بشدة ، وفي أسلوب ساخر أحيانا على تلك الشقة العميقة التي وضعها ديكارت بين النفس والجسم ، لقد عبر عنها ديكارت قائلا : " ومع أننا نفترض أن الله قد جمع بين جسم ونفس جمعا يستحيل معه أن يتحدا اتحادا أوثق فجعل من ذلك كلا مؤلفا ، فالجوهران يظلان متميزين تمييزا حقيقيا على الرغم من هذا الاتحاد ، لأنه مهما جعل بينهما من وشائج ، لم يكن في وسعه أن يخلي ذاته مما يملك من قوة الفصل بينهما أو حفظ أحدهما بمعزل عن الآخر " .(٤)

---

(١) د . فؤاد زكريا ، سبينوزا ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٥٩ .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٧٩ .
(٤) ديكارت ، مبادىء الفلسفة ، ترجمة : د . عثمان امين ، المعطيات السابقة نفسها . ص : ١٥٨ .

وهكذا ، فديكارت يؤكد أن النفس جوهر متميز كل التميز عن الجسم . لنسأل سبينوزا عن رأيه في هذه المسألة ، نجد الجواب في ما قاله عن صفات الجوهر ، فكل من الصفتين الفكر والامتداد ينتظم الكون بأسره ، أي الكون كل الكون يحمل الصفتين معا في آن واحد .

أو في ما قاله عن وحدة الوجود - كما أسلفنا - الوحدة بين الطبيعة والله ، بين النفس والجسم .

وليكن ما يكون ، سبينوزا يعتقد بالمعرفة الإنسانية ، إنها ممكنة ، ومفسرة بالوحدة القائمة بين الذهن والجسم ، وبوساطتها نصل إلى المعرفة .

فيحاول الاعتماد على نظرية الانعكاس القائلة بأن الأفكار تعكس الأشياء خارج وعي الإنسان ، ولا يمكن والحالة هذه ، التسليم بوجود أفكار فطرية في الذهن ، كما كان الحال بالنسبة لديكارت ، غير أن سبينوزا لم يمض في هذه الطريق إلى نهايته ، إذ عاد فأقر ببعض من هذه الأفكار مثل معرفتي لماهية النفس ، ومسلمات رياضية كقولنا مثلا : الخطان المتوازيان لثالث متوازيان .

ومعرفتي للبديهيات ، وهي قضايا أو أقوال واضحة بذاتها لا تحتاج إلى برهان كقولنا : " كل ما يمكن تصوره على أنه غير موجود لا يمكن لماهيته أن تحتوي الوجود "(١) .

يكتب رسل في هذا المعنى : " . . . قد ظن سبينوزا أن طبيعة العالم والحياة الإنسانية يمكن أن تستنبط استنباطا منطقيا من بديهيات بينة بذاتها ، فينبغي أن نسلم بالأحداث تسليما يكون اثنان واثنان حاصلهما أربعة ، مادامت هذه وتلك ثمرة ضرورة منطقية "(٢) .

ويرد معترضا على ذلك فيقول : " من المستحيل أن نتقبل هذه الميتافيزيقا بأسرها ، فهي تجافي المنطق الحديث والمنهج العلمي . فالحقائق ، يجب أن تكتشف بالملاحظة لا بالاستدلال ، فنحن حين نستنتج المستقبل بنجاح ، نفعل ذلك بوساطة مبادئ ليست ضرورية منطقيا ، وإنما توحي بها المعطيات التجريبية "(٣) .

فإذا كان سبينوزا يعتقد - كما سبق القول - ببعض المبادئ والبديهيات كحقائق يقينية مطلقة ، فهو مع ذلك لم يمض في هذا الاتجاه أبعد مما ذهب إليه

---

(١) اندريه كريسون ، بسينوزا ، ترجمة تيسير شيخ الأرض ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٢٣ .

(٢) رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، ترجمة : د . محمد فتحي الشنيطي ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٣٢ .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٣٣ .

سلفه ديكارت أو لا يبنتز فيما بعد ،كما سنرى بعد قليل .

فقد أكد (سبينوزا) بالمقابل على الجانب المادى في فلسفته .

واعتمد لا يبنتز في فلسفته على فكرة الجوهر ، شأنه في ذلك شأن ديكارت وسبينوزا مع الاعتبار التباين في وجهات النظر ، سواء فيما يتعلق بالصلة بين الذهن والجسم ، أو نوعية الجوهر ، أو عدده .

فديكارت - كما سبق القول - يعتقد بجوهرين : الذهن والمادة . وسبينوزا يقول بجوهر واحد لا بالمعنى الفلسفي لكلمة جوهر ، إنه الطبيعة ، التي هي سبب لذاتها ، في العالم جوهر يحمل الصفتين في آن واحد ، الفكر والامتداد . بينما لا يبنتز يسلم بعدد لا متناه من الجواهر ،التي سماها " مونادات* monades (الجواهر المفردة) ، وهذه الجواهر ليست مادية ،ولا هي في مادة ، إنها ذرات روحية ، إن صح القول ، فلا امتداد لها ،[1] اذ يرفض ان يكون لها امتداد ، لأن الامتداد والمكان منقسم إلى مالا نهاية ، فاللامنقسم لا يمكن له آن يوجد فيما هو متجزأ إلى مالا نهاية . والمونادة على هذا النحو جوهر بسيط غير قابل للانقسام ، قادر على النشاط الذاتي المستقل ، فاعل ،[2] لا يمكن أن يقع في المكان ، أى غير خاضع للبعد المكاني ،وليست نقطة فيزيائية لأن النقطة الفيزيائية منقسمة ، ولا هي نقطة هندسية ، رغم انها غير متجزأة ، إلا أنها تخضع للمكان ، واقعة فيه . وما هي إذن ؟ إنها نقطة ما ورائية وحسب ، أى نقطة فعالة ، نشيطة ذاتيا ، هي واقع روحي ، وليست بظاهرة مادية ، فالصفة الجوهرية الوحيدة الباقية هي الفكر ، وعلى ذلك فقد انقاد لا يبنتز إلى انكار واقعية المادة ، واستبدالها بسلسلة لا متناهية من النفوس .[3] بهذه الصورة ينتهي لا يبنتز إلى التسليم بلا مادية الجوهر ، فهو واقع روحي خالص ، واقع غريب على المادة .

ويتقوم هذا الجوهر بالسمات التالية :

١- الخلود :- المونادات (الجواهر) غير فانية ،وغير مستحدثة ، يكتب لا يبنتز : " لما كانت المونادات بلا أجزاء ،فلا يمكنها أن تتولد أو تفسد ، ولا يمكنها أن تبدأ أو

---

* مونادات monades ، من الكلمة اليونانية monas تعني الوحدة ، او على ما هو واحد ،وهي جواهر بسيطة (راجع ~~لطفا~~ ،لا يبنتز ، المونادولوجيا ، ترجمة : د . عبد الغفار مكاوى ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص : ١٠١ .

(١) المصدر السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٢٥ .

(٢) المصدر السابق ،المعطيات السابقة نفسها ،الصفحة نفسها .

(٣) رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، الكتاب الثالث ،المعطيات السابقة نفسها ص: ١٤٠

تنتهي على نحو طبيعي ،ولهذا فهي تبقى ما بقي العالم الذى يقبل التغير ، ولكن لا يقبل الفناء " (١) .

٢- السمة الثانية : هي التمايز والاختلاف بينها ، فالمونادات ظاهرة فردية متمايزة بعضها عن بعض ، بحيث لا يمكن أن نعثر على مونادتين متشابهتين تمام التشابه ، فهي تكاد تكون مطلقة في فرديتها . يكتب في الموضع نفسه :

" يتحتم أن تكون كل مونادة مختلفة عن الأخرى ، إذ يستحيل أن يوجد في الطبيعة كائنان متشابهان تشابها كاملا ، بحيث يتعذر ألا نعثر فيهما على خلاف قائم على خاصية باطنية " (٢) .

٣- السمة الأخرى ، هي التغير والحركة :

هذه الجواهر الفردية الروحية تخضع للتغير والحركة ، بالرغم من أنها غير قابلة للفناء .

يقول لا يبنتز في هذا المعنى : " لا نزاع عندى أيضا في أن كل كائن مخلوق عرضة للتغير ،وبالتالي تكون المونادة المخلوقة كذلك ، كما أن هذا التغيير يتم باستمرار في كل مونادة " (٣) . ومضى يقول : " يتبين مما سبق آن التغيرات الطبيعية في المونادات تصدر عن مبدأ داخلي ،إذ يستحيل على علة خارجية أن توثر على داخلها (٤) " .

إنها لا يمكن أن توثر في ارتباطاتها ، وانفصام علاقاتها بأية قوة أخرى سوى المونادة الأكبر (الله) ، ضمن النسق ككل .

إذن وحدة المونادات وانعكاسها هي حصيلة مباشرة للتناغم Harmonie الإلهي المسبق ،الذى يحول المونادات إلى كائنات حية للوجود . وأنها أي المونادات موجودة غير المونادة الأكبر ، وليس هناك سوى المونادات ، وما المادة إلا تجليات لهذه المونادات .

وفيما يتعلق بالعلاقة بين الذهن والمادة ،بين النفس والجسم ،نقرأ لدى

---

(١) لا يبنتز - المونادولوجيا والمبادىء العقلية للطبيعة ، والفضل الإلهي ، ترجمة : د . عبد الغفار مكاوى ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٢٨ .
(٢) المصدر السابق ، المعطيات السابقة نفسها ،الصفحة نفسها .
(٣) المصدر السابق ،المعطيات السابقة نفسها ،ص : ١٣٠ .
(٤) المصدر السابق ،المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

لايبنتز ما يلي : " وقد أتاحت لي هذه المبادئ وسيلة تفسير اتحاد النفس مع الجسم العضوي ، أو بالأحرى اتساقه معه ، تفسيرا طبيعيا ، أن النفس تتبع قوانينها الخاصة ، كما يخضع الجسم لقوانينه الخاصة ، وهما يتوافقان بفضل الاتساق المقدر بين جميع الجواهر ، لأنها جميعا تمثلات عالم واحد "(١) .

نتبين من هذا أن العلاقة بين العقل والجسم العضوي عند لايبنتز أمر لا غنى عنه ، إلا أننا نجد عنده في الطرف الآخر نوعا خاصا من الثنائية ، ثنائية النفس والجسم ، وهي لم تنشأ عن اختلاف طبيعة الطرفين وماهيتها ، كما هو الحال عند ديكارت ، إنما يفسر هذه الوحدة بنفس الطريقة التي يفسر بها وحدة العالم في مجموعه - أي بالرجوع إلى فكرته من الاتساق المقدر أو التجانس المدبر السابق في علم الله "(٢) إذن العلاقة بين النفس والجسم لا ينبغي أن تؤول عند لايبنتز إلى تفاعلهما المتبادل ، بل إلى تناسق سابق ، وأن الله قد حدد التوافق بينهما "(٣) .

وتجدر الإشارة هنا ، إلى أن لايبنتز قد انتقد ديكارت فيما ذهب إليه من أن النفس متميزة عن الجسم .

ديكارت يرى أنه يمكن تصور وجود نفس بدون جسم ، وكما يقول : " إننا حين نفحص عن ماهيتنا نحن الذين نفكر الآن ، فإنه ليس خارج فكرنا شيء هو موجود حقا ، نعرف جليا أننا لا نحتاج لكن نكون موجودين إلى أي شيء آخر يمكن أن يعزى إلى الجسم ، وإنما وجودنا بفكرنا سابقة على فكرتنا عن الجسم ، وهذه الفكرة أكثر يقينا بالنظر إلى أننا لا نزال نشك في وجود أي جسم ، في حين أننا نعرف على وجه اليقين أننا نفكر "(٤) .

فالنفس بهذا المعنى مستقلة عن الجسم ، فهما جوهران متمايزان كل التمايز ، فالنفس شيء مفكر ، غير ممتد ، في حين أن الجسم شيء ممتد غير مفكر .

لايبنتز ينتقد هذه النظرة ، ويقول ما نصه : "عرف ديكارت أن النفوس لا يمكنها أن تمد الأجسام بالقوة لأن الكمية التي في المادة ثابتة على الدوام ، ومع ذلك ، فقد

---

(١) المصدر السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٧١ .
(٢) المصدر السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٧٨ .
(٣) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، الجزء الاول ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٨٧ .
(٤) ديكارت ، مبادئ الفلسفة ، ترجمة : د . عثمان امين ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٩٣ .

تصور أن النفس يمكنها أن تغير اتجاه الأجسام ،ولكنه وقع في هذا الظن ،لأن القانون الطبيعي الذى يقول ببقاء نفس الاتجاه العام في المادة ، لم يكن قد عرف في عهده ، ولو انتبه إليه لتوصل إلى مذهبي في الاتساق المقدر " .(١)

يواصل نقده لديكارت قائلا : " ويقتضي هذا المذهب أن تفعل الأجسام كما لو كانت النفوس غير موجودة ، (وهو أمر مستحيل) . وأن تفعل النفوس وكأن الأجسام غير موجودة ، وأن يفعل الإثنان وكأن أحدهما يؤثر على الآخر " .(٢)

أما بالنسبة لسبينوزا ، فهو - كما شاهدنا من قبل - يؤكد على أن الذهن والجسم شيء واحد ، انه يعارض بشدة ثنائية ديكارت ، ولم يخف استغرابه حين حاول ديكارت جعل الغدة الصنوبرية حلقة وصل بين النفس والجسم . وقد أعرب عن دهشته من أن يقول بمثل هذه الآراء فيلسوف اتخذ من الوضوح والتمايز معيارا لتفكيره .(٣)

من المعروف أن لايبنتز قال بالفكرة الواضحة والمتميزة ، يكتب في هذا المعنى : " في مقالة قصيرة عن أفكار صحيحة أو خاطئة ،واضحة أو غامضة ، متميزة أو مبهمة . . قد اعطيت تعريفا عن أفكار واضحة عامة ، بسيطة ومركبة . أقول إذن : تكون الفكرة واضحة إذا كانت كافية لتميز الشيء ومعرفته . . . وتكون غامضة ،إذا لم تكن كذلك " .(٤)

ويضرب لذلك مثلا فيقول : "إذا كنت أبحث عن شيء ما ثم عرض لي هذا الشيء ،فلم اتبينه ،فمعنى ذلك أني لا أعرف بوضوح عن أي شيء أبحث " .(٥)

فيرى أن الفكرة قد تكون واضحة ،ولا تكون مع ذلك متميزة ، مثلا نجد عند البستاني فكرة واضحة عن أنواع مختلفة من النباتات ، غير أن فكرته لا تخلو رغم ذلك من لبس وابهام ،بينما نجد هذه الفكرة عند عالم الطبيعيات العارف بكل عناصرها ومفرداتها .(٦)

فإذن الفكرة الواضحة عند لايبنتز هي الفكرة التي نتبينها ونتعرف بها بين مجموعة من الأفكار ، أما الفكرة المتميزة فهي الفكرة التي يدرك العقل مضمونها ،

---

(١) لايبنتز ، المونادولوجيا ،ترجمة : د . عبد الغفار مكاوى ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٧٢ .

(٢) المصدر السابق ،المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٧٣ .

(٣) د . فؤاد زكريا ،سبينوزا ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٧٨ .

(4) Leibniz - nouveaux,Essai sur l'entendement humain, Garnier , flammarion 1966,Paris ;P:217

(5) Ibidem.

(6) Ibid,P:218

وعناصرها ادراكا بينا لا يدع مجالا لأي ملابسات .

ويحاول لايبنتز - في نظرية المعرفة أن يظهر من المذهب العقلي المتطرف في الأفكار الفطرية بمظهر الاعتدال . أو بلغة أرسطو "بالوسط الذهبي" لا افراط ولا تفريط . فينسب إلى ديكارت - خطأ القول - بأن الأفكار الفطرية توجد في العقل بكيفية جاهزة مكتملة منذ الولادة ، والصحيح - مثل ما بينا سابقا - أن ديكارت ، فعلا اكد على وجود أفكار فطرية في العقل ، الا أن هذه الأفكار ليست جاهزة فيه منذ البداية ، وإنما على شكل استعدادات ، استعداد العقل لتقبل المبادئ والمسلمات . ويبدو أن لايبنتز لم يكن على اطلاع بما فيه الكفاية على آراء ديكارت في هذا الشأن .(١)

والمهم في الأمر أن لايبنتز لا يرى وجود أفكار فطرية في العقل على أساس أنها جاهزة مكتملة ، وانما توجد فيه على شكل بدايات واستعدادات ، يتطلب نقلها إلى حيز التحقيق .(٢) أي نقلها من الإمكان إلى الفعل (من القوة إلى الفعل (ارسطو) . وهذا يعني ، حسب لايبنتز - أن العقل الإنساني ليس كصفحة بيضاء ، مثل ما ذهب جون لوك ، بل إنه أشبه ما يكون بقطعة من الرخام عليها عروق ، ترسم ملامح التمثال الذي سينحته الفنان منها فيما بعد .(٣)

وأيا ما كان الأمر ، فلا يبنتز يعتقد بالأفكار الفطرية ، ويبدو ذلك واضحا في تأكيده على الحقائق الضرورية والأبدية . يكتب في هذا المجال : " . . . إن المعرفة بالحقائق الضرورية والابدية هي التي تميزنا عن الحيوانات الخالصة ، وبها نتزود بالعلوم وذلك حين ترفعنا إلى المعرفة بأنفسنا وبالله ، وهذا ما يسمى فينا بالنفس العاقلة أو العقل " .(٤)

ويضيف إلى هذا قائلا : " وعن طريق المعرفة بالحقائق الضرورية ، ومن خلال تجريداتها نرتفع كذلك إلى الأفعال التأملية التي توصلنا إلى فكرة الأنا ، وتجعلنا نعتبر أن هذا ، أو ذاك موجود فينا ، فنحن إذ نفكر على هذا النحو في أنفسنا نوجه أفكارنا في الوقت نفسه إلى الوجود والجوهر ، والبسيط والمركب ، واللامادي ، والله نفسه ، حيث نتصور أن ما هو محدود فينا يوجد فيه بغير حدود ، هذه الأفعال

---

(١) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٩٠ .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٤) لايبنتز ، المونادولوجيا - ترجمة : د . عبد الغفار مكاوى ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٤١ .

التأملية تمثل الموضوعات الأساسية العقلية ".[1] فإذن الحقائق الضرورية ،والأبدية في تصورات لايبنتز هي المبادىء أو المفاهيم الأولى للمعرفة العقلية .

ويستشهد لذلك بمحاورة مينون لأفلاطون ،للتدليل على وجود هذه الحقائق في النفس سابقة على التجربة .

وقد رأينا كيف يحاول أفلاطون على لسان سقراط أن يثبت بأن المعرفة تذكر مبينا أنه بالأسئلة وحدها ،نستطيع أن نستنبط المعرفة من النفس ، مثل ما حدث لعبد مينون ،الذى كان سقراط يوجه إليه اسئلة فيجيب اجابة صحيحة . فلا يبنتز الذى يواصل خط ديكارت ،خاصة فيما يتعلق بالأفكار الفطرية ، يعارضه في عدة نقاط منها :

١- انه يرفض نظريته في الشك ،كما يرى في الوضوح والتميز غير كافيين كمحك للحقيقة واليقين .

وعلى الصعيد المنهجي يعتقد لايبنتز ضرورة التوحيد بين العقلانية والتجريبية ، مع ابقاء الدور الحاسم للعقل . ولهذا فإنه في الوقت الذى يأخذ بمبدأ التجريبية المشهور : " انه لا يوجد شيء في العقل ما لم يكن من قبل في الأحاسيس " ، نجده يضيف إليه قائلا : " باستثناء العقل ذاته ".[2] فقد ذهب أبعد من ذلك ، فعندما أكد على ضرورة توحيد المنهجين العقلي والتجريبي ، يحاول في الوقت ذاته الحط من قيمة التجربة . نقرأ لدى لايبنتز ما يلي : " وبقدر ما يتصرف الناس تصرفا تجريبيا ، أي في ثلاثة أرباع افعالهم ، فهم لا يتصرفون إلا كما تتصرف الحيوانات "[3] .

فمعرفة الإنسان وفق هذه النظرة ، لا تعتمد على حقائق التجربة ، أو حقائق الواقع (لأنها عرضية) ، وإنما تعتمد على الحقائق الضرورية الأبدية ، مثل حقائق المنطق والرياضيات ،التي يعتمد الاستناج العقلي .[4]

لذلك فهو يصنف الحقائق إلى نوعين :[5]

---

(١) المصدر السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٤٢ .

(٢) جماعة من الاساتذة السوفييت ،موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة ،نفسها ص : ٢٩٠ .

(٣) لايبنتز ،المونادولوجيا ،المعطيات السابقة نفسها ،ص : ١٠٨ .

(٤) المصدر السابق ،المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٥) جماعة من الاساتذة السوفييت ،موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٩١ .

١- حقائق ضرورية ، أو حقائق ماورائية ،هذه الحقائق تستخلص بوساطة العقل وحده لا تحتاج لأية تجربة ،ويكفي التسليم بصحتها أن نرى عدم وجود ما يناقضها .

٢- حقائق صدفية أو حقائق الوقائع ، فهذه الحقائق مصدرها التجربة ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تستخلص بوساطة الاستدلالات المنطقية ،ويكفي فهم الرابطة السببية التي بموجبها تتجلى بعض وقائع تجربتنا بالنسبة لغيرها ، (١)
إن معرفتنا العقلية - كما يراها لايبنتز ، تقوم على مبدأين اثنين :

١- مبدأ عدم التناقض ،وبوساطته نستطيع أن نحكم على كل ما ينطوي على تناقض ،وبالصدق على ما يضاد الكذب .

٢- مبدأ السبب الكافي : الذي ينص على أنه لابد لكل واقعة من سبب كاف ، يوضح سبب وجودها .

من الواضح أن هذا المبدأ شبيه إلى حد ما بمبدأ العلة الغائية . لنستمع إلى مايقوله لايبنتز في هذا الموضوع :

" والإدراكات التي تتم في داخل الموناد ات تنشأ عن بعضها البعض ، طبقا لقوانين النزوع أو العلل الغائية المتعلقة بالخير والشر ، التي تتكون من الإدراكات الملحوظة ، منظمة كانت ، أو غير منظمة ،كما تنشأ التغيرات التي تلحق الاجسام والظواهر الخارجية ، وفقا لقوانين العلل الفاعلية ، أي قوانين الحركة " . (٢) ويرى أن هناك اتساقا تاما بين ادراكات الموناد ات ،وحركة الاجسام ،وهذا الاتساق في نظره ، سبق تقديره منذ البدء بين نظام العلل الفاعلة ، ونظام العلل الغائية ، هذا من جانب من جانب آخر يؤكد على ضرورة اللجوء إلى هذه العلل الأخيرة ،ولا يمكن التغاضي عنها ، (٣) والاقتصار فقط على العلل الفاعلة .

والمهم في هذا ، أن الحقائق الضرورية التي نصل إليها عن طريق العقل ،هي الوحيدة التي تتصف بالشمولية ،فإذن الاسلوب المعتمد عليه للوصول إلى هذه الحقائق بالاستدلال ، لا بالاستقراء . أما الحقائق الفردية أو الوقائع ، لا تتلك في تقديرات لايبنتز ،مقومات الشمولية والضرورية .

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ،ص : ١٤٣ .
(٢) لايبنتز ، الموناد ولوجيا ، والمبادئ العقلية ،المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٩٣ .
(٣) المصدر السابق ، المعطيات السابقة نفسها ،ص : ١١٤ .

وثمة نقطة لابد من الإشارة إليها ، وهي أن لا يبنتز في مجال النظرية المنطقية يحاول أن يتجاوز المنطق الصوري ، فهو يقرر مقولة الاحتمال ، إذ يرى فيها جانبا معرفيا وأساسيا ، فالاحتمالية إذن لا يمكن أن تكون حالة ذاتية للمعرفة ، خالية من المضمون الموضوعي ، بل على العكس ، إنها تجسد علاقة موضوعية للواقع . وهذا يعني أن قوانين الطبيعة تختلف عن قوانين المنطق والرياضيات ، فقوانينها ليست ضرورية منطقية ، ولو كانت كذلك لاستطعنا أن نصل إليها بطريقة الاستدلال .

من هذا يمكن أن نتبين مضامين ايجابية في فلسفة لا يبنتز فإذا كان ديكارت يقر بثبات كمية الحركة *، فإن لا يبنتز بالرغم من رفضه وجود الفراغ ، لكون أن المادة لا متناهية وهي بالتالي تملأ المكان كله (١)، فهو يرفض السكون المطلق ، فالسكون في نظره لا يكون إلا نسبيا ، الحركة هي المطلقة ، التسليم بوجود الحركة يصبح في اعتقاده كاف لتفسير كافة الظواهر ، في هذا يختلف عن سبينوزا أيضا ، لأن هذا الأخير ينظر إلى الجوهر على أنه ثابت لا يتغير . وفوق هذا يتقوم لا يبنتز في مبدئه " الاتصال " (٢) أو الترابط ، على الرغم من الصيغة الجامدة الماورائية التي طرحت من قبله . إلا أنها مع ذلك تشكل خطوة اولى لاكتشاف مبدأ الترابط الشامل اللاحق به . ويتلخص هذا المبدأ في الفقرة التالية : إن الحاضر يحمل المستقبل في احشائه ، والمستقبل يمكن أن يقرأ من صفحات الماضي ، والبعيد يعبر عنه في القريب " . (٣) بمعنى أن كل شيء في الوجود يوجد في ترابط يخفي الحاضر من خلاله ، وفي أعماقه المستقبل .

بالاعتماد على مبدأ الاتصال ينتهي لا يبنتز الى الاستنتاج أن تقاربا عضويا بين كافة الكائنات العضوية ، فالناس في رابطة وثيقة مع المبادىء ، والنبات في رابطة مع الأشياء ، وهذه ترتبط بالحواس .

وقد أشار لينين إلى القول بأن لا يبنتز " وصل من خلال اللاهوت إلى مبدأ الترابط المحكم (الشامل المطلق) بين المادة والحركة "، (٤) وهذه الفكرة يمكن

---

* حركة الجسم = ك × ع .

(١) لا يبنتز ، المونادولوجيا ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٠٣ .

(٢) المصدر السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٠٤ .

(٣) المصدر السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١١٦ .

(٤) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، الجزء الاول ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٨٦ .

اعتبارها بمثابة منطلق لنظرية التطور في الوجود ، هذا أولا . ومن جهة ثانية ، أنه بالرغم من بعض التنازلات التي أبداها لايبنتز في اتجاهه العقلي ، جاء ليؤكد ويدافع عن المثالية والقبلية في نظرية المعرفة ،[1] وذلك في مؤلفه الموسوم : " محاولات جديدة في الفهم الإنساني " الذى تناول فيه محتوى مؤلف لوك : " مقالة في الفهم الانساني " وخصه بالتحليل والنقد . ويقول بهذا الخصوص : "إن المعرفة بطبيعة الأشياء لا تكون في اغلب الأحوال إلا معرفة بطبيعة عقلنا ، وبتلك الأفكار الفطرية التي لا حاجة بنا للبحث عنها خارجها "[2] .

ويقول أيضا في المؤلف نفسه : "إن الأفكار العقلية أو أفكار التأمل مستمدة من عقلنا ، وأنه ليشوقني جدا أن أعرف كيف كان يتسنى لنا أن نحصل على فكرة الوجود لو لم نكن نحن موجودات ، وبذلك نلمس الوجود في أنفسنا "[3] .

من هذه المنطلقات يمكن القول أن لايبنتز كديكارت وسبينوزا يؤكد على الحقائق الكلية والضرورية ذات المنشأ القبلي ، يعود إلى العقل ذاته[4] .

وعلى ذلك فإن إمكانية بلوغ المعرفة في نظر هؤلاء الفلاسفة العقليين (ديكارت ، سبينوزا ، لايبنتز) تعود إلى وجود مبادئ وأفكار فطرية ، تأتي في مقدمتها المسلمات الرياضية والمنطقية والفلسفية . هذه المبادئ ، وهذه الحقائق لا تعني أنها جاهزة كامنة في النفس منذ البداية ، كما ذهب إلى ذلك أفلاطون ، بل تعني استعداد العقل لاستيعاب ، وتقبل هذه المسلمات وهذه المبادئ الأولية . فالتجربة لا تخلقها ، ولا تكتسب منها ، وانما توقظها فينا ، وهذه المبادئ قوام جميع معارفنا ، فقد نستغني بها عن جميع الأفكار الخارجية لادراك حقيقة العالم المحيط بنا .

إن العقل لا الحواس يمارس الدور الأساسي في عملية المعرفة ، وبذلك كان ديكارت ، ومن بعده سبينوزا ، ولايبنتز من دعاة المذهب العقلي ، الذى يعطي الأولوية للعقل في المعرفة . أنه يؤكد على عدم ارتباط الفكر بالمدركات الحسية واعتماده على معرفة الانسان لذاته والله . وليس من قبيل الصدف أن نجد ديكارت يفخر بأنه قد وصل إلى دليل على هذا الوجود يماثل في دقته - على حد قوله - أدلة الهندسة ،

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٩١ .
(٢) لايبنتز - المونادولوجيا ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٤٣ .
(٣) المصدر السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٤) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة الجزء الاول ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٩٢ .

أي أنه يمكن اثبات وجود الله عن طريق معرفة الانسان لذاته ولوجوده الشخصي (١) .

وجملة القول ان المذهب العقلي ، يؤكد على فكرة الله ، والنفس ، والامتداد ، والمطلق ، والكلية والضرورية على أنها أفكار فطرية ، غير مكتسبة من العالم الخارجي ، ولا مركبة من الأشياء ، لكن النفس هي التي تستنبطها من ذاتها ، وتتميز هذه الأفكار بأنها واضحة وبسيطة ، وقبلية أولية ، لا تحتاج إلى برهان للتأكد من يقينيتها . والتي تؤلف في نظر العقليين الحياة العقلية بمعناها الصحيح .

من هنا ندرك مدى أهمية الأفكار الفطرية بوضوح عند هؤلاء الفلاسفة العقليين في إدراك الحقائق وكل المعارف .

بيد أن التجريبيين ، وعلى رأسهم جون لوك ، وديفيد هيوم (مع الأخذ بالاعتبار أوجه الاختلاف بينهما) ، رفضا التسليم بالأفكار الفطرية الموروثة ، والمبادئ العقلية البديهية ، وبالقوانين السابقة على التجربة ، رفضا ذلك كله ، لأن المصدر اليقيني للمعرفة هو التجربة ، والإحساس .

فبعد قليل سأتناول ، وبصورة خاصة ، نقد جون لوك لنظرية الأفكار الفطرية .

***

---

(١) د . نجيب بلدي ، ديكارت ، نوابغ الفكر الغربي ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٩٤ .

الفصل الثالث

المكانة الهامة لنقد نظرية الأفكار الفطرية في فلسفة لوك

يحاول لوك بناء نظرية مادية متكاملة في المعرفة ، ويعتبر مؤسسا للتجريبية القائلة بأن معرفتنا مستمدة من التجربة .(١)

وتبعا لذلك يكرس القسم الأول من مؤلفه " مقالة في الفهم الانساني " لإقامة الحجج ضد القائلين بنظرية الأفكار الفطرية ، كما لو كان ذلك ضد أفلاطون والمدرسيين وضد ديكارت وسبينوزا ولايبنتز . فيبدأ بمناقشة هذه النظرية ويقول : " هناك أناس يفترضون - كحقيقة لا تنازع - بأن هناك بعض مبادىء فطرية ومفاهيم أولية ، تسمى بوجه آخر ، مفاهيم مشتركة ، على أنها مطبوعة ومنقوشة في نفسنا ، التي تتلقاها (أي النفس) منذ اللحظة الأولى من وجودها ، وتحملها معها إلى هذا العالم " .(٢) ويمضي قائلا : " إن لدي ما أقوم به تجاه قراء غير متشبعين بأى حكم مسبق ، فلن يكون من أجل اقناعهم بخطأ هذه الفرضية ، سوى أن أبين لهم (كما آمل القيام به في الأجزاء الأخرى من هذا المؤلف) . بأن الناس يستطيعون اكتساب جميع المعارف التي لديهم باستخدام بسيط لقدراتهم الطبيعية دون مساعدة أي انطباع فطرى ، وبأنهم يستطيعون الوصول إلى يقين تام عن بعض الأشياء ، دون الحاجة لأي من هذه المفاهيم الطبيعية ، أو من هذه المفاهيم الفطرية ، لأن جميع الناس - في رأيي - سيوافقون بسهولة على أنه سيكون من المثير للسخرية الافتراض - على سبيل المثال - بأن أفكار الألوان كانت مطبوعة في نفس مخلوق ، أعطاه الله النظر ، والقدرة على ادراك هذه الأفكار بالتأثير الذى تحدثه الأشياء الخارجية في عينيه " .(٣)

ثم يضيف إلى ذلك : " ليس أقل منافاة للعقل أن تعزى المعرفة التي لدينا عن حقائق عديدة إلى الانطباعات الطبيعية ، وإلى الخصائص الفطرية ، إذا كان بإمكاننا أن نلاحظ في أنفسنا قدرات خاصة تجعلنا نعرف هذه الحقائق على درجة من السهولة واليقين " .(٤)

---

(١) رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، ترجمة : د . محمد فتحي الشنيطي ، الكتاب الثالث ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٧٨ .

(2) John Locke, Essai philosophique ,Ibid,P:7

(3) Ibidem.

(4) Ibid, P;8

بهذا المعنى ، لا وجود لأفكار فطرية ، ولا من مبادئ موروثة ، فالنـــاس يستطيعون اكتساب المعرفة باستخدام قدراتهم الطبيعية ، دون الاعتماد على ما يسمـــى بالأفكار الفطرية ، فجميع الأفكار التي تتكون في الذهن ، مصدرها التجربة ، والتجربـــة وحدها ، فالإنسان كما يقول لوك ، يولد وعقله يشبه صفحة بيضاء خالية من أية أفكار ، ومن أي خصائص أو صفات ، فالتجربة هي التي تقوم بكتابة سطورها على هذه الصفحـــة ، وأن الأشياء الخارجية تؤثر في حواسنا فتولد أفكارا بسيطة هي المعطيات التي يستقبلهـا الذهن ويؤلف منها الأفكار التي تنشأ منها المعرفة ، وفوق هذا أن للذهن قدرة علـــى خزن هذه المعطيات ، ثم استرجاعها من جديد ، لفحصها ، وربطها بعضها ببعـــض ، وتكوين أفكار مركبة منها ، (١) ومن هنا كان الإحساس سابقا على التفكير .

لوك يطرح هذه المشكلة ، مشكلة المعرفة الفطرية ، فيحاول معالجتها انطلاقا من موقع مادي . في هذه المعالجة يبدأ لوك بطرح الحجج والبراهين التي يذكرهـــا دعاة نظرية الأفكار الفطرية مستهلا ذلك بحجة الإجماع الكلي (الموافقة العامـــة) Consentement universel ويكتب في هذا الصدد : " سأعرض الأسباب التي جعلتني أشك في التصور الذي يفترض وجود أفكار فطرية في عقل الإنسان ، إذ ليس هناك رأي مسلم به أكثر من القول بوجود مبادئ معينة - نظرية وعملية ، يوافـــق عليها الناس بوجه عام ، وهم لهذا يزعمون أنها لابد أن تكون انطباعات دائمة تلقتهـــا نفس الإنسان مع وجودها ، وأحضرتها إلى هذا العالم بالضرورة تماما ، كما جـــاءت بما لها من ملكات ملازمة لها " . (٢)

يرفض لوك هذه الحجة ، لأنها في نظره لا تستند إلى أي أساس ، فيعلل ذلك بقوله : " ألاحظ أولا أن هذه الحجة المستمدة من الإجماع الكلي عرضة للمخاطر ، لما يصبح الأمر مؤكدا ، أعني عندما توجد بالفعل حقائق يوافق عليها الجنس البشري كله ، هذا الإجماع الكلي لن يبرهن أبدا على أن هذه الحقائق فطرية ، إذا كان بالإمكان أن نبين طريقة أخرى استطاع من خلالها الناس الوصول إلى هذا التشابه في الإحســـاس حول الأشياء التي يوافقون عليها ، هذا ما يمكن القيام به إذا صح ظني " . (٣)

ويضرب لذلك مثلا ببعض المبادئ الأولية النظرية ، التي يتفق عليها الناس ، مثل المبدأين التاليين :

---

(١) راجع عبد الفتاح ابراهيم ، الاجتماع والماركسية ، الطبعة الاولى ، دار الطليعة بيروت ١٩٨٠ ص : ١٢٥ .

(2) Ibidem.

(3) Ibidem.

كل ما هو موجود /، ومن المستحيل لشيء أن يوجد وألا يوجد في الوقت نفسه ". *

وقد اختار لوك هذين المبدأين كأساس لإثبات خطأ الإجماع الكلي ربما لوضوحها وشهرتها ، أو لأنها أكثر المبادئ - وهذا هو الأهم - قربا من ادعاء الفطرية متفق عليها ، لدرجة أننا نندهش حين يحاول المرء مناقشتها للتأكد من صحتها ومن صدقها . ومع ذلك فهي لا تحظى بالموافقة العامة ، لأنها ليست معروفة لدى الجميع. (١) فهناك مثلا الأطفال ، والبلهاء ** ، لا يعرفونها ، وليس لديهم أدنى فكرة عنها ، وهذا النقص - في نظر لوك - كاف لتقويض صحة الإجماع .

ويتابع لوك معالجته لهذه المسألة ، مبينا خطأ تلك النظرية ، فيكتب : " إن القول بوجود حقائق مطبوعة في العقل ، وأن العقل لا يدركها ، ولا يفهمها قط ، انه ليبدو لي شيئا متناقضا ، فالانطباع في العقل - إن كان يعني شيئا - فلن يكون غير جعل شيء ما مدركا ، لأن طبع أي شيء في العقل دون ادراكه ، في رأيي - أمر غير معقول .

إذن ، إذا وجدت انطباعات ما في عقل الأطفال ، والبلهاء ، ينبغي بالضرورة أن يدركوها ، وأن يعرفوا الحقائق المنقوشة في عقولهم ، ويمنحونها موافقتهم . مادام هؤلاء لا يدركونها ، يكون من البديهي أن ليس هناك مثل هذه الانطباعات " . (٢)

ثم يتساءل قائلا : " في حالة ما إذا لم تكن مفاهيم (أفكار) مطبوعة بصورة طبيعية في العقل ، كيف يمكنها أن تكون فطرية ؟

وإذا كانت مطبوعة فيه كيف يمكن أن تكون مجهولة لديه ؟ " . (٣) وهكذا يخلص إلى نتيجة هي : " إن القول بأن هناك فكرة مطبوعة في العقل ، ومنقوشة فيه ، ثم التأكيد في الوقت نفسه ، بأن العقل لا يعرفها قط ، وليست لديه عنها أية معرفة ، معناه ، أن هذا الانطباع ليس شيئا بالمرة ." . (٤)

---

* " Ce qui est, est , ~~est~~; et, il est impossible qu'une chose soit et me soit pas en méme temps".

(1) Ibidem.

** ان جعل لوك من البلهاء كمثال على عدم وجود الأفكار الفطرية لا يمكن الأخذ به ذلك أن حالة الجنون والبله ، حالة شاذة غير طبيعية في الإنسان .

(2) Ibid,P;9

(3) Ibidem.

(4) Ibidem.

وعلى ذلك ، فإن هؤلاء الذين يتحدثون عن المبادىء الفطرية يتحدثون بشكل غير واضح ،وبعدم الدقة .

إنهم في الواقع - وهذا مالاحظه لوك - يعتقدون الشيء ذاته ، الذى يعتقده أولئك الذين ينكرون وجودها ، ويكتفي في هذا الخصوص : " لأني لا أعتقد بأن أحدا أنكر قط بأن للعقل قدرة على معرفة عدة حقائق ، ان هذه القدرة ، لتقل هي فطرية ، وأن معرفة هذه أو تلك من الحقائق هي ما نسميها مكتسبة " . (١)

ثم يعود ليؤكد " أنه إذا كان ذلك هو كل ما نطمح إليه ، ما جدوى كل هذا الصخب للتأكيد بأن هناك بعض حقائق فطرية ؟ إذا كان ثمة حقائق ، يمكن أن تكون مطبوعة في العقل ، دون أن يدركها ، لا ارى كيف يمكن أن تختلف بالنسبة لأصلها أو مصدرها عن أية حقيقة أخرى ، بامكان العقل أن يدركها ؟ يقتضي ذلك ، إما أن تكون كلها فطرية ،أو أن تأتي كلها من النفس ، انه من غير المجدى أن ندعو إلى تمييزها بهذا الصدد " . (٢)

وبناء على هذا ، فإن أيا كان يتحدث عن مفاهيم فطرية في العقل ،لا يستطيع أن يتصور وجودها فيه ،ما لم يدركها العقل ، وما لم تكن لديه أية معرفة عنها . (٣)

ذلك ،أنه لو حملت هذه الألفاظ شيئا ما ايجابيا ، تعني يكون (الشيء) مدركا ومفهوما من قبل العقل ، فالقول بأن شيئا ما موجود في العقل ، وأنه في الوقت نفسه غير مدرك من قبل العقل ، معنى هذا ،تناقض واضح . وتكون القضية على هذه الصورة : إن شيئا يوجد ، ولا يوجد في العقل . (٤)

ويتساءل لوك من جديد : لو أن هاتين القضيتين :

" ما هو موجود ، موجود ،وأنه من المستحيل أن يوجد شيء ولا يوجد في الوقت نفسه " كانتا منقوشتين في نفس الناس بصورة طبيعية ، فإن الأطفال لا يمكنهم أبدا أن يجهلوها . (٥)

هذه هي حجة الإجماع التي استند اليها دعاة الأفكار الفطرية للدفاع عن نظامهم

---

1) Ibidem.

2) Ibid,P;10

3)Ibidem.

4)Ibidem.

5)Ibidem.

الفلسفي القائم على هذا الأساس ،ورأينا كيف حاول لوك دحض هذه الحجة .

لوك ، كان على حق تماما ، عندما رفض أن يكون الإجماع الكلي دليلا على وجود أفكار فطرية في العقل ،لأن اجماع الناس على أمر ما ، أو قضية ما ،ليس معيارا للحقيقة * يكتب لينين في هذا الصدد : "اجماع البشر ليس محك الحقيقة ، القول بأن محك الحقيقة هو شيء ما من نوع اجماع البشر : مثالية ، ذاتوية ، حتى لو أجمع البشر على أن هذه الطاولة غير موجودة ،تبقى موجودة . حتى لو أجمع العلماء على صواب نظرية بطليموس الفلكية (وقد اجمعوا) فان هذه النظرية لا تكتسب من هذا الاجماع دليل صوابها ، أي توافقها مع الواقع الموضوعي المادي المستقل " .(١)

فما هو محك الحقيقة إذن ؟ يجيب لينين بقوله : "إن محك الحقيقة هي الممارسة وبديهي أن الممارسة هي ممارسة البشر ، الممارسة فاعلية الذات في الموضوع الخارجي ، وحقيقة المعرفة توافق الذات مع الموضوع " .(٢)

يكتب ماركس في الموضوع نفسه : "إن مسألة ما إذا كانت للتفكير الانساني صحة موضوعية ليست مسألة نظرية بحتة ، بل إنها مسألة تطبيقية .

ففي الممارسة لابد أن يبرهن الإنسان على كون تفكيره حقيقيا ، أي على فعاليته ، وقوته وعدم غيبيته " .(٣) ثم ينتقل لوك بعد حجة الإجماع ،إلى حجة أخرى يعرضها مؤيدو المعرفة الفطرية فيقول : " لكي يتجنب المدافعون عن الأفكار الفطرية - هذه الصعوبة ، اعتادوا أن يجيبوا : بان الناس يعرفون هذه الحقائق ، ويمنحونها موافقتهم ما أن يقدموا على استخدام عقلهم ،وهذا كاف لإظهار أن هذه الحقائق فطرية في نظرهم "(٤).

إلا أن لوك يرفض هذه الحجة ،ويرى أن ذلك يعني أحد أمرين :(٥)

---

* الحقيقة : هي انعكاس كامل للواقع الموضوعي في وعي الانسان (راجع روجيه غارودي النظرية المادية في المعرفة تعريب ابراهيم قريط - دار دمشق ، ص : ٢٦٥ .

(١) لينين ،الدفاتر الفلسفية ، ترجمة الياس مرقص ، الجزء الثاني ، الطبعة الاولى ، دار الحقيقة ،بيروت ١٩٧٤ ، ص : ١٣٨ .

(٢) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها ،ص : ١٣٩ .

(٣) افانا سييف ،اسس المعارف الفلسفية ،دار التقدم - موسكو ١٩٧٩ ،ص : ١٧٥

(4) Ibidem.

(5) Ibid,P;11

١- إما أن الناس حالما يبدؤون باستخدام عقولهم ، يدركون هذه المبادئ التي يفترض أنها مطبوعة بصورة طبيعية في العقل .

٢- وإما أن استخدام العقل يجعلهم يكتشفونها ويدركونها بيقين تام .

لوك يرفض كلا الأمرين ، فبالنسبة للأمر الأول يرى أن هذه الانطباعات التي يزعمون أنها فطرية يدركها العقل ما أن يتم استخدامه ، فهذا لا يعني أنها مطبوعة في العقل ، وإنما تكونت فيه نتيجة القيام بوظيفته ، أما الأمر الثاني ، فيرفضه على أساس أن عقل الإنسان لا يكتشف تلك الأفكار ، وحتى ولو كان كذلك فهذا لا يثبت أنها فطرية ، ويتابع لوك هذه الحجة على هذا النحو :

" يقولون : إنه باستخدام العقل ، فإن الناس يستطيعون اكتشاف هذه المبادئ ، وهذا وحده كاف في نظرهم للبرهنة على أنها فطرية " (١) .

ويتلخص استدلالهم فيما يلي : (٢)

إن كل الحقائق التي يستطيع العقل معرفتها وادراكها كحقائق أكيدة وثابتة لا مجال للشك فيها ، منقوشة بصورة طبيعية في عقلنا . بما أن الإجماع الكلي الذي يجعلنا نعتبر هذه الحقائق بمثابة خاتم (طابع) والذي من خلاله يمكن أن نعرف أن بعض الحقائق فطرية ،لا تعني في الأساس شيئا آخر سوى أن استخدام العقل يؤدي بنا إلى بلوغ معرفة يقينية عن هذه الحقائق ونمنح لها موافقتنا . (٣) وحسب هذا التصور ليس هناك أي فرق أو اختلاف بين بديهيات الرياضيين ، والنظريات المستنتجة منها ، حيث أن كلا منهما فطري ، بمعنى أن العقل يكتشف ما كان مغطورا فيه . (٤) وهذا خطأ كبير ، لأن الاختلاف بينهما واضح لا يحتمل الشك . إذ أن ما يعتبرونه من مكتشفات العقل ماهو إلا حقائق يستطيع أي انسان عاقل أن يعرفها ويدركها إذا جد في البحث كما يجب . (٥)

لكن ، كيف يظن هؤلاء الناس ، أن استخدام الإنسان للعقل سيؤدي بالضرورة إلى اكتشاف مبادئ يفترضون فطريتها . (٦)

---

1)Ibid,P;11
2)Ibidem.
3)Ibidem.
4)Ibidem.
5)Ibidem.
6)Ibidem.

يرى لوك أنه من الخطأ القول : إن العقل يكتشف هذه المبادئ ، إذ أن العقل ما هو إلا قدرة تقوم باستدلال واستنتاج حقائق غير معروفة أي مجهولة ، من مبادئ أخرى معروفة من قبل . يقينا [1] ، لا يمكن اعتبار تلك المبادئ فطرية مطلقا ، ذلك أن الإنسان حين يستخدم عقله ، ثم يدرك هذه المبادئ ، ويلحظ وجودها ، لا يعني أكثر من استنتاج العقل لها ، لذلك ، فلن تكون هذه الأفكار فطرية فيه . [2]

ويلاحظ لوك أن اعطاء العقل مهمة اكتشاف الحقائق - التي يزعمون أنها مطبوعة في النفس أصلا - قبل استخدام العقل ، مع أن الإنسان يجهلها على الدوام ، إلا حين يبدأ في استخدام عقله ، وهذا يدل على أحد أمرين :

١- إما أن يكون العقل عالما بهذه الحقائق ؟

٢- وإما ان يكون جاهلا بها ؟

فإذا كان عالما بها ، فإن استخدام العقل والحالة هذه سيكون عديم الجدوى ، لأنه بهذه العملية سيعرف ما كان يعرفه سلفا . أما إذا كان العقل جاهلا بها ، ثم عرفها بعد ذلك ، فهذا يعني أنها ليست فطرية ، لأنه من المستحيل أن تكون هناك أفكار وحقائق في العقل ولا يعرفها ، أو أن العقل يعرف هذه الحقائق ولا يعرفها في الوقت نفسه وهذا تناقض . [3] إذا امعنا النظر في عمليات العقل ، سوف نجد أن قابلية الإنسان للموافقة على بعض الحقائق ، لا تعود إلى وجود انطباعات فطرية فيه ، ولا إلى اكتشاف العقل لها حين يبدأ الإنسان في استخدامه ، وإنما تعود حصرا ، إلى وظيفة العقل نفسه . [4] فالقول بأن هذه الحقائق تكون معروفة حالما يبدأ الإنسان في استخدام عقله ، بالنسبة للوك خطأ ، لأنه من غير المعقول أن يكون الوقت الذى نبدأ فيه باستخدام العقل هو نفس الوقت الذى نبدأ فيه باكتشاف هذه المبادئ . [5]

ويشير إلى ان هناك عددا من المبادئ ، لم يلحظها الأطفال ، ولا الشعوب المتوحشة ، فالمبدأ : " انه من المستحيل لشيء ذاته أن يوجد ، وألا يوجد " . وهو ما يعرف بمبدأ عدم التناقض ، غير معروف عند هؤلاء الأطفال ، ولا بالنسبة

1) Ibidem.
2) Ibidem.
3) Ibidem .
4) Ibid, P; 12
5) Ibidem.

للشعوب المتوحشة التي عاشت قسما هاما من حياتها دون أن تتأمل تلك المبادىء (١).

إن القول بأننا ندرك هذه المبادىء ، ونوافق عليها حينما نستخدم عقولنا ، ليس صحيحا ، لأننا لا نعرف أصلا هذه المبادىء قبل استخدام العقل ، وربما لا نوافق عليها في الحال إلا بعد مضي وقت من الزمن (٢).

من هنا نستطيع أن نقول الشيء ذاته بالنسبة لكل الحقائق الأخرى . لوك يتفق مع دعاة الأفكار الفطرية بأن ليس في النفس أية معرفة عن هذه المبادىء العامة الواضحة بذاتها ، قبل استخدام العقل ، لكنه أنكر عليهم - كما سبق القول - أن يكون الوقت الذى نبدأ فيه باستخدام العقل ، هو نفس الوقت الذى نبدأ فيه بادراك هذه المبادىء الأولى ، وحتى لو كان ذلك كذلك فرضا ، فإنه ينفي أن تكون فطرية (٣).

فالأطفال مثلا لا يكتسبون هذه المبادىء ، ولا يتعلمون الأسماء التي يستخدمونها للتعبير ، الا بعد أن تتمرن عقولهم بشكل كاف على أفكار مألوفة ومحدودة جدا ، ثم بعد ذلك يستطيعون التحدث بصورة صحيحة ، وذلك بحكم العلاقات المتبادلة بينهم وبين الأفراد الآخرين (٤).

ورب سائل يسأل إلى أي حد يمكن للعقل أن يعرف عدة حقائق ؟ يجيب لوك صراحة أن الحواس هي التي تمد عقولنا بشتى الفكر ، التي لم تكن فيه من قبل . وبالعقل تصبح (أي الأفكار) وبشكل تدريجي عادية ومألوفة لديه ، فيقوم باختزانها في الذاكرة ، ويعطي لها اسماء ، ثم يعرض أفكارا أخرى ينتزعها من تلك الأفكار ذاتها (٥).

بهذه الطريقة يتعود العقل على استخدام الأسماء ، واكتساب الافكار العامة (٦).

فكما شاهدنا من قبل ، أن الإحساس عند لوك سابق على التفكير ، بمعنى أن التفكير يأتي في مرحلة متأخرة عن الإحساس ، وبالتالي ، فالأفكار التي تتكون في العقل بوساطة تأتي في مرحلة تالية عن تلك التي يزودنا بها الإحساس .

---

1)Ibid,P;13
2)Ibidem.
3)Ibidem.
4)Ibidem.
5)Ibid,P:14
6)Ibidem.

وقد افترض أن العقل أشبه ما يكون بورقة بيضاء ، خالية من أية خصائص وأفكار،[1] ثم تبدأ هذه الورقة في الحصول على الأفكار والحقائق عن طريق التجربة ، وهذه التجربة تعتمد أساسا على الملاحظة ، وهي بدورها تنقسم قسمين :

١- ملاحظة خارجية .

٢- ملاحظة داخلية .

١- الملاحظة الخارجية تعتمد على المدركات الحسية ، فالحواس تنقل إلى العقل عدة احساسات عن الأشياء تبعا للوسائل المختلفة التي توثر فيها هذه الأشياء في الحواس ، وهذا المصدر الكبير الذى يزودنا بأغلب الأفكار ، والذى يعتمد اعتمادا كليا على حواسنا ، هو ما يسميه لوك بالإحساس ،[2] من هنا تبرز مهمة الحواس في نظرية المعرفة عند لوك .

يكتب روجيه غارودى في هذا الصدد : " لا نستطيع دون الإحساسات أن نعرف شيئا ، أي شكل من أشكال المادة والحركة ، وأن الادراك يعكس الموضوع ككل في وحدة خصائصه ، الادراك هو انعكاس الموضوع الخارجي بكليته المباشرة والملموسة والحسية "[3] .

وقد كتب لينين منتقدا دوهرينغ ، يقول ما يلي :

" إن التفكير لا يستطيع أبدا أن يستمد ، ويستخلص أشكال الوجود عن نفسه بالذات ، بل من العالم الخارجي "[4] .

ويؤكد أن الإحساس صورة لموضوع مادى موجود خارج الوعي ، وبالتالي فالإحساس هو صورة ذاتية عن الموضوع حيث أنه يعكس تأثير الموضوع عبر الوعي البشرى ، من المعروف أن المادية والمثالية تفسران بصورة متباينة أهمية الإحساسات . فالمادى كما هو الحال بالنسبة لجون لوك . يوكد على موضوعية مصدر الإحساسات ، وعلى

---

1) Ibid,P; 61
2) Ibidem.

(٣) روجيه غارودى ، النظرية المادية في المعرفة . تعريب ابراهيم قريط ، دار دمشق بدون تاريخ ، ص : ٢٤٩ .

(٤) لينين ، المادية والمذهب النقدى التجريبي ، المطبعات السابقة نفسها ، ص : ٣٨ .

تلك الصلات للذات القائم بالإحساس مع موضوعية والتي تنعكس في الإحساسات . وعلى العكس تضفي المثالية الذاتية ،كما هو الحال بالنسبة لباركلي ، وأرنست ماخ وغيرهما ، صفة الاطلاق على الطابع الذاتي للصورة التي يقدمها الإحساس . فهي تفسر الذاتية كتبعية الإحساس ، فهي تفسر الذاتية كتبعية الإحساس بصورة وحيدة الجانب ، إلى الحالة الداخلية ، إلى الذات ، وبالنتيجة فإن نظرية المعرفة وفق هذا التصور ماهي إلا مركبات احساسات ،وينجم من هذا أن العالم كله هو تصورى فحسب .(١)

ويقول لينين منتقدا أرنست ماخ : "(العالم يتألف من احساساتي أنا فقط)" إن ضمير المتصل " نا " الذى وضعه ماخ محل ياء المتكلم انما وضعه عن غير حق وصواب " .(٢)

وأيا ماكان ، فان الإحساسات هي صورة ذاتية عن العالم الموضوعي ، وأنها المصدر الأول لمعارفنا .(٣)

ومما يجدر ذكره ،أن النظرية التي تؤكد على المنشأ الحس لمعارفنا ، قد عرفت في تاريخ الفلسفة بالمذهب الحسي *

٢- أما الملاحظة الثانية ،وهي الملاحظة الداخلية ،تقوم - حسب نظر لوك - على ملاحظة الإنسان للعمليات العقلية الداخلية ،وكل ما يجول في ذهنه من أفكار وانطباعات، وهي العمليات التي تقوم بها النفس حين تفكر وتتأمل تلك الأفكار التي تكونت في العقل بوساطة الحواس .

وهذان هما المصدران الوحيدان لكل أفكارنا ومعارفنا . الأشياء الخارجية من حيث هي موضوعات للحس ، وعمليات العقل الداخلية من حيث هي موضوعات للتفكير ، هما الأساس في تكوين أية فكرة .

إن الإحساس بالموضوعات الخارجية يمد العقل بالأفكار عن الخصائص والكيفيات الجسمية ، بينما يمدنا العقل بالأفكار عن عملياته الداخلية .(٤)

---

(١) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٣٩ .

(٢) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها ،ص : ٤٠ .

(٣) زاموشكين ،سولوفيوف ، الفلسفة والعملية الثورية ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٧٦ .

* (من الكلمة اللاتينية Sensus الحس)

(راجع ، المرجع السابق ، الصفحة نفسها) .

(4) Lock, Essai philosophique , Ibidem.

فالإحساس كما هو واضح ، هو الأساس الأول ،في تكوين الأفكار ، البسيطة منها والمركبة ، ثم يأتي العقل ليزود الفكر بالأفكار الناجمة عن عملياته الخاصة .(١)

ويتابع لوك نقده للأفكار الفطرية فيقول : " إذا امعنا النظر في المسألة ، سوف نجد أن هذه الأنواع من الحقائق هي افكار مركبة ،وليست بأى وجه من الوجوه فطرية ، بل مكتسبة ، لأن الأفكار الأولية الموجودة في عقول الأطفال تأتي أساسا من العالم الخارجي "(٢) .

فالطفل قبل أن يتعلم النطق كان يعرف مع ذلك الفرق الموجود بين الحلو والمر ، وبين الأبيض والأسود ،وعندما يبدأ في الكلام يستطيع أن يميز بين شراب سكر (فيه مرارة) وبين حبات الدواء ،(٣) ومعلوم أن الطفل لا يعرف ان عدد ثلاثة وأربعة تساوى سبعة الا عندما يكون قادرا على العد من واحد الى سبعة ، وهذا فضلا عن معرفته لمعنى المساواة .(٤)

وحينما يقال للطفل الذى لا يقوى على الكلام بعد ، ان ثلاثة وأربعة تساوى سبعة ، فإنه لا يفهم معنى هذه العبارة ، أو هذه القضية ليوافق عليها ، أوعلى الاصح ليدرك حقيقتها ، بالرغم من أن معرفتها في غاية البساطة ،ومع ذلك لا يعني أنها فطرية .(٥) قد يطرح السؤال التالي : كيف يمكن لإنسان ما أن يعرف أن ثمانية عشر وتسعة عشر تساوى سبعة وثلاثين بنفس الوضوح الذى يعرف أن واحدا واثنين تساوى ثلاثة .(٦)

فالطفل مع ذلك ، لا يعرف هذه القضية ، والسبب في هذا ، لا يرجع مطلقا الى عدم القدرة على استخدام العقل ، بل لانه لم تتكون لديه بعد الأفكار الدالة على الالفاظ سبعة عشر ، ثمانية عشر ،وسبعة وثلاثون ، هذا ناهيك عن الفاظ واحد ، اثنان ، ثلاثة .

ويعتقد لوك أن جميع الناس ،بما فيهم الأطفال ، يوافقون على هذه القضايا

---

1) Ibidem.
2) Ibid,P:14
3)Ibidem.
4) Ibidem.
5) Ibid,P;15
6) Ibidem.

بمجرد سماعها ، وفهم الألفاظ المستخدمة للتعبير عنها ، لهذا نجد المدافعين عن الأفكار الفطرية ينظرون إلى هذه القضايا على أنها فطرية ، فيستنتجون من ذلك أن هذه القضايا كانت مطبوعة في العقل (١) .

لوك يسأل هؤلاء ، فيما إذا كانت الموافقة التي نبديها من قضية ما بمجرد سماعها هي مبدأ فطري ؟

إذا أجابوا بالنفي ، فعبثا يستعملون هذه الحجة . وإذا أجابوا بالإيجاب فسيكونون مجبرين على الاعتراف بأن كل القضايا التي نعرف حقيقتها بمجرد ما أن ينطق بها هي مبادئ فطرية (٢) .

وعلى هذا النحو ، فإن كثيرا من القضايا المتعلقة بالأرقام يمكن اعتبارها فطرية ، مثل : واحد واثنان تساوى ثلاثة . اثنان واثنان تساوى أربعة ، وغيرها من قضايا حسابية مماثلة ، يوافق عليها المرء عند سماعها (٣) .

وهذا ينطبق كذلك على العلوم الفيزيائية ، وباقي العلوم المختلفة الأخرى .

إذا أخذنا مثلا قضية : " جسمان اثنان لا يمكن أن يكونا في المكان نفسه " ، هذه الحقيقة نقتنع بها ، كما نقتنع بهذه الحقائق العامة التالية : " من المستحيل أن يوجد شيء ، ولا يوجد في الوقت نفسه " ، وأن " الأبيض ليس هو الأحمر " ، وأن " المربع ليس هو الدائرة " ، أو أن " المر ليس هو الحلو " (٤) . وما خلاف ذلك .

واستنادا إلى هذه النظرة ، فإن قضايا كثيرة ، وكل الأفكار التي لدينا عن الألوان والأصوات والأذواق والأشكال ... الخ ، يمكن اعتبارها فطرية ، وهذا - في رأي لوك - يؤدي إلى مغالطة كبيرة لدى الناس . وليس هناك من يتجرأ على اعتبارها كذلك . لأن أي شخص لا يتحمل مشقة التفكير فيما يجري في العقل أثناء استخدامه ، سيجد - بكل تأكيد - أن هذه القضايا الخاصة ، أو الأقل عمومية ، والتي يقرها دعاة الأفكار الفطرية على أنها حقائق ثابتة ليست كذلك ، إن هي في الحقيقة إلا نتاج للمبادئ الأولى (٥) .

---

1) Ibidem.
2) Ibid, P: 16
3) Ibidem.
4) Ibidem.
5) Ibid,P;17

هنا يمكن أن نستوقف لوك قليلا لنسأله : كيف يفسر لنا اعتقاده ببعض المبادئ الأولى ، والخارجة عن نطاق التجربة على أنها واضحة بذاتها لا تحتاج إلى أي دليل على صحتها ، لدرجة أن البعض يعتبرها مبادئ فطرية مسلم بصحتها ، وبين رفضه للأفكار الفطرية ، وللمبادئ الأولية ؟

يمكن تفسير ذلك في ضوء فهمنا لمعنى الفكرة الأولية عند لوك .[1] فهو يرفض فعلا كل معرفة أولية بمعنى أن تكون مطبوعة في العقل ، قبل أن نولد ، أو أن تكون قبلية ، سابقة على التجربة الحسية .[2] والعقل في نظره - كما مر بنا - كلوحة بيضاء - ساعة الميلاد - ليس فيه أي شيء . ثم تأتي التجربة لتنقش عليها حروفها ، إنما المقصود من المبادئ التي أشار إليها آنفا ، وجود بعض المبادئ والبديهيات يدرك العقل وضوحها ويقينها ، إما بالحدس أو بالبرهان ، وضوحا ، يوحي لبعض الناس أنها مفطورة في العقل ، مثل فكرة الذاتية (الإنسان هو الإنسان) التي يوليها لوك اهتماما استثنائيا باعتبارها أول عملية يقوم بها العقل ما أن يصبح مزودا بأحاسيس وأفكار .[3] وعلى ذلك ، فإنكار لوك للأفكار الفطرية والمبادئ الأولية ينصب على المبادئ نفسها لا على قدراتنا العقلية .[4]

وبمعنى أكثر وضوحا ، أن هذه المبادئ الأولية ليست فطرية فينا ، وليست أولية ، بمعنى أسبقيتها على التجربة الحسية ، وإنما هي يقينية وواضحة بذاتها ، لأن لدينا من الإمكانيات والقدرات العقلية ما يسمح لنا بإدراكها ومعرفتها بهذه الدرجة من الوضوح ، والتسليم بها ، وذلك عن طريق الحدس أو البرهان .[5]

ومهما كان الأمر ، يرى لوك أن قضايا : اثنان واثنان يساوي أربعة ، الأحمر ليس هو الأزرق . . . الخ ، ليست مبادئ أولية عامة يمكن استخدامها على نحو واسع ، وهي بالتالي غير مرتبطة بأية حال من الأحوال مع البرهان المتصل بالموافقة العامة التي نمنحها لقضية ما بمجرد سماعها ، وفهم معناها .

---

(١) د . عزمي اسلام ، جون لوك ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٤٥ .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٤٦ .
(٥) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

بالنسبة لهذا المبدأ : " من المستحيل أن يوجد شيء ولا يوجد في الوقت نفسه " . إنه في غاية العمومية ،ومع ذلك لا يدل على أنه فطري ، بل بالعكس إنه أبعد ما يكون فطريا . لأن الأفكار العامة والمجردة ، بما أنها غريبة عن ذهننا من أفكار القضايا الخاصة الواضحة بذاتها ، فإنها تأتي إلى الذهن أثناء مرحلة النشوء والارتقاء .[1] ثم أن الموافقة التي نمنحها لبعض القضايا بمجرد سماعها ، وإدراك معناها ، انها لا تجعلنا نعتقد أن هذه القضايا فطرية ، بل تدل على خلاف ذلك تماما ، لأن ذلك يفترض أن الناس الذين يعرفون أشياء كثيرة يجهلون هذه المبادئ قبل أن تعرض عليهم ،[2] أو قبل أن يسمعوا عنها شيئا .

يتساءل لوك فيما إذا كانت هذه الحقائق فطرية منقوشة في العقل ، ومطبوعة فيه أصلا ؟ فما الحالة التي تعرضها ،والقبول بها ؟ يكتب في هذا الصدد : " لنفرض أن هناك مثل هذه الانطباعات ،فيلزم أن تكون معروفة من قبل ، قد يقولون إننا بعرضها ،نطبعها بدقة في العقل أكثر مما تستطيع الطبيعة أن تفعل ؟ بناء عليه ينتج أن الإنسان يعرف هذه الحقائق بصورة أفضل من السابق " .[3] ويخلص إلى القول : "إنه ينبغي أن تعرف هذه المبادئ بطريقة أكثر يقينية من أنه لو كانت الطبيعة وحدها هي التي طبعتها في عقلنا ، الشيء الذي يتوافق مع قولنا بأن هناك مبادئ فطرية " .[4]

من هنا تصبح هذه المبادئ عاجزة ،وغير قادرة على أن تكون أساسا لكل معارفنا .

لوك ،لا ينكر بأن الناس يعرفون هذه الحقائق ،وهذه المبادئ بوضوح ، ما أن تعرض عليهم ، لكن هذا لا يعني أنها فطرية . قد يقول مناصرو المعرفة الفطرية إن العقل لم تكن لديه معرفة واضحة بهذه المبادئ ، لكن كانت لديه معرفة ضمنية بها قبل أن تعرض عليه للمرة الأولى . وهذا يشبه إلى حد ما فكرة القوة والفعل عند أرسطو ، فهذه الأفكار وهذه المبادئ موجودة بالقوة في عقل الانسان ، وهذا

---

1) Ibidem.
2) Ibidem.
3)Ibid,P:18
4)Ibidem.

القول ينطبق على كل الذين يقولون بأن هذه المبادىء موجودة في العقل قبل أن تعرف

يكتب لوك : " ليس من السهل إدراك (فهم) ما يقصده هؤلاء من قولهم : ثمة معرفة منقوشة في العقل بصورة ضمنية ، اللهم إذا كانوا يريدون بهذا ، أن النفس قادرة على فهم عدة قضايا ، ومنحها موافقة عامة ، وإذا كان هذا هو المقصود ، يجب القول بأن كل الأدلة الرياضية هي حقائق منقوشة على نحو طبيعي ، مثلها مثل المبادىء الأولى " (١) .

ويرد لوك معترضا على هذا بقوله : " لكن لماذا لا يوافق عليها أصحاب النزعة التجريبية الذين يرون أنه من الصعب التدليل على قضايا من هذا النوع على أنها مطبوعة في العقل " (٢) وعلى ذلك ، فإن كل القضايا التي يوافق عليها الناس بمجرد سماعها لأول مرة ، لا يمكن بأية حال اعتبارها فطرية ، إذ ليس هنا ما يدل على ما هو فطري ، لا الألفاظ التي تعبر عن هذه القضايا ، ولا استخدام العقل الذي يؤدي إلى توضيح الأفكار المتضمنة في هذه القضايا ، ولا الأفكار نفسها التي تحددها هذه الألفاظ (٣) بل إننا نكتسبها اكتسابا ، نحفظ الألفاظ التي نستخدمها للتعبير عنها ، ثم نتوصل إلى معرفة الرابطة الحقيقية بين الأفكار .

فالطفل قد لا يمنح موافقته لهذه القضية : " إنه من المستحيل أن يوجد شيء ولا يوجد في الوقت نفسه " . إلا بعد مضي عدة سنوات ، ذلك أنه بالرغم من أن الألفاظ التي تعبر عن تلك القضية ، قد تكون أكثر سهولة ويسرا في الحفظ من الفاظ : التفاحة ليست نارا " بينما معناها أكثر اتساعا ، وأكثر تجريدا من الألفاظ القائمة على التعبير عن هذه الأشياء المحسوسة (٤) . فهو لا يعرف المعنى الدقيق لهذه التعابير المجردة . إذ يلزمه مزيدا من الوقت ، ليتمكن من تكوين أفكار عامة في ذهنه بشكل واضح .

فقبل أن يكتسب معرفة الأفكار المتضمنة في هذه القضية ، وقبل أن يحفظ الأسماء التي تعطى لهذه الأفكار ، كان يجهل تماما هذه القضية ، والقضية السابقة عليها ، التفاحة ليست نارا " (٥) .

1-Ibid,P;19
2-Ibidem.
3-Ibidem.
4-Ibidem.
5-Ibidem.

هذه هي الأسباب التي دفعت جون لوك يشك في المبادىء والحقائق المسماة بالفطرية ، وكانت النتيجة أن رفضها جملة وتفصيلا .

وقد بين - كما شاهدنا سابقا - أصل ومنابع معارفنا ، والطريقة التي يتوصل بها عقلنا لمعرفة الأشياء ، وتحديد درجات الموافقة التي نمنحها لمختلف الحقائق التي نعتنقها .

وهكذا يختم لوك حديثه في هذا الموضوع فيقول : " وأخيرا ولكي أقول ما أود عرضه ضد الحجة المستمدة من الموافقة العامة (الاجماع الكلي) التي تذهب إلى إقامة مبادىء فطرية ، أوافق الذين يستخدمونها على أن هذه المبادىء إن كانت فطرية فيلزم بالضرورة أن تكون الموافقة عليها شاملة ، لا أن تكون حقيقة ما فطرية ، ولا تحظى بالموافقة الكاملة ، وهذا شيء في رأيي أعسر فهما من تصور انسان يعرف ويجهل حقيقة معينة في الوقت نفسه ، وقولهم هذا ، يدل بوضوح على أن المبادىء التي يسمونها فطرية لن تكون فطرية ، لأنها لا تحظى بالموافقة من الذين لا يفهمون الألفاظ التي يعبر عنها ، ولا حتى أولئك الذين يفهمون هذه الألفاظ ، غير أنهم لم يسبق لهم أن سمعوا بها ، ولم يكن لديهم أدنى تصور عنها "، [1] وهذا يعني أن قسما كبيرا من الناس يجهلون تلك القضايا . فإذا كان الأطفال من ضمن أولئك الذين يجهلونها فإن هذا كاف - في نظر لوك - لتقويض هذه الموافقة العامة ، التي يتحدث عنها دعاتها ، من الأساس .

لنقرأ لدى لوك : [2]

" من الواضح أن هذه القضايا ليست فطرية على الاطلاق . من الواضح أن هذه القضايا ليست فطرية على الاطلاق . لكي لا أهتم باقامة براهين على أفكار الأطفال الغير المعروفة لدينا ، واستخلاص استنتاجات عما يجرى فيها حقا ، أقول ، إن القضيتين العامتين اللتين تحدثنا عنهما فيما سبق ، ليست هي الحقائق الأولى التي توجد في أذهان الأطفال ، وليست سابقة قطعا على الأفكار المكتسبة التي تأتي من الخارج (من العالم الخارجي) وهو ما ينبغي أن تكون عليه لو كانت فطرية " . [3]

فيتساءل : " لا أدري ، هل بإمكاننا تحديد الوقت الذى يبدأ الأطفال التفكير فيه ؟ " . [4]

---

1) Ibid,P;20
2) Ibid, P;21
3) Ibidem.
4) Ibidem.

يجيب لوك بالنفي ويقول : " إنه ليس بإمكاننا أن نفعل ذلك بتاتا ، ولكن هذا لا يعنينا حاليا " .(١)

المهم أن هناك بالتأكيد وقت يبدأ فيه الأطفال في التفكير ان كلامهم وتصرفاتهم تثبت لنا ذلك ، فالطفل مثلا يعرف جيدا بأن مربيته ليست هي القطة التي يلعب معها ،كما يعرف بنفس المقدار أن الدواء (القاتل لديدان البطن) أو الخرذل التي يرفض تناولها ، ليست هي التفاحة أو الحلوى التي يرغبها ، لكن بالمقابل ، لا يعرف شيئا عن المبادىء العامة ، مثل المبدأ الذى سبق الإشارة إليه ،وهو أنه " من المستحيل أن يوجد شيء ولا يوجد في الوقت نفسه " . وذلك في الوقت الذى يبدأ فيه بالتعرف على لعبه .

فهناك أناس يجرؤون على التأكيد بأن الأطفال لديهم أفكار عن هذه المبادىء العامة المجردة . يرد عليهم لوك قائلا : " يمكن أن نقول عنهم دون أن نظلمهم ، بأنهم في الحقيقة مندفعون بعواطفهم " .(٢)

وهو يرفض - كما سبق القول - أن تكون لدى الأطفال ، والمتوحشين مثل هذه الأفكار أو هذه المبادىء .

يقول في هذا المعنى : " أرجوكم ان تجيبوني ، أي الحقائق هذه ، وأي مبادىء عامة يمكن أن توجد في ذهن الأطفال والبلهاء والمتوحشين ؟ لا نرى لها أي أثر ، فأفكارهم قليلة ومحدودة جدا ! . . . فالطفل يعرف مرضعته ويتوصل لا شعوريا لمعرفة الأشياء المختلفة التي تخدم العابه بقدر ما يتقدم به العمر ، والشيء نفسه بالنسبة (للمتوحشين) للمتوحش ، فدماغه ربما يكون مليئا بأفكار الحب ،أو الصيد ، إذا كانت هذه الأمور يجرى العمل بها " .(٣) ثم يستدرك لوك ويقول : " ولكن إذا حاولنا رؤية الحقائق العامة المجردة ،وهذه المبادىء الأولى للعلوم في ذهن طفل صغير ، أو في ذهن أحد سكان الغابات بدون تعلم ، سنكون - في وجهة نظرى - مخطئين كثيرا " .(٤) ويضرب لذلك مثلا بالهنود الذين يسكنون الكهوف

---

1) Ibidem.
2) Ibidem.
3) Ibid,P; 23
4) Ibidem.

لا يستطيعون التحدث عن مثل هذه القضايا لأنهم لا يعرفونها . لنسأل لوك هذا السؤال : أين تعرف هذه الحقائق العامة ؟ يجيب ، بأنها تعرف في المدارس ، وفي الأكاديميات التي توجد فيها مهنة التعليم والعلم . وفيها نناقش مسائل مجردة . وهذا يعني أنها تكتسب بالتلقي والتعلم .

ومضى يقول : " ومهما يكن الأمر فلن أستطيع أن أرى حتى الآن على اي اساس يمكن اعتبار هاتين القضيتين النظريتين كمبادىء فطرية : " كل ما هو موجود موجود ، ومن المستحيل أن يوجد شيء ، ولا يوجد في الوقت نفسه " ، بما أن هذين المبدأين لا يحظيان بالإجماع الكلي ، وأن الموافقة التي نمنحها لهما لا تختلف في شيء عن الموافقة التي نمنحها للقضايا الأخرى ، والمتفق على انها غير فطرية البتة .

وأخيرا ، بما أن هذه الموافقة قد نشأت بطريقة أخرى ، ولم تنشأ نتيجة تأثيرات طبيعية " (١) .

ويخلص إلى القول : " إنه والحالة هذه ، إذا كان هذان المبدآن النظريان غير فطريين قطعا ، فأعتقد بدون أن تكون ضرورة للتدليل افتراض وعدم وجود أية مبادىء أولية نظرية خالصة بامكاننا اعتبارها فطرية " (٢) .

فكما رفض لوك فطرية الأفكار النظرية ، رفض أيضا العملي منها ، وسنأتي الآن للحديث عنها .

المبادىء العملية

المقصود بالمبادىء العملية ، المبادىء الخاصة بالأخلاق والدين . فبعد أن رفض لوك فطرية المبادىء النظرية - كما شاهدنا . يرفض أيضا فطرية المبادىء العملية ، يرفض أن تكون هذه المبادىء قبلية سابقة على التجربة .

يكتب في هذا المجال ما يلي : " إذا كانت المبادىء الأولى النظرية التي تحدثنا عنها في الفقرة السابقة لم تحظ بالموافقة العامة - كما برهنا على ذلك - واضح

---

1) Ibid, P; 24
2) Ibidem.

جدا فيما يخص المبادىء العملية ، انه ينبغي أن لا تحظى بالموافقة العامة أيضا " .(١)

لأنه - في تصوره - سيكون من الصعب خلق قاعدة أخلاقية تحظى بالموافقة من جميع الناس كالمبدأ : " من المستحيل أن يوجد شيء ، ولا يوجد في الوقت نفسه " . ويرى أن الصفة الفطرية تتوافق إلى حد ما مع المبادىء العملية أكثر من توافقها مع المبادىء النظرية ، ولعل هذا هو السبب الذى يجعله يشك في فطرية المبادىء العملية أكثر من شكه في فطرية المبادىء النظرية . وهذا لا يعني - حسب نظره - أن هذا الشك سيؤدى بحال إلى جعل حقيقة هذه المبادىء موضع تساؤل ، فهي حقيقة بالرغم من أنها ليست بديهية واضحة بذاتها .

فإذا كانت المبادىء النظرية واضحة بذاتها لا تحتاج إلى برهان ، فإن المبادىء العملية لا يمكن التأكد من صحتها إلا عن طريق التأمل وتركيز الذهن .

بيد أن رفض لوك أن تكون المبادىء العملية قبلية ، سابقة على التجربة ، لا يعني بأى وجه من الوجوه العمل على الاضعاف من حقيقتها ومن يقينيتها ، مثلما لا يعني ذلك انتقاصا من حقيقة ويقينية القضية : " الزوايا الثلاث للمثلث تساوى زاويتين قائمتين ، إذا قلنا بإنها ليست أكثر بداهة من هذه القضية : الكل أكبر من الجزء .

والمهم لدى لوك أن تكون قواعد الأخلاق قابلة للبرهنة ، ولا يمكن أن تتم الموافقة عليها بمجرد سماعها لأول وهلة .(٢)

ولما كان كثير من الأشخاص يجهلونها ، وآخرون يوافقون عليها ، إنما بشيء من التردد والحذر . ويتبين من هذا أنها ليست فطرية .(٣) فالعدالة ، ومراعاة العقود (المعاهدات) التي تبدو أن الناس يتفقون حولها ، هي ، كما يرى لوك ، مبدأ يأخذ به حتى قطاع الطرق وكبار المجرمين ، بحيث أنه إذا كانوا من اولئك الذين يدمرون البشرية ، فهم - على الأقل - مخلصون لبعضهم البعض ، ويراعون قواعد العدالة فيما بينهم .(٤)

---

1) Ibidem.
2) Ibid,P;25
3) Ibidem.
4) Ibidem.

لوك يوافق على أن اللصوص يطبقون قواعد العدالة ، أو البعض منها على الأقل ، لكن الشيء الذى لا يوافق عليه اطلاقا ، أن تكون هذه القواعد مبادىء فطرية ، مطبوعة ومنقوشة في نفوسهم . إنهم يراعونها ويطبقونها في حياتهم اليومية . إذ أن مراعاة هذه القواعد وتطبيقها لازمة ولازمة للحفاظ على وحدة وتماسك جماعتهم .

العدالة والحق ، كما يعتقد لوك - هما رابطتان مشتركتان لكل مجتمع - ولهذا السبب ، فإن قطاع الطرق ، واللصوص الذين ينعزلون عن باقي الناس ، هم مجبرون على الإخلاص ، والمحافظة على بعض قواعد العدالة فيما بينهم ، الشيء الذى بدونه لن يستطيعوا العيش معا ولو لحظة واحدة . ولكن من ذا الذى يجرؤ على الاستنتاج من هذا ، بأن هؤلاء الذين لا يعيشون إلا على السلب والاحتيال لديهم مبادىء الحق والعدالة منقوشة في نفوسهم بصورة طبيعية ويمنحونها موافقتهم ؟ (١)

قد يقول قائل بإن تصرف قطاع الطرق على خلاف معرفتهم ، بمعنى أنهم يقرون ضمنا في نفوسهم الشيء الذى يكذبه سلوكهم وتصرفاتهم ، يرد لوك على هذا معترضا ، ويقول : " أولا : أعتقد أننا لن نستطيع معرفة أفكار الناس على نحو أفضل إلا من خلال تصرفاتهم . . . ولما كان معظم الناس قد يتساءلون عن هذه المبادىء ، وربما أنكروا حقيقتها . فمن غير الممكن أن نؤيد القول بأنها ستلقى موافقة شاملة دون أن يستنتج منها بأنها فطرية ، هذا من ناحية ، من ناحية أخرى ، ليس هناك سوى الراشدون الذين يمنحون موافقتهم لهذه الأنواع من المبادىء . (لوك يستثني من ذلك - كما رأينا - الأطفال والبلهاء والمتوحشين) .

ثانيا : انه شيء غريب حقا ، ومناقض للعقل الاعتقاد بأن بعض المبادىء العملية التي تنتهي بتأملات خالصة أن تكون فطرية . إذا كانت الطبيعة قد تحملت عبء نقش المبادىء العملية في نفوسنا ، فيلزم أن تنتج أعمالا مطابقة لها ، وليست الموافقة البسيطة هي التي تجعلها حقيقة . من جهة أخرى ، فمن العبث تمييزها عن المبادىء الأولى التي تنتهي بتأملات خالصة ". (٢)

لوك يقر بأن الطبيعة قد خلقت في الناس الميل إلى السعادة والنفور من البؤس والشقاء ، يمكن ملاحظة ذلك في أي جنس بشرى بمختلف أعماره .

---

1) Ibidem.
2) Ibidem.

لنقف قليلا حول مسألة الميل الذى يتحدث عنه لوك ،ألا يشبه ما يمكن تسميته بقابليات ، واستعدادات العقل لتقبل الأفكار ؟ التي قال بها ديكارت ولايبنتز ؟ فإذا قلنا مثلا ،إن النفس تميل إلى الخير ، ألا يعني الميل هنا من طبيعة النفس ؟ أعتقد ذلك ، وبالتالي يكون الميل عند لوك نوعا من التنازل للمثالية ، مثل ما حدث له في فكرة الاله ، وفي الفصل بين الكيفيات الأولية والثانوية .

وعلى أية حال ، فهناك سبب آخر يجعل لوك يشك في أن هناك مبادىء عملية فطرية ، وهو أننا ، لن نستطيع افتراض أية قاعدة أخلاقية من غير أن نسأل عن برهانها .

وانطلاقا من هذا ، فإنه من المستحيل أن نتصور وجود مبادىء عملية فطرية ، لأن كل مبدأ فطرى يقتضي أن يكون بديهيا ، حتى لا يحتاج إلى دليل أو برهان لمعرفة حقيقته ، ولا إلى أية حجة تجعله يحظى بالموافقة العامة الشاملة .(١)

لوك يحاول أن يقارن بين القضية " من المستحيل أن يوجد شيء ، ولا يوجد في الوقت ذاته " ، وبين القضية (وهي قاعدة اخلاقية) : " لا تعامل الآخرين إلا بما تحب أن يعاملوك به " ، أو بصيغة اخرى "عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به " .

فالقضية الأولى بديهية ،واضحة بذاتها لا تحتاج إلى برهان ، بينما القضية الثانية ، ليست بديهية ، وهي بحاجة إلى برهان فإذا عرضنا هذه القاعدة على شخص لم يسمعها قط من قبل ،ولكنه رغم ذلك قادر على فهم معناها ، لابد أنه سيحتاج إلى من يكشف له حقيقتها . ثم ان حقيقة القواعد الأخلاقية تتعلق ببعض الحقائق الأخرى السابقة المعروفة ، وتستخلص منها عن طريق التفكير أو التأمل . الأمر الذى لا يمكن أن يكون ،لو كانت هذه القواعد فطرية .(٢)

فيما يتصل بمراعاة العقود والمعاهدات ، هي من دون شك من أكبر الواجبات الأخلاقية المسلم بها .(٣)

إذا سألت مسيحيا يؤمن بالثواب والعقاب ، لماذا يجب على الإنسان القيام بوفاء عهده ؟ سيجيبك بأن السبب في هذا يرجع إلى أن الله الذى يحكم

---

1) Ibidem.
2) Ibidem.
3) Ibidem.

بالسعادة ، والشقاء هو الذى يأمرنا بذلك .(١)

إذا سألت أحد اتباع هوبز السؤال نفسه سيرد عليك بأن الجمهور يريد ذلك ، وان (ليفيدان*) - Leviathan - سيعاقبك اذا فعلت العكس(١) !

أما إذا سألت الفيلسوف (باين) Payen سيجيبك بأن نقض العهد هو شيء غير شريف ، وغير جدير بسمو الإنسان ، ومناقض للفضيلة .(٢)

عن هذه المبادىء المختلفة ينساب بشكل طبيعي هذا التنوع الكبير من الآراء التي يصادفها الناس في ميدان الأخلاق ، وهذا التنوع في الآراء المتعلقة بالأخلاق ، كان بالإمكان أن يكون مجهولا لدى الناس بصورة مطلقة ، لو كانت ثمة مبادىء عملية فطرية .(٤)

ومن جانب آخر ، يقول لوك : " إن كل الناس يمكنهم الاتفاق على تقبل كثير من القواعد الاخلاقية بالإجماع الكلي ، بدون معرفة ، وادراك الأساس الحقيقي للأخلاق الذى لا يمكن أن يكون شيئا آخر سوى إرادة الله ، أو قانون الله ، وبه تتم رؤية اعمال الناس ، وعلى هذا النحو ، يملك الله بين يديه العقاب والثواب ، وله القدرة الكافية لمحاسبة الذين يخرجون عن أوامره "(٥) .

نلاحظ هنا مرة أخرى تنازل لوك للمثالية ، فتأكيده على إرادة الله ، أو قانون الله ، ومسألة الثواب والعقاب ، إن هو إلا دليل على اعترافه ببعض المفاهيم الماورائية ، بالرغم من انكاره لأغلب مفاهيم الاتجاه العقلي ، وبوجه خاص الأفكار الفطرية ، والمعرفة القبلية .

وقد قال - كما شاهدنا من قبل - بفكرة الله ، وميل النفس إلى الخير والسعادة ، وبالجوهر الروحي ، كل ذلك يدخل ضمن تلك المفاهيم الماورائية ، وهذا ليس بغريب على لوك . لأنه كان على ما يبدو رجلا متدينا ، ومخلصا للمسيحية ،(٦)

---

(1) Ibidem .
2) Ibidem

* ليفيدان Leviathan : مؤلف لهوبز ، يتضمن مبادىء المؤلف بافاضة مذهبه في اللذة ، المادية ، ومذهبه في المنفعة ، والاستبداد ، والاسم مستمد من اسم وحش في الاسطورة الفنيقية .

3) Ibidem.
4) Ibid,P,27
5) Ibidem.

(٦) رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، ترجمة : د . محمد فتحي الشنيطي ، الكتاب الثالث ، المطبعات السابقة نفسها ص : ١٧٤ .

مع أن تلك المفاهيم التي قال بها ، كانت ضعيفة نسبيا بجانب الاتجاه السائد في فلسفته ، وهو الاتجاه التجريبي (١) .

وأيا ما كان ، لوك يرى أن الله يجعل العلاقة وثيقة بين الفضيلة والطمأنينة ، وان عمل الفضيلة ضرورى للمحافظة على المجتمع الإنساني (٢) .

وليس من المصادفة في شيء أن نجد كل فرد يسعى ، ليس فقط لتجسيد هذه القواعد ، بل أيضا ليوصي بها الى الآخرين ، مادام مقتنعا بأنهم بمراعاتها سيجنون منافع كثيرة . ربما يكون بدافع مصلحة ، أو عن اقتناع ، لكون هذه القواعد مقدسة ، بحيث اذا تعرضت للدنس فلن يكون في مأمن عن نفسه (٣) .

بالرغم من كل هذا ، لن ينقص في شيء الإلزامية الاخلاقية وسرمديته التي تتضمنها هذه القواعد ، ومع ذلك ، فالموافقة التي يمنحها الناس لهذه القواعد لا تدل أبدا على أنها مبادىء فطرية (٤) .

في الواقع ، يقول لوك : " إننا إذا أردنا بدافع المدنية أن ننسب لأغلب الناس قدرا كبيرا من الصدق ، بل إذا اعتبرنا أعمالهم ، وتصرفاتهم مترجمة لأفكارهم ، فإننا لا نرى في أعماقهم كثيرا من الاحترام لهذه الأنواع من القواعد كما نرى عدم الاقتناع بصدقها ، فمثلا المبدأ الاخلاقي الذى يأمرنا بأن نعامل الآخرين بما نحب أن يعاملونا به ، قد يقول قائل : بما أن الضمير يؤنبنا عندما نخرق هذه القاعدة ، فهذا معناه أننا نعرف عدالتها والزاميتها في أعماقنا " (٥) .

ويمضي لوك قائلا : " فمن غير أن تكون الطبيعة قد نقشت شيئا في قلب الناس فأنا على يقين بأن الكثيرين ... يستطيعون الوصول إلى معرفة عدة قواعد أخلاقية ، متعلقة بالعدالة والالزام . وآخرون يستطيعون تعلمها بالتربية ، وبمصاحبة من يعاشرونهم ، وبعادات وتقاليد بلدهم . وحين يتم الاقتناع ، فإن ذلك سيحرك ضمائرهم " (٦) .

---

(١) د . عزمي اسلام ، جون لوك ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٥١ .

2)Ibid,P;28
3)Ibidem.
4)Ibidem.
5)Ibidem.
6) Ibid,P;29

ثم يضيف إلى ذلك : " لو كان الضمير دليلا على وجود مبادئ فطرية ، لكانت هناك مبادئ متعارضة بعضها مع بعض ، الا يقترف المتوحشون الجرائم ولا يبكتهم ضميرهم ؟ ثم انه لو كانت هذه القواعد فطرية مطبوعة بشكل طبيعي في نفوس الناس ، فكيف يمكنهم ان يخرقوها باطمئنان وثقة تامة ؟ "(1) .

ويأتي بامثلة واستشهادات لتدعيم موقفه ويقول : " لاحظوا مدينة مقتحمة ، وانظروا اذا كان في قلوب الجنود المتحمسة للقتل والسلب بعض الاحترام للفضيلة ، أو لبعض المبادئ الاخلاقية ، او تأنيب الضمير عن الاعتداءات التي يرتكبونها ، لا شيء غير هذا : قطع الطرق ، والعنف ، والقتل ، وارتكاب الجرائم بحرية تامة دون رادع او عقاب "*.(2)

ثم يتساءل لوك : " ألم تكن بعض الأمم وحتى أكثرها تحضرا تبيح لنفسها تعريض اطفالها للموت بالجوع وللافتراس من قبل الوحوش الكاسرة ، بدلا من تربيتهم ؟ وهناك بلدان تدفن اطفالها وهم احياء مع امهاتهم حين يمتن ، أو يقتلون اذا ثبت احد المنجمين بانهم ولدوا تحت نجم مشؤوم "(3) . وفي اماكن أخرى من العالم ، يقتل الطفل ، او يتخلى عن امه وابيه دون ندم ، وذلك عندما يبلغ سنا معينا .

ويذكر لوك ان مكانا ما في آسيا (وان لم يحدد هذا المكان بالضبط ، بمجرد ما ييأس من شفاء مريض ، يوضع في حفرة بالارض ، ويكون عرضة للرياح والفناء ، دون ان تأخذه شفقة او رحمة ، ودون أن تقدم له اية نجدة أو عون . وفي مكان آخر (دون ان يحدده ايضا) ، يأكل الآباء اطفالهم ، وقد اعتادوا على خصيهم ، ليسمنوا ، ثم يأكلونهم بعد ذلك .(4)

1)Ibidem.

* ملحوظة : ماذا يمكن - على سبيل الافتراض - أن يقوله لوك ، لو شهد ما تقوم به الأمبريالية الامريكية ، والصهيونية العالمية وربيبتها اسرائيل ، من غزو واحتلال لأجزاء من الوطن العربي . بدءا من احتلال فلسطين ، وتشريد شعبها ، ووصولا الى غزو لبنان ، وما خلفه من خراب ودمار ، ومذابح (مذبحة صبرا وشتيلا) ، وهذا علاوة على ما تقوم به من جرائم في مناطق أخرى من العالم في افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية .

2)Ibidem.
3)Ibidem.
4)Ibidem.

ويروى Garcillasso أن بعض الشعوب في بيرو Perou كانت لهم عادة الاحتفاظ بالنساء اللاتي وقعن في الأسر ، ويتخذونهن خليلات ، ويطعمون الأطفال الذين ينجبونهم بقدر ما يستطيعون ، إلى غاية ما يصلون إلى سن الثالثة عشر ثم يأكلونهم ، ويقومون بالعمل نفسه مع الأم العاقر التي لا تنجب لهم أطفالا . (١)

هنا يطرح السؤال : أين هذه المبادئ الفطرية للعدالة والرحمة ، والعرفان بالجميل ، والانصاف ، والعفة ، ومن كل ما ذكره وأين هذه الموافقة العامة التي تظهر لنا أن هناك مثل هذه المبادئ منقوشة بصورة طبيعية في نفوسنا(٢)؟ لا شيء من كل هذا . ويخلص لوك إلى القول : " إذا القينا نظرة على ما يجرى في بقية العالم ، نجد بعض الناس في أماكن معينة يترددون حول الاقدام على عمل ما ، أو اهمال شيء ما ، بينما في أماكن اخرى يعتقدون أنهم يستحقون مكافئة لا متناعهم عن الشيء ذاته الذى يقوم به هؤلاء ، أو القيام ببعض الأمور التي يجرؤ الأولون القيام بها " . (٣)

وهذا يدل على أنه ليس هناك اجماع عام وشامل حول المبادئ الأخلاقية وبالتالي هي ليست فطرية . وقد يعترض معترض هنا ، على أن هذا لا يعني أن قاعدة من هذه القواعد مجهولة بالنسبة لمن خرقها . لكن هذا الاعتراض - في نظر لوك - يكون له معنى ، حينما لا يراعون القاعدة ، ولا يتقبلونها كقانون ، أو ينظرون إليها بنوع من الاحترام ، خوفا من تدنيس شرفهم ، أو من الحاق اللوم عليهم ، أو من العقاب إذا هم اهملوها . (٤)

لذلك يحاول لوك أن يعرض أمامنا قاعدة أخلاقية ليؤكد على عدم فطرية هذه المبادئ وهذه القواعد الأخلاقية ، تقول إحدى القواعد : " أيها الآباء والأمهات احبوا ، وحافظوا على ابنائكم " (٥) ثم يبدأ بمناقشتها على هذا النحو: إذا قلنا إن هذه القاعدة فطرية ، فهذا يعني أحد أمرين :

١- إما أن هذه القاعدة تحترم على الدوام من قبل جميع الناس .

٢- وإما أنها حقيقة منقوشة في نفس كل انسان ، والتي ستكون بالنتيجة معروفة عندا لكل ، ويوافق عليها بالإجماع .

---

1)Ibidem.
2)Ibidem.
3)Ibidem.
4)Ibidem.
5)Ibid,P;31

من الواضح أن هذه القاعدة ليست فطرية في أي من هذين الافتراضين (١).

وبهذا يكون لوك قد حاول أن يثبت لنا بالحجج والأدلة ، أن المبادئ سواء أكانت نظرية ، كمبدأ عدم التناقض ، أو مبدأ الهوية ، وما إليهما ، أو كانت عملية (أخلاقية وقانونية) ليست أبدا فطرية .

فيمكن أن نناقش : فبالنسبة للمبادئ النظرية ، بغض النظر عن بعض التنازلات التي أبداها لوك - كما شاهدنا - تجاه المثالية ، فقد بين بما لا يدع مجالا للشك أن هذه المبادئ ليست فطرية ، ولا بإمكانها أن تكون ، فقد سبق أن قال بأن هناك أناسا يعتقدون بوجود أفكار فطرية في العقل ، منقوشة ومطبوعة فيه ، وأن النفس تلقتها منذ وجودها ، وجاءت بها إلى العالم ،ولو كان هذا صحيحا لأمكن للأطفال والبلهاء (مع تحفظ) والمتوحشين والبدائيين أن يعرفوا قانون عدم التناقض ، والذاتية والثالث المرفوع وما خلاف ذلك . لكن في واقع الأمر ، لم يحدث شيء من هذا اطلاقا . فهم لا يعرفون عنها أي شيء ، على الرغم من أن بإمكانهم أن يفكروا تفكيرا سليما . والشيء نفسه فيما يتعلق بالمبادئ الأخلاقية ، أنها تختلف من بلد إلى بلد ، ومن وقت لآخر ، ومن شعب إلى شعب ، ومن دين إلى آخر . فليس هناك اجماع كلي حولها ، إننا نكتسبها من بيئتنا ، ونعتاد عليها كما لو أنها فطرية ، فالله* عند لوك موجود ،ويمكن - في اعتقاده - أن نبرهن على وجوده ، هذا بصرف النظر عن صحة هذا البرهان أو عدم صحته : المهم في الأمر أن فكرة الله عنده ليست فطرية . لأنها غير واردة بالنسبة لأولئك الذين لا يؤمنون به ،وكذلك بالنسبة لبعض القبائل المتوحشة ، والبدائيين . فلو كان في النفس فكرة فطرية عن الله لآمن به جميع الناس . وطبقا لما يذهب إليه جون لوك ، فإن الناس يستطيعون اكتساب جميع المعارف باستخدام قدراتهم وامكاناتهم الطبيعية ، وليس هذا فحسب ، بل يمكنهم كذلك أن يبلغوا اليقين من غير الاستعانة بما يسمونه انطباعات وأفكار فطرية .

علما بأن الاكتساب ليس فقط الموقف الحسي أو العقلي وإنما هو جماع الأمرين أو أكثر من ذلك ، وهي ثمرة التجربة والتربية (٢) وما إلى ذلك .

1) Ibidem

* وقد بينا سابقا بان قول لوك بفكرة الله يعتبر تنازلا للمثالية .

(٢) راجع (د . جميل صليبا ،المعجم الفلسفي المجلد الاول ، المطبعات السابقة نفسها ص : ١١٤ .

فالمعرفة إذن - في نظر لوك ليست فطرية ، سابقة على التجربة . إن جميع الأفكار التي ترد الى الذهن إنما ترجع في الأساس إلى التجربة والإحساس . ذلك أن الانسان كما يقول لوك ، يولد وعقله يشبه صفحة بيضاء خالية من كل أفكار ، وعارية من كل الخصائص والصفات . فما أن تبدأ عملية الإحساس تبدأ عملية الكتابة والتدوين ، أي تبدأ عملية تكوين الأفكار . يكتب لوك في هذا الصدد : " إذا سألت شخصا ما ، متى بدأ يفكر لأجاب على الفور ودون تردد ، عندما بدأ يحس " . هذا هو موقف لوك من نظرية الأفكار الفطرية ، من الأفكار والمبادىء النظرية والعملية .

وكما هو واضح أن نظريته في السياسة جاءت متفقة مع نظريته في المعرفة ، فكما رفض الأفكار الفطرية في المعرفة ، يرفض كذلك الحق الإلهي المقدس للملوك .

فالإنسان يولد وعقله خال من كل الأفكار ، وعار من كل الخصائص والصفات ، وهذا ينسحب كذلك على الأسرة المالكة ، فأفرادها لا يولدون وفي عروقهم الحق الإلهي في الحكم . فالحكم وفق هذا التصور يجب أن يكون خاضعا لرقابة الشعب ، وبتفويض منه ، لا عن طريق الوراثة ، ولا عن طريق التنصيب بالقوة . وكذلك الحال بالنسبة للمعرفة ، انها ليست فطرية ، ولا موروثة ، بل مكتسبة بالتجربة .

وهناك من يشك في صحة هذا ، كرسل مثلا ، فقد اعتقد أن ليس ثمة أي ارتباط بين نظرية لوك في المعرفة ، وبين آرائه في السياسة .

يكتب في هذا المجال : " نفوذ " لوك " في فرنسا في القرن الثامن عشر ، كان نفوذا ضخما ، يرجع الفضل فيه الى فولتير الذى انفق كشاب بعض الوقت في انجلترا ، ويرجع لاء وطنه الأفكار الانجليزية في الرسائل الفلسفية

. . . وانصار لوك الفرنسيون اعتقدوا عن صواب أو عن خطأ بوجود ارتباط وثيق بين نظريته في المعرفة وبين فلسفته في السياسة " (١) .

ثم يعود ليؤكد : " ان هذا الارتباط أقل وضوحا في انجلترا ، ذلك أن اتباع فلسفة لوك حتى الثورة الفرنسية ، لا يبالون بنظرياته السياسية ، فقد كان باركلي أسقفا ، لا يهتم كثيرا بالسياسة . . . " (٢) .

---

(١) رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، الكتاب الثالث . المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٢٤ .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ص : ١٧٢ .

ومن الملاحظ أن لا يبنتز ألف مؤلفه هذا على غرار محاورات أفلاطون ، فثمة شخصيتان : الأولى تدعى (تيوفيل) Théophile تمثل لا يبنتز نفسه ، والثانية " فيلاليت " Philalette ، تمثل جون لوك الفيلسوف الحسي المادى .

يقول لا يبنتز في " مقالات جديدة في الفهم الإنساني " : إن يقين المبادئ الفطرية لا يمكن أن يبنى على الإجماع الكلي ،الذى يعتمد- في نظره - على العموميات ، ليغدو تقليدا يشاع بين الناس . بل يجب أن يبنى بالعمل ،ومن خلاله يمكن كشف البديهيات "، (١) كما يرى ان المعرفة بطبيعة الأشياء لا تكون في أغلب الأحوال إلا معرفة بطبيعة عقلنا ، وبتلك الأفكار الفطرية التي لا حاجة بنا للبحث عنها خارجها . (٢) وفكرة الله مثلا - في تصوراته - لا تكف عن الوجود في أعماق النفس ، وأن قوانين الله الأبدية منقوشة فيها جزئيا ، بضرب من الغريزة ، بمعنى أن الميل الذى لدينا للاعتراف بفكرة الله هو في الطبيعة البشرية . (٣)

ويعود لا يبنتز ليؤكد أن إجماعا عاما بين الناس ، هو مؤشر وليس برهانا لمبدأ فطرى ، لكن الدليل الصحيح والقاطع لهذه المبادئ يتركز أصلا على اظهار أن يقينها لا يأتي إلا مما هو فينا . (٤) ثم يرد على لوك قائلا : " أستطيع أن أقول لكم بأنه حينما لا تكون هذه المبادئ معروفة ، فإنها لا تكف عن كونها فطرية ، فهي تعرف حين تدرك " . (٥) ويعتقد أن كل الناس يعرفونها ، ويضرب مثلا على ذلك ،بمبدأ عدم التناقض ،بأنه يستخدم في كل لحظة دون رؤيته بوضوح ، ومن دون تفكير . (٦)

لا يبنتز لم يندهش لكون لوك رفض المعارف الفطرية ،وإنما ما أدهشه وحيره هو كون لوك لم يخطر على باله أن لدى الإنسان معارف لا تحصى ولا تعد ، والتي لا نتبينها دائما ، ولا حتى عندما نكون بأمس الحاجة إليها . فتكون الذاكرة قد قامت بحفظها ، وعلى التذكر القيام باستحضارها من جديد . (٧) أظن أن ما قاله

1)Leibniz,Nouveaux essai sur l'entendement humain Ibid,P;60

(٢) لا يبنتز - المونادولوجيا ، المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها .

3) Ibid,P;61
4)Ibidem.
5). Ibidem.
6) Ibidem.
7) Ibid,P;63

وأيا ما كان ، فإن نظرة لوك الموضوعية لأسبقية الإحساس على التفكير لها تأثير كبير سواء في الفلسفة المعاصرة له ، أو اللاحقة به ، وسواء أكان هذا التأثير سلبا أو ايجابا (١) .

والمقصود بالتأثير السلبي هنا ، الاتجاه الفلسفي الذى عارض فلسفة لوك ، وتناول تجربته بالنقد ، منتهيا الى النزعة الذاتية . ويبرز لا بينتز كمثال على ذلك .

أما المقصود بالتأثير الايجابي ، الاتجاه الفلسفي الذى تناول فلسفة لوك التجريبية ، ثم عمقها وطورها ، مثل الفلسفة الحسية عند هيوم ، والفلسفة المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر منهم كوندياك ، وديدرو ، وهولباخ ، ولامترى ، وغيرهم .. وسأتناول كل هذه الأمور بشيء من التفصيل .

ولا بُدَّ أن يرد لا بينتز على فلسفة لوك التجريبية :

كانت فلسفة لا بينتز في منحاها العام بمثابة رد فعل مباشر للاتجاه التجريبي عند جون لوك ، هذا فضلا عن كونها امتدادا للاتجاه العقلي عند ديكارت .

وعلى الرغم من هذا التعارض الموجود بينهما ، وخاصة في معنى المعرفة ، وفي فطرية الأفكار ، هناك أوجه الشبه بينهما في بعض المشكلات الفلسفية ، مثل فكرة الجوهر ، وفكرة العلاقات ، ومعنى المعرفة البرهانية ... الخ ، وهي تقريبا الموضوعات التي تمثل أغلب ميتافيزيقا لوك . (٢) فبعد أن ظهر مؤلف لوك " مقالة في الفهم الانساني " ذاع صيته ، ونال شهرة واسعة ، لا في انجلترا فقط ، بل في أوربا بشكل عام ، وهذا المؤلف كان في الواقع أداة قوية لنشر أفكار المادية التجريبية ، بالرغم من بعض التراجعات باتجاه الفطرية العقلية .

قرر لا بينتز معارضة لوك بنظريته الخاصة التي تدافع عن المثالية ، والأفكار القبلية في نظرية المعرفة ، وذلك في مؤلفه الموسوم : " مقالات جديدة في الفهم الانساني " . * كرد فعل على مؤلف لوك السابق الذكر . الذى يعرض فيه محتوى مؤلف لوك ، ويتناول بالنقد موضوعاته الرئيسة ، وخاصة تلك المتعلقة بالأفكار الفطرية والتي سأعرض لها في حينها .

---

(١) د . عزمي اسلام - جون لوك ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٨١ .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٩٥ .

* ملحوظة : ان هذا المؤلف ، لم ير النور الا بعد وفاة صاحبه بنصف قرن من الزمن .

لا ينتز عن لوك غير صحيح ،ذلك أن لوك لم ينكر بأية حال وجود الذاكرة ،ولا وظيفتها وإنما أنكر أن تكون هذه الافكار الموجودة في الذاكرة منقوشة ومطبوعة بصورة طبيعية ، إذ يؤكد اكتسابها بالتعلم والتلقين .

لا ينتز على خلاف لوك ، يعتبر أن كل الحساب والهندسة هي فطرية أيضا ، وهي موجودة فينا بالقوة ، مستشهدا بمحاورة مينون ،وفيها يذكر أفلاطون على لسان سقراط أن مينون استطاع الوصول إلى حقائق مجهولة ، وذلك عن طريق الأسئلة فقط ، التي كان يطرحها عليه سقراط، من غير أن يلقنه أي شيء (١) .

ويستنتج لا ينتز من هذا ، أنه يمكن أن تنشأ هذه العلوم (الحساب والهندسة) وغيرها من داخل المرء نفسه ،من غير أن يتعلمها عن طريق البصر ، ولا حتى باللمس، و يورد مثلا آخر - محاولة منه لتدعيم موقفه المثالي - عن طفل سويدى استطاع - على حد زعم لا ينتز - أن يثقف نفسه بالمنطق والحساب دون أية مساعدة ، حتى استطاع أن يقوم بعمليات حسابية كبيرة في ذهنه وبصورة مباشرة وفورية ، دون أن يكون قد تعلم الطريقة المألوفة للعد ، ولا حتى القراءة والكتابة * (٢) .

ويقول مستدركا : " صحيح أنه لا يمكن التغلب على المسائل المعقدة كتلك التي تتطلب استخراج الجذور ،ومع ذلك لا يمنع قط من امكان انتزاعها من أعماق الإنسان ، ولو أن هذا على الأغلب ليس بالأمر الهين " (٣) .

فإذا كان لوك يرى أن من التناقض القول بأن ثمة حقائق منقوشة في النفس ، وأن النفس لا تعرفها ،ولم تلحظ وجودها ، فإن لا ينتز لا يرى استحالة في ذلك ، على الرغم من أننا لا نستطيع التأكد من وجودها ،وهذا راجع إلى أن هناك أشياء دقيقة جدا لا يمكن معرفتها في مجرى حياتنا الراهنة ، ويمكن لها أن تنمو في نفوسنا ، ثم يتم ادراكها فيما بعد (٤) ، كما يرى أن أصل الحقائق الضرورية تأتي من العقل وحده ، أما الحقائق الأخرى ، فانها تأتي من التجارب ،ومن الحواس (٥) .

---

* لا ادرى من اين استقى لا ينتز هذه الرواية ،وما مدى صحتها ؟

1)Ibid,P;62
2)Ibidem.
3)Ibidem.
4)Ibid,P;63
5)Ibid,P;64

فثمة اختلاف بين الصور التي ترسم على الحجارة أو على الرخام ، وبين التي عروقها مرسومة سابقا .

وبالاتفاق مع مذهبه المثالي في أصل المعرفة يميز بين نوعين من الحقائق :

١- حقائق الوقائع :

وهي الحقائق التي تأتي من الحواس ، فمصدرها التجربة ، ولا يمكن البرهان عليها ، أو الاعتماد على الاستدلال المنطقي وحده ، إنها حقائق غامضة ومبهمة .(١)

٢- حقائق عقلية أو ماورائية :-

ليس مصدرها الإحساس ، بل تستخلص بواسطة العقل ، وهي واضحة ومتميزة لا تحتاج إلى التجربة . ويكفي التسليم بصحتها ، ما لم تجد ما يعارضها أو يناقضها .

إن الحقائق العقلية إذن - عند لايبنتز - نستخرجها من العقل ذاته . ويتساءل في هذا الصدد ، كيف نستطيع امتلاك فكرة الوجود إن لم نكن نحن أنفسنا كائنات ، ولا نجد الوجود فينا كذلك ؟(٢)

وأن قضايا الحساب والهندسة هي من هذه الطبيعة ، ومن مادة الحقائق الضرورية ، وقد أوضح لوك أن الأطفال والمتوحشين ليست لديهم معارف فطرية لأنهم لا يدركونها . أما إذا كان الأمر على العكس - فرضا - ستكون الطبيعة قد قدمت جهدا ضائعا ، وبلا طائل ، أو على الأقل ستكون الطبائع غير ثابتة ، إذ أنها ستكون غير مدركة بالعين التي ترى بصورة جيدة أشياء أخرى .(٣)

ويعتقد لايبنتز أن تأمل العقل Aperception * في ما فينا ، يقتضي الانتباه ، وليس فقط أن هذا ممكن ، بل أنه أيضا ملائم ، ان الاطفال على حد تعبيره ، يكونون أكثر انتباها للأفكار والمفاهيم المتصلة بالإحساس ، لأن الانتباه يحدد من قبل الحاجة ، ومع ذلك يتبين أن الطبيعة لا تقدم لنا قط جهدا - فيما

---

1) Ibid,P;65
2)Ibid,P;70
3)Ibidem.

* Aperception : تأمل العقل : انعكاس العقل على نفسه . (وكان لايبنتز اول من استعمل اللفظ ليفرق بينها وبين Perception الذى هو ادراك الموضوعات الخارجية) . راجع مصطلحات الفلسفة ، تأليف د . ابوالعلا عفيفي ، د . زكي نجيب محمود ، ص : ١٣ .

يتصل بانطباع المعارف عبثا ، إذ بدونها لا يكون هناك أية وسيلة في المعرفة لفهم الحقائق الضرورية في العلوم البرهانية ، وفي الأشياء المادية ، وبالتالي لا يكون بيننا وبين الحيوان أي فرق .(١)

لا بينتز ، بعد أن ميز بين حقائق الوقائع ، والحقائق العقلية ، يميز أيضا بين الحقائق والأفكار .

إن الأفكار - في نظره - فاعلية ، أما المعارف والحقائق بقدر ما هي فينا ، فإننا لا نفكر فيها قط ، هي عادات واستعدادات مشيرا إلى أننا نعرف جيدا الأشياء التي لا نفكر فيها إلا نادرا ، فيقول : " إذا لم تكن الحقائق أفكارا ، بل عادات وكفاءات ، طبيعية أو مكتسبة ، لا شيء يحول دون وجودها فينا ، والتي لم نفكر فيها ، ولن نفكر فيها أبدا " .(٢)(٣)

هذا هو موقف لا بينتز من المبادئ النظرية الفطرية ، التي انتقدها لوك ، كما بينا .

أما فيما يتصل بالمبادئ العملية - الأخلاق - يؤكد لا بينتز أن مبادئ الأخلاق وقوانينه ، منقوشة ومطبوعة في النفس .(٤) لوك - كما شاهدنا - يرى أن القواعد الأخلاقية بحاجة إلى إقامة الدليل على اثباتها ، فهي ليست فطرية .

فقد أورد مثلا بالقاعدة : " لا تعامل الناس إلا كما تحب أن يعاملوك به " . يرد عليه لا بينتز قائلا : " أنت تعارضني دائما في مادحضته ، أوافق ياسيد ، بأن هناك قواعد أخلاقية ، هي ليست مبادئ فطرية قطعا لكن هذا لا يمنع من أن لا تكون هناك حقائق فطرية ، ذلك أن الحقيقة المشتقة ، تصبح فطرية عندما نستطيع استخلاصها من عقلنا " .(٥)(٦)

فالحقائق الفطرية - حسب تصور لا بينتز - نحصل عليها بطريقين :

١- من خلال النور الطبيعي .

٢- ومن خلال الغريزة .

1- Ibid,P;71
2- Ibid,P,71
3- Ibidem.
4- Ibid,P;73
5-Ibid,P;74
6-Ibidem.

فنحن نميل إلى الأفعال الإنسانية بالعقل لأنه حق ، وبالغريزة لأنها ترضينا ،[1] هناك إذن - على حد زعم لا يبنتز - حقائق غريزية فينا ، وهي مبادئ فطرية نحس بها ، ونوافق عليها ، ولو أننا لم نبرهن عليها قط ، نحصل عليها ، مع ذلك حينما يخضع العقل لهذه الغريزة . لكن علماء المنطق يقيمون الدليل بالعقل مثل علماء الرياضيات الذين يستخدمون العقل أيضا عما يقومون به من غير أن يفكروا في الشيء أو القفز ،[2] أما بالنسبة للقاعدة وبضمونها : " إننا لا نعامل الناس إلا كما نحب أن يعاملونا به " هي بحاجة ، ليس إلى البرهان فحسب ، بل إلى الإثبات كذلك .[3]

فلدى لا يبنتز أن الذى يميل إلى الفرح ، ويتجنب الحزن ليس أكثر فطرية من الرياضيات ، لأن هذا القول ذاته خاضع أيضا للبرهان ، يقوم به النور الباطني (الإحساس الداخلي) . مثلما أن البراهين في البدء لا تبدو للعيان ، فليس من الغرابة في شيء أن لا تظهر للناس أبدا .[4] ذلك أن كل الذين يمتلكونها لا يدركون بسرعة كافية خصائص القانون الطبيعي .

ويزعم أن الله أعطى الإنسان الغرائز التي تميل في البداية ، ومن غير استدلال ، إلى شيء ما ، مثلما نعمل وفق قوانين ميكانيكية ، دون أن نفكر في هذه القوانين ، أو مثلما نأكل ، ليس لأن هذا ضرورى فقط ، بل لأنه مفيد جدا ، فهو يخلق فينا اللذة .[5] لكن لا يبنتز يعود ليقول إن الغرائز تكون معتمة بآراء مسبقة ، وتفسد بالعادات المتناقضة ،[6] ومع ذلك نوافق عليها في أغلب الأحيان من قبل الضمير .

واستنادا إلى كل ما تقدم يمكن تلخيص أوجه الاختلاف بين لا يبنتز ولوك ، فيما يلي :

١- في معنى المعرفة :

لا يبنتز بوصفه فيلسوف مثالي عقلي ، يتناول مشكلة المعرفة - كما بينا - من الناحية المنطقية ، ومن الناحية الماورائية . إنه يعتبر مبدأ عدم التناقض أعلى مبدأ تقوم عليه المعرفة العقلية .[7] بينما يتناول لوك هذه المشكلة من الناحية التجريبية . ونتيجة ذلك

1-Ibidem.
2-Ibidem.
3-Ibidem.
4-Ibidem,P,75
5-Ibidem.
6-Ibidem.

(٧) د . عزمي اسلام - جون لوك - المرجع السابق المعطيات السابقة نفسها ص : ١٩٥ .

كانت معارضة للفلسفة الديكارتية العقلية ، وبوجه خاص ، انكاره لفطرية الأفكار ، وللمعرفة القبلية . فالمعرفة عند لوك مكتسبة ، بينما هي ليست كذلك بالنسبة للايبنتز . فقد رفض لايبنتز ، كما هو معروف تعريف لوك للمعرفة ، الذي يقوم - كما رأينا - على ادراك ما للأفكار من تشابه واختلاف ، فيعتقد (أي لايبنتز) أننا نستطيع بلوغ المعرفة ، بالرغم من أننا لا ندرك مثل هذا الاختلاف أو التشابه بين الأفكار فيكفي الإحساس أو الشعور بها .(١)

من الملاحظ أن لايبنتز أراد بهذا التأكيد على نظريته التي تتوافق مع فطرية المعرفة ، أي الإشارة إلى وجود الأفكار والمبادئ الأولية في منطقة الشعور ، أو قبل الشعور - كما يسميها علماء النفس - لأن عملية المعرفة لديه تبدأ من مستوى ما دون الشعور لتصل إلى أكمل أنواع المعرفة ، وهي الحدسية . وهذا يعني جعل ما كان منذ البداية في النفس أو العقل ، وهو أقل وضوحا ، إلى حالة من الوضوح والتميز في المجال الادراكي ، وعلى هذا النحو ، ليس هناك أية إضافات جديدة إلى ما هو أولى قبلي في النفس في عملية المعرفة ، وكل ما هنالك هو التفاوت في درجات الوضوح والتميز ، التي ندرك بها ما كان موجودا في النفس أو العقل من قبل ،(٢) كما من جهة أخرى الفصل بين المعرفة ، وبين أعلى درجات الاحتمال الذى قال به لوك إذ أن الظن المبني على الاحتمال يجب أن يسمى معرفة أيضا . لذا فدرجات المعرفة - في تصوراته - ينبغي أن تكون أربع ، بدلا من ثلاث ، وهي الحسية والبرهانية ، والحدسية ، ثم رابعا المعرفة الاحتمالية .(٣)

٢- بالنسبة للأفكار الفطرية :

لايبنتز - كما سبق القول - يعتقد بوجود أفكار فطرية في النفس ، ولو على شكل استعدادات أو قابليات ، وقد عبر عن ذلك في أكثر من موضع ، ففي مؤلفه الآتف الذكر " مقالات جديدة في الفهم الانساني " يشير إلى أن الإنسان له احساس أو شعور سابق ، بكل أفكارنا المستقبلية ، بمعنى أن جميع الأفكار التي سنعرفها لاحقا موجودة على نحو ما ، وبطريقة أو أخرى ، في النفس .(٤) وعلى ذلك ، فجميع أفكارنا

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٩٦ .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٩٧ .
(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة ، الصفحة نفسها .

بما فيها احساساتنا بها اصل في نفوسنا ، وهذا ما عارضه لوك بقوة .

وليس من شك في أن لا يبنتز قد استفاد من نقد لوك للأفكار الفطرية ، لذلك ، حاول تفسير فطرية الأفكار مع تجنب الاحراج الذى أظهره لوك حين تساءل كيف يمكن للأفكار أن تكون فطرية ، وفي الوقت نفسه غير معروفة ، وغير مدركة ؟

ويعلن لا يبنتز صراحة أنه بالرغم من أن هذه المبادىء أو الأفكار لم تكن ماثلة بوضوح في مجال الشعور منذ البداية ، إلا أنها موجودة في ما قبل الشعور بالقوة ، ثم ما تلبث أن تظهر فيما بعد ، في المجال الشعورى ، ولذا فالفطرية في نظره هي مجرد طبيعة أو ميل* لتكوين فكرة عن موضوع ما .

هل بهذا المعنى ، جميع الأفكار فطرية في رأيه ؟ أم أن بعضها فطرى ، والبعض الآخر ليس كذلك ؟ يرد لا يبنتز على هذا السؤال بقوله : إن معرفة الفرد وخبرته ليست أكثر من تطور ذاتي لطبيعته ، وما التطور هنا إلا العملية التي تكشف ماكان موجودا في النفس منذ البداية على نحو غامض ، وغير معروف .(١) ثم مالبث أن غير موقفه عندما أصدر كتابه " مقالات جديدة في الفهم الانساني " . وفيه ميز بين نوعين من الحقائق - كما ذكرنا - حقائق عقلية ، وحقائق الوقائع الحسية .

ومهما يكن الأمر ، فإن الحقائق العقلية - في نظر لا يبنتز - فطرية ، بينما حقائق الوقائع أو الحسية ليست كذلك ، لاعتمادها على التجربة أو الخبرة .(٢)

أما فيما يتعلق بأوجه التشابه بين لا يبنتز ولوك يمكن تلخيصها على الشكل التالي :

لا يبنتز يأخذ بمبدأ التجريبية القائل : " بأنه لا يوجد شيء في العقل ما لم يكن من قبل في الحس " . غير أن التجربة - حسب اعتقاده - لا تستطيع أن تفسر الجوانب الأساسية في المعرفة ، كضرورة بعض الحقائق وكليتها ، لهذا أضاف إلى المبدأ السابق الذكر ، هذه العبارة (ماعدا العقل ذاته) ، طالما كان العقل جوهرا يتصف بصفات الوحدة والذاتية ، وأفكارا أخرى (حقائق كلية وضرورية) ذات منشأ

---

* الا تذكرنا كلمة الميل هنا ، بالميل عند لوك . لما قال بان للنفس ميل للسعادة والخير .

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

قبلي يعود إلى العقل ذاته ،[1] يمكن أن يدركها العقل دون الاعتماد على أي شيء آخر سوى ذاته .

وفيما يتصل بفكرة الجوهر لوك - كما شاهدنا - يعتبر الجوهر بنوعيه الروحي والمادي في حكم الأشياء التي لا يمكن معرفتها ، فنحن نعرف من الجوهر ماهيته الاسمية فقط ، أما ماهيته الحقيقية ، فلا نعرف عنها شيئا ، لأن قدراتنا العقلية وإمكاناته محدودة . هنا لوك يميز بين العقل في ذاته (الجوهر العقلي) وهو[2] غير معروف ، وبين وظيفته التي يمكن معرفتها من خلال التجربة . والممارسة العملية . في حين أن لا ينتز على الرغم من أنه يوافق لوك في وجود الجوهر إلا انه يختلف معه في مسألة التمييز بين الماهية الإسمية والماهية الحقيقية للجوهر ، فهو يرى أن الشيء لا يمكن أن تكون له إلا ماهية واحدة فقط .

أفكارنا عن العلاقات :

يتفق كل من لا ينتز ولوك بأن معنى العلاقات ليس له وجود في الواقع وبين الأشياء الطبيعية ، لكن لا ينتز يختلف عن لوك ، فهو يعتقد أن فكرة العلاقات[3] ليست من صنع العقل الإنساني ، وإنما هي في الأساس موجودة في العقل الإلهي ، هنا إشارة إلى استقلالية فكرة العلاقات عن العقل ، ولو في صورتها المثالية ، وأكثر من هذا ، لا ينتز يقول بقانون السبب الكافي ، الذي ينص على أنه لا بد لكل واقعة من سبب كاف يوضح سبب وجودها . يتبين من هذا اعتراف لا ينتز بالسببية .

وانطلاقا من هذا يحاول صياغة آرائه في الطبيعية وفي المعرفة على نحو جدلي ، بالرغم من الطابع الميكانيكي الغالب على مذهبه .

ففي المعرفة يسعى إلى المزج بين التجريبية والنزعة العقلية . وفي الطبيعة أن كل ما حولنا مفعم بالحركة والنشاط ، فلا جسم بدون حركة ، ولا حركة بدون جسم وفي هذا الصدد أشار لينين بأن لا ينتز وصل من خلال اللاهوت إلى مبدأ الترابط المحكم بين المادة والحركة .[4]

---

(١) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، الجزء الاول ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٩١ .

(٢) د . عزمي اسلام ، جون لوك ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٩٢ .

(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

(٤) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٢٨٦ .

بينما يرى لوك أن كل ما هو موجود في العالم الخارجي مجرد أشياء ، أما العلاقات فهي من صنع العقل نفسه ، بمعنى أنها ليست منفصلة عن العقل أو مستقلة عنه .

هنا نلمس مرة أخرى تراجع لوك للمثالية ، فهو ينكر وجود علاقات جوهرية موضوعية بين الظواهر ، ومستقلة عن وعي الإنسان ، وهذا ما ذهب إليه ديفيد هيوم من بعده ، وقد بينا في الفصول السابقة مدى تأثر هيوم بفلسفة لوك ، وقد ذهب إلى ان لمعرفتنا مصدرا واحدا فقط هو التجربة ، فالتجربة عنده كما هي عند لوك ، هي التي تستند إلى الإحساس والتفكير . فمعرفتنا بأي شيء خارجي ، وليكن جبلا على سبيل المثال ، أو شجرة ، أو حصانا ... الخ ، تأتي عن طريق الحواس ، ومعرفة أي شيء داخل النفس ، كالقول مثلا اني أشعر بالجوع أو العطش تأتي عن طريق التأمل الباطني أو الذاتي .(١)

هيوم أنكر - مثل لوك - وجود الأفكار الفطرية في العقل ، فالانطباعات الحسية هي مصدر أفكارنا . يكتب هيوم في هذا الموضوع : " فكرة من أفكارنا هي إذن صورة للانطباعات الحسية ، ويستحيل أن نجد بين أفكارنا فكرة واحدة لا يمكن تعقبها إلى الانطباع ، أو الانطباعات التي أحسسناها أو خبرناها ... مما قد يوهم المتعجل لو أمعن في الأمر لانتهى إلى أن أفكاره كائنة ماكانت يمكن تحليلها ، وردها خيطا خيطا وعنصرا عنصرا إلى خبرات مباشرة مارسها بالحس او الشعور ، فقد يخيل لنفسه جبلا من ذهب ، ثم يقول ها هي ذى فكرة في رأسي ليس لها أصل مما قد وقع في الحس ، لكنها في الحقيقة فكرة مؤلفة من عنصرين ، الجبل والذهب ، وكلاهما قد عرفه بالحس المباشر ، حين رأى جبلا وشهد ذهبا ، ثم جاء الآن فالف بينهما فكرة مركبة واحدة " .(٢)

ذلك هو الأساس الذى يبنى عليه هيوم نظامه الفلسفي من أن كل فكرة في الذهن يمكن ردها إلى انطباعاتنا المباشرة ، علما بأن الفكرة عنده ما هي إلا صورة باهتة خافتة للآثار الحسية .

وإن الفكرة عنده ، إما أن تكون بسيطة ، وهي التي لا يمكن تحليلها أكثر مما

---

(١) ولترستيس ، فلسفة هيجل ، المنطق وفلسفة الطبيعة ، ترجمة : د . امام عبد الفتاح امام ، تقديم د . زكي نجيب محمود . المجلد الاول ، الطبعة الثانية - دار التنوير للطباعة والنشر ١٩٨٢ بيروت ص ٤٥ .

(٢) د . زكي نجيب محمود ، ديفيد هيوم ، المعطيات السابقة نفسها ص : ٣٦ .

هي عليه ، أو مركبة ، وهي التي يمكن تحليلها وبسطها إلى عناصرها الأولية .

فعندما نتحدث عن التفاحة في مجموعها مثلا ، هي فكرة مركبة من لون وطعم وشكل[1] ، وما إلى ذلك ، وبإمكاننا أن نحللها إلى أجزائها البسيطة ، وكل فكرة عن أي جزء من أجزائها تعتبر فكرة بسيطة . كما حاول انكار السببية ، يكتب في هذا الشأن ما يلي :

" افرض أن شخصا ، رغم كونه موهوبا بأقوى ملكات العقل والتفكير ، قد جيء به فجأة إلى هذا العالم ، فإنه ولن يكن سيلاحظ من فوره تتابعا في الأشياء متصلا ، وأن حادثة تتبع أخرى ، إلا أنه لن يستطيع أن يلحظ وراء هذا الحد شيئا ، فلن يستطيع للوهلة الأولى أن يدرس فكرة السبب والمسبب مهما تكن وسيلته العقلية إلى ذلك ، وذلك لأن القوى الخاصة التي بفعلها تتم العمليات الطبيعية كلها ، لا تظهر أبدا للحواس ، وليس من المعقول أن نستنتج أنه مادامت حادثة ما في سياق معين قد سبقت أخرى ، إذن لابد أن تكون الأولى سببا والثانية مسببا ، إذن قد يكون ارتباطهما جزافا وعرضيا ، وقد لا يكون هناك مبرر عقلي نستدل به على وجود احداهما من ظهور الأخرى "[2] . ويخلص إلى القول : " إن مثل هذا الشخص ، إذا لم تزود خبرته ، يستحيل عليه أن يستعين بالتخمين أو بالتدليل العقلي ليعلم شيئا عن أي أمر من أمور الواقع ، أو أن يستوثق من أي شيء يجاوز ما هو حاضر حضورا مباشرا أمام ذاكرته وحواسه "[3] ، ويفترض أن هذا الإنسان قد حصل على خبرة أوسع ، وازدادت بشكل كبير واتيح له أن يلاحظ أن الأشياء أو الحوادث المألوفة إنما ترتبط بعضها بالبعض الآخر ارتباطا وثيقا ، فسينتج عن هذه الخبرة ، أنه لا يلبث أن يستدل على وجود شيء ما من ظهور شيء آخر ، ومع ذلك - حسب هيوم - أن هذه الخبرة لا تمكنه من ادراك أية فكرة أو معرفة بالقوة الخفية التي بها ينتج الشيء السابق شيئا لاحقا .[4]

وهكذا فقد بحث عن مبدأ آخر يؤدي إلى تلك النتيجة . وهذا المبدأ حسب هيوم - هو العادة " ذلك أنه حيثما أدى تكرارنا لعمل معين أو عملية معينة إلى ميل

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات نفسها ، ص : ٣٩ .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، النص رقم (٥) ص : ١٨٢ .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، النص نفسه ص : ١٨٣ .
(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

فينا نحو العودة من جديد إلى أداء الفعل نفسه أو العملية نفسها دون أن يكون ثمة دافع من تدليلات العقل أو عملياته "(١) .

إذن العادة عند هيوم هي المبدأ الذى يجعل خبرتنا ذات نفع ويتيح لنا أن نتوقع في المستقبل سلسلة من الحوادث ، شبيهة بسلسلة الحوادث التي ظهرت فيما مضى(٢) .

وبناء على هذا التصور ، فإن التجربة لا يمكن بأية حال أن تأتي إلينا إلا بالضرورة ولا بالكلية ، فأنا أستطيع أن أرى أو أسمع بأن شيئا ما موجود فحسب ، ولكن لا أستطيع أن أرى أو أن أسمع بأنه لابد أن يوجد(٣) .

فليس هناك - حسب هذا الموقف - أى أثر من آثار الضرورة والسببية . فالبرد مثلا يجمد الماء ، ولكن ليست هناك رابطة محكمة بين البرد والتجمد(٤) . وكل ما هنالك هو ترابط الأفكار عن طريق تداعي المعاني .

هنا ، هيوم ، مرة أخرى يلتقي مع لوك ، في رفضه لفكرة وجود علاقات موضوعية بين الظواهر .

غير أن التقارب الموجود بين هذين الفيلسوفين لا يعني أنهما متفقان في كل شيء ، فثمة نقطة أساسية يختلفان حولها ، هي ، أن لوك يعترف بوجودا لعالم الخارجي ، وأنه مستقل عن وعينا ، وبإمكان الإنسان معرفته . بينما هيوم - كما هو الحال بالنسبة لكانط - يفصل بين الظواهر - عما يظهر ، الإحساس عن المحسوس . الشيء من أجلنا عن الشيء في ذاته - علما أن هيوم لم يقل بالشيء في ذاته ، فقد تجاهله تماما ، كما أنكر أن يكون العالم الخارجي مستقلا عنا(٥) .

اما كانط فانه يسلم بوجود "الشيء في ذاته" ولكنه يقول إنه لا يمكن معرفته أو ادراكه ، وأنه يختلف عن الظاهرة هنا لابد من التمييز بين المجهول ، ومالا يمكن

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٨٥ .
(٣) ولترستيس ، فلسفة هيجل ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٤٦ .
(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٥) لينين ، المادية والمذهب النقدى التجريبي ، المعطيات السابقة نفسها ص : ١٠٨ .

معرفته ، فالمجهول يمكن أن يعرف فيما بعد ، أما ما لا يمكن معرفته يبقى مجهولا إلى الأبد ،لهذا السبب اعتبر هيوم وكانط من الفلاسفة اللا أدريين .

من المعروف أن انجلز قد دحض مقولة كانط "الشيء في ذاته" لا يمكن معرفته ، وقد عبر صراحة عن اعتراضه على هيوم وكانط معا ، نتيجة لمواقفهما السابقة .

وأيا ماكان ، فإن نظرية المعرفة ، كما في جميع ميادين العلم الأخرى تجب المحاكمة بطريقة ديالكتيكية ، وهذا يعني أنه يجب عدم افتراض وجود معرفة جاهزة ثابتة لا تتغير ، بل لابد من القيام بالتحليل والبحث لاظهار المعرفة من اللامعرفة ،وبالطريقة التي تنضج فيها المعرفة غير الكاملة اكمل ودق[1] ولتصبح الأشياء في ذاتها من أجلنا .

فما دمنا بصدد البحث في تأثير فلسفة لوك بهيوم يحسن الإشارة ولو بشكل عام إلى تأثيرها في الفلسفة المادية الفرنسية .

فلمادية الفرنسية كما هو معلوم ، لم تكن - كما يقول ماركس - نضالا ضد المؤسسات السياسية القائمة ،وضد الدين واللاهوت ، بل كانت في الوقت نفسه نضالا صريحا ضد ما ورائية القرن السابع عشر ، وبوجه خاص ضد ما ورائية ديكارت وسبينوزا ولا يبنتز ...[2] ويبدو تأثر فولتير بفلسفة لوك المادية في نظريته المعرفية ، فقد حاول في المعرفة المزج بين التجريبية الحسية ببعض العناصر العقلية ،الأحاسيس عنده هي أصل المعارف جميعا .[3]

وفي الاخلاق يناضل مثل لوك ضد فطرية المبادىء الأخلاقية .[4] وبالنسبة لكوندياك فقد كان نصيرا مباشرا لأفكار لوك ،وظف مذهبه الاحساسي ضد ما ورائية القرن السابع عشر ،ويمكن النظر إلى فلسفته من خلال المراحل الثلاث :

١- فالمرحلة الأولى من اعماله الفلسفية يقف على أرضية فلسفة لوك . فكتابه "رسالة في المذاهب" لا نجد فيه شيئا جديدا كل الجدة على ما أتى به لوك قبلا . سواء يتعلق الأمر برفض الأفكار الفطرية ،أو بمصادر المعرفة التي يعزوها

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١١٣ .
(٢) كارل ماركس ، مختارات من المؤلفات الاولى ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١٠٣ .
(٣) جماعة من الاساتذة السوفييت ، موجز تاريخ الفلسفة ، المعطيات السابقة نفسها ص : ٣٠١ الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق ،المعطيات السابقة نفسها .

إلى الإحساس والتفكير . هذا فضلا عن اهتمامه بعملية الانتباه .(١)

وفي المرحلة الثانية : يلاحظ نوعا من التطور ، فقد استطاع أن يطور مذهبه الحسي إلى الأمام . فلم يكتف بترديد أفكار لوك ، بل تناولها تنقيحا وتصويبا ، وحتى نقدا أيضا . ويأخذ على لوك عدم تمييزه بين الإحاسيس والتفكير ، بحيث أن لوك يضع الإحاسيس والتفكير في درجة واحدة ، وفي مستوى واحد ، بينما كوندياك يرى أن التفكير ليس أصلا مستقلا للمعرفة ، بل أنه ينبع من الإحاسيس ويكون ذلك شكلا ثانويا .(٢)

إلا أنه في المرحلة الأخيرة من حياته ، غير موقفه ، وأصبح أميل إلى العقلية أكثر من التجريبية ، ويبدو ذلك بوضوح في كتاباته التي تناول فيها المنطق ، ولغة الحساب ،(٣) وعند لا مترى نجد مزيجا من المادية الديكارتية الفيزيائية . والمادية الإنجليزية ، (مادية لوك على وجه التخصيص) . فهو يرى أن الصور جميعا لا يمكن أن توجد بمعزل عن المادة ، وأن المادة بدورها لا تنفصل عن الحركة .(٤)

ثم بعد ذلك ، تأتي مادية ديدرو لتكون أبرز وجوه المادية الفرنسية اطلاقا ، فهو ينطلق ، شأنه في ذلك شأن الماديين الفرنسيين الآخرين من القول بأزلية الطبيعة ، وخلودها ، ولا نهايتها ، وأكثر من هذا أنه حاول أن يضفي على آرائه الطبيعية بعض الملامح الديالكتيكية ، والتي سمحت له بالانفلات من اصفاد المادية الميكانيكية الضيقة . كل شيء عنده في صيرورة ، في حركة ، في تغير ، شيء يزول ويختفي ، وشيء يظهر . ولقد لقيت هذه الجوانب الديالكتيكية في فلسفة ديدرو تقديرا عاليا من قبل انجلز .(٥)

وهذا بوجه عام تأثير فلسفة لوك في الفلسفة الانجليزية والفرنسية على السواء .

---

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٣٠٣ .
(٢) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٣) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .
(٤) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ١١٤ .
(٥) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، الصفحة نفسها .

ويمكن القول إن الأهمية التاريخية للتجربة المادية في القرن السابع عشر عند لوك ، ثم عند الفلاسفة الماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، بالرغم من طابعها الميتافيزيقي ، وحدودها - تكمن أساسا في نضالها ضد المثالية ، وفي الدفاع والتطوير اللاحق للفهم المادى للعالم الذى اكتسى فيما بعد شكلا تاريخيا جديدا ذا ملامح أكثر وضوحا (١) .

***

(١) المرجع السابق ، المعطيات السابقة نفسها ، ص : ٣١٩ .

الخاتمـــة

الخاتمة :

في ضوء ما تقدم يمكن أن نخلص إلى ما يلي :

أولا - إن الفلاسفة العقليين يعتقدون بوجود مفاهيم ،وأفكار فطرية في العقل سواء أكانت هذه المفاهيم مطبوعة في العقل ساعة الميلاد أو قبله ، كما ذهب أفلاطون في نظرية المثل ، أم أنها موجودة في العقل على شكل استعدادات أو ميول كما هو الحال بالنسبة لديكارت وسبينوزا ولايبنتز . وعلى ذلك فإن امكانية بلوغ المعرفة في نظر هؤلاء الفلاسفة تعود إلى وجود أفكار فطرية تأتي في مقدمتها المسلمات والبديهيات في الرياضيات ، والمنطق ، والمبادىء الأولية في الفلسفة والأخلاق ، فالتجربة لا تخلقها ،ولا تكتسب منها ، وإنما توقظها فينا ،وهذه المبادىء قوام جميع معارفنا . إن العقل لا الحواس يمارس الدور الأساسي في عملية المعرفة . وبذلك كان ديكارت ومن ثم سبينوزا ولايبنتز من دعاة المذهب العقلي ، الذي يعطي الأولوية للمعرفة العقلية ، ويؤكد على فكرة الله ، والنفس ، والمطلق والكلية والضرورة على أنها ذات منشأ قبلي ، فهي غير مكتسبة من العالم الخارجي ، لكن النفس هي التي تستنبطها من ذاتها ، وتتميز هذه الأفكار بأنها واضحة ،بسيطة قبلية ، أولية ، لا تحتاج إلى برهان للتأكد من صدقها ويقينها .

من هنا يتبين لنا بوضوح مدى أهمية الأفكار الفطرية عند العقليين في ادراك الحقائق والمعارف .

ثانيا - بالرغم من الطابع المثالي الغالب على فلسفة هؤلاء ، يمكن استشفاف بعض المضامين الايجابية وهي :

أ- إن آراء ديكارت الفيزيائية أعطت دفعا جديدا للمادية في العصر الحديث ، فهو من أبرز علماء الرياضيات والفيزياء وأحد مبدعي الفهم المادي للطبيعة .

وبالنسبة لسبينوزا فقد عارض النظرة الغائية ، وكافة المواقف الوهمية في الطبيعة . لا من خير ولا من شر في الطبيعة ، فالطبيعة لا تهدف إلى غاية ، فمن الخطأ في تصورات سبينوزا أن نطرح هذا السؤال : لأية غاية توجد الأشياء ؟ بل السؤال الصحيح في نظره هو : لماذا توجد هذه الأشياء كما هي في الواقع ؟سبينوزا كما هو معروف يرفض حركة الكل ، لأنه يفهم حركة الأجزاء في الطبيعة فهما ميكانيكيا

خالصا ، وعلى الرغم من أنه يلاحظ التمايز الواضح بين الظهر والجوهر ، والنتيجة والسبب يحاول أن يتحسس التقارب بينهما ، ويوضح بالتالي الجوانب الديالكتيكية في نظرته . إلا أن سبينوزا في الطرف الآخر فهم الجوهر على أنه ثابت لا يتغير ، ثم أبقى على التناقض بين الجوهر وأحواله ، فالتجربة ذات قيمة أساسية بالنسبة للأحوال ، ولكنها تفقد قيمتها في معرفة الجوهر ، وصفاته ، هذا التعارض بين العقل والحواس الذى هو انعكاس للتعارض بين الجوهر وأحواله ، يؤدى في آخر المطاف إلى ميل سبينوزا إلى أن الأفكار الحقيقية تظهر في وعي الإنسان مباشرة ، فوعي الإنسان يقوم باستيعاب الرابطة الداخلية للأشياء بضربة واحدة ، وليس عملية وكسيرة طويلة وشاقة للمعرفة المتغيرة ، وفي هذا يتلخص مضمون الطريقة الحدسية عند سبينوزا .

وفيما يتعلق بلايبنتز ، فقد حاول في مجال النظرية المنطقية أن يتجاوز المنطق الصورى فهو يقرر مقولة الاحتمال إذ يرى فيها جانبا معرفيا أساسيا ، فالاحتمالية إذن لا يمكن أن تكون حالة ذاتية للمعرفة خالية من المضمون الموضوعي ، بل على العكس إنها تجسد علاقة موضوعية للواقع .

هنا لايبنتز يلتقي مع لوك في المعرفة الاحتمالية .

وبالرغم من رفض لايبنتز وجود الفراغ ، فهو يرفض السكون المطلق ، فالسكون في نظره لا يكون إلا نسبيا ، الحركة هي المطلقة ، التسليم بوجود الحركة يصبح في اعتقاده كاف لتفسير كافة الظواهر ، في هذا يختلف عن ديكارت ، لأن ديكارت يقر بثبات كمية الحركة ، ويختلف أيضا عن سبينوزا ، لأن هذا الأخير ينظر إلى الجوهر على أنه ثابت لا يتغير . وفوق هذا يتقدم لايبنتز في مبدئه الاتصال أو الترابط الذى يمكن اعتباره بمثابة منطلق لنظرية التطور في الوجود .

ثالثا - إن لوك يختلف أساسا عن العقليين ، فهو تجريبي مادى يرجع جميع انواع المعرفة إلى الادراك الحسي للعالم الخارجي . وضع مهمة أساسية في الفلسفة ، وهي مهمة تحليل القدرة المعرفة لدى الانسان ، وتفسير أصول المعرفة البشرية . لوك يطرح هذه المسألة ، وحاول معالجتها من موقع مادى . ففي هذه المعالجة يبدأ بنقد تعاليم العقليين (ديكارت سبينوزا ، لايبنتز) في الأفكار الفطرية مؤكدا أن كافة الأفكار والمفاهيم الإنسانية ليست فطرية أو موروثة ، بل مكتسبة ، فهي تظهر لدى الانسان عند تأثير الأشياء في العالم الخارجي على أعضاء الحس ، فانكار لوك للأفكار الفطرية والمبادىء الأولية ينصب على المبادىء نفسها لا على

قدراتنا العقلية . بمعنى أكثر وضوحا ، أن هذه المبادىء الأولية ليست فطرية فينا ، وليست أولية ، بمعنى أسبقيتها على التجربة الحسية ، وإنما يقينية وواضحة بذاتها ، لأن لدينا من الإمكانات والقدرات ما يسمح لنا بادراكها ومعرفتها بهذه الدرجة من الوضوح والتسليم بها . لقد حاول لوك أن يثبت لنا بالحجج والأدلة على أن المبادىء سواء اكانت نظرية كمبدأ عدم التناقض ، أو كانت عملية (أخلاقية وقانونية ودينية) ليست فطرية ، فلو كانت كذلك لأمكن للأطفال والمتوحشين معرفتها . فهم في الواقع لا يعرفون عنها أي شيء ، بالرغم أن بامكانهم أن يفكروا تفكيرا سليما . والشيء نفسه بالنسبة للمبادىء الأخلاقية ، إنها تختلف من بلد إلى بلد ، ومن وقت لآخر ، ومن شعب إلى شعب ، ومن دين إلى دين . فليس هناك إجماع كلي حولها ، إننا نكتسبها من بيئتنا ، ونعتاد عليها ، كما لو أنها فطرية .

رابعا : لوك يفصل بين الكيفيات الأولية والثانوية ، للأشياء ، الكيفيات الأولية واقعية موضوعية ، ملازمة للأشياء ذاتها ، لا تنفصل عنها مهما طرأ على هذه الأشياء من تغيرات . من هذه الكيفيات ، الصلابة والامتداد والشكل ، والحركة .

أما الكيفيات الثانوية فهي الكيفيات التي تبدو لنا أنها ملازمة للأشياء ، بينما في الواقع ليست كذلك ، من هذه الكيفيات اللون والصوت والطعم والرائحة ، هذه الكيفيات ليست في الأجسام ذاتها ، بل مجرد انفعالات ذاتية تنجم عن شكل وحركة الدقائق التي منها تتألف الأشياء والتي لا تدرك حسيا . وقد يكون السبب في فصل الكيفيات عند لوك راجع إلى تردده بين التفسيرين المادي والمثالي . ذلك أن لوك أحيانا يؤكد أن معظم أفكار الإحساس توجد في الذهن دون أن تشابه شيئا يوجد خارج فكرنا ، وأحيانا أخرى يتحدث حديثا شبه مادي عن حركة أجسام من الأشياء الخارجية إلى العين ، تبعث فينا صورها . فلما جاء باركلي قام يرفع الحواجز التي وضعها لوك بين هذه الكيفيات ، واعتبر الكيفيات الأولية والثانوية كلها ذاتية .

من الملاحظ أن فكرة ذاتية الكيفيات لم يعبر عنها بشكل واضح إلا في المرحلة التي وصل فيها العلم إلى درجة معينة من التقدم ، وأصبح بإمكان العلماء وقتئذ القيام بتحليل الألوان والأصوات إلى موجات لها ذبذبات أو أطوال معينة ، هذا شيء لا يمكن إنكاره ، لكن من جانب آخر لا بد من الأخذ بالاعتبار الموقف الطبيعي الذي يؤكد على الوحدة التي لا تنفصم بين الكيفيات الأولية والثانوية . ففصل الكيفيات في

هذه الحال يعتبر خلطا بين الموقفين العلمي والطبيعي .

وفيما يتصل بفكرة الجوهر ، لوك ،ومن ثم باركلي وهيوم انتقدوا فكرة الجوهر واعتبروها دخيلة ومفروضة على الذهن البشري على نحو ما ، بالرغم من أن لوك قبل بها ، لكن فيما يبدو لم يكن مرتاحا لها ،ولم يأخذ بها إلا حين أراد البرهان على وجود الله ، فالجوهر عنده مفهوم غامض ، غير معروف على الاطلاق . إذ يرى أنه كل ما ازددنا تعمقا في طبائع الأشياء فاننا لابد أن نقع في ظلام وجهل لاحد لهما . وبالنسبة للعلاقات ، فانها لاتتضمن أي مضمون موضوعي ، فنظام الطبيعة ، وفق هذا التصور ينبغي استخلاصه من العقل ، لا من الطبيعة نفسها .

هنا يبدو تنازل لوك للمثالية .

خامسا : بعض الملامح للجدل عند لوك ولو بصورة جنينية ،وذلك في الربط بين الادراك وعملية التجريد ،وهذا الربط يساعد ولا شك على فهم ماهية الأشياء وخصائصها ، والنفاذ إلى أعماقها .

وثمة ملاحظة على درجة كبيرة من الأهمية وهي أن باركلي اتهم الماديين بالانهماك في التجريد ، ففصل الإحساس عن الموضوع يعني عند باركلي تجريدا فارغا لا أساس له ، لأن الموضوع والإحساس في اعتقاده هما بالفعل الشيء نفسه . ولذلك لا يمكن بأي حال تجريد الواحد من الآخر .

ومعنى هذا ،أن اتهام باركلي الماديين بالانهماك في التجريد لهو دليل واضح على أن المادية ليست ضحلة ،فبامكانها ، بل من مقتضياتها القيام بعمليات تجريدية . فكان يعتقد أن التجاء الماديين من بينهم لوك - لعملية التجريد يعتبر نقطة ضعف ، بينما في الواقع على العكس تماما ، فهي نقطة هامة جدا لتصفية الحساب مع بعض أوهام المثالية ازاء المادية .

وحديثه عن الاحتمال ، لانه يحاول أن يجد الأساس الذى ينبني عليه وذلك في مسألتين :

١- ما نعرفه نتيجة لتجاربنا ،ولخبراتنا الخاصة ،

٢- شهادة الناس التي تستند إلى معرفتهم الخاصة .

وليس من شك في أن البحث في الاحتمال له علاقة بمشكلة الضرورة والمصادفة ، الضرورة تجسد العلاقة الحتمية بينما المصادفة تجسد العلاقة الاحتمالية . فالضرورة

والمصادفة مترابطتان ترابطا جدليا . فأي ظاهرة يمكن أن تكون ضرورية وصدفية في الوقت نفسه ، فإذا أخذنا مثلا المطر كظاهرة فهي بصفتها مصادفة بالنسبة لهلاك النبات ، ونتيجة ضرورية للأحوال الجوية في منطقة التي تهطل فيها .

فإن الربط بين مسألة الاحتمال بالمصادفة والضرورة يعني أول ما يعني اقرار لوك بجدلية المعرفة ولو ضمنا على الأقل ، فالمعرفة في تصوراته ليست ناجزة ، وانما هي سياق تاريخي .

ونتيجة مشاركة لوك في الحياة السياسية والنشاط الاجتماعي بشكل عام ، فإن تعاليمه الاجتماعية تشكل جانبا مهما في مجمل نظام لوك الفلسفي ، لوك يعطينا صورة متكاملة بدولة دستورية بورجوازية ، والتي يرى فيها نموذجا ، والمثل الأعلى ، لذلك يهاجم لوك بعنف نظرة فيلمر في الحق الالهي للملوك ، لوك يرى أن السلطة لابد أن تخضع لارادة الشعب ، ولرقابته .

فالدولة تقام من قبل الناس ، وليس من قبل الله .

وهكذا جاءت نظريته في السياسة متفقة مع نظريته في المعرفة . فكما رفض الأفكار الفطرية في المعرفة رفض كذلك الحق الالهي المقدس للملوك ، فالأسرة الـ ـ ، أفرادها لا يولدون وفي عروقهم أو دمهم الحق الإلهي في السلطة .

وايا ما كان الأمر فإن نظرة لوك الموضوعية لأسبقية الإحساس على التفكير كانت لها تأثير كبير سواء في الفلسفة المعاصرة له ، أو اللاحقة عليه ، وسواء أكان هذا التأثير سلبا أو ايجابا .

والمقصود بالتأثير السلبي هنا ، الاتجاه الفلسفي الذى عارض فلسفة لوك ، وتناول تجربته بالنقد ، منتهيا إلى النزعة الذاتية ، وبيرز لا يبنتز في هذا الاتجاه .

أما المقصود بالتأثير الإيجابي ، الاتجاه الفلسفي الذى تناول فلسفة لوك التجريبية ، ثم عمقها وطورها مثل الفلسفة المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر .

فالمادية الفرنسية لم تكن - كما يقول ماركس - نضالا ضد المؤسسات السياسية القائمة ، وضد الدين واللاهوت ، بل كانت في الوقت نفسه نضالا صريحا ضد ما ورائية القرن السابع عشر ، وبوجه خاص ضد ما ورائية ديكارت وسبينوزا ولا يبنتز .

وأن الأهمية التاريخية للتجربة المادية في القرن السابع عشر عند لـــــوك ، وفي القرن الثامن عشر عند الفلاسفة الماديين الفرنسيين بالرغم من طابعها الماوراثي ومحدوديتها ، تكمن أساسا في معارضتها للمثالية ، وفي الدفاع والتطوير اللاحـــق للفهم المادى للعالم الذى اكتسى فيما بعد شكلا تاريخيا جديدا ذا ملامح أكثـــر وضوحـــا .

***

المصادر والمراجع

المصادر والمراجـــع

المصادر باللغة العربية :

١- ادموند هوسرل ، تأملات ديكارتية ، ترجمة وتقديم الدكتورة نازلي اسماعيل ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٩ .

٢- أفلاطون ، محاورات أفلا طون ، عربها عن الإنجليزية ، د . زكي نجيب محمود مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٣ .

٣- أفلاطون ، جمهورية أفلاطون ، ترجمة ودراسة د . فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٤- الغزالي ، المنقذ من الضلال ، بقلم : د . عبد الحليم محمد ، الطبعـــة الثانية ، دار الكتب الحديثة ١٩٧٤ .

٥- امانويل كانط ، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة ، ترجمة الدكتورة نازلي اسماعيـــل حسين ، مراجعة د . عبد الرحمن بدوى ، دار الكتاب العربي القاهـــرة ١٩٦٧ .

٦- جوتفريد فيلهلم لايبنتز ، المونادولوجيا ، والمبادىء العقلية للطبيعة والفضـــل الإلهي ، نقلها الى العربية ، وقدم لها وعلق عليها ، د . عبد الغفـــار مكاوى ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٨ .

٧- رينه ديكارت ، مقالة الطريقة لحسن قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة في العلوم ترجمة إلى العربية ، وقدم له وعلق عليه د . جميل صليبا ، الطبعة الثانيـــة ، للجنة اللبنانية لترجمة الروائع ، بيروت ١٩٧٠ .

٨- رينه ديكارت ، مبادىء الفلسفة ، ترجمه وقدم له ، وعلق عليه د . عثمان امين ، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٦٠ .

٩- رايشنباخ ، نشأة الفلسفة العلمية ، ترجمة ، د . فؤاد زكريا ، المؤسســـة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الثانية .

١٠- رسل ، مشاكل الفلسفة ، ترجمة : د . عبد العزيز البسام ، محمود ابراهيـــم محمد ، الطبعة الثانية ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة .

١١- روجيه غارودى ، النظرية المادية في المعرفة ، تعريب ابراهيم قريط ، دار دمشق ، بدون تاريخ .

١٢- سبينوزا ، نصوص مختارة من " بحث في اصلاح العقل " ، ونصوص من بحث في الأخلاق ، ترجمة تيسير شيخ الارض ، الطبعة الاولى ، دار الأنوار ، بيروت ١٩٦٦ .

١٣- كارل ماركس ، مختارات من المؤلفات الأولى ، ترجمة : الياس مرقص ، دار دمشق للطباعة والنشر .

١٤- لينين ، المادية والمذهب النقدى التجريبي ، دار التقدم - موسكو ١٩٨١ .

١٥- لينين ، الدفاتر الفلسفية ، ترجمة الياس مرقص ، الجزء الثاني ، الطبعة الاولى ، دار الحقيقة ، بيروت ١٩٧٤ .

***

المصادر باللغة الاجنبيـــة :

16- Descartes,Discours de la methode, Pourbien conduire saraison et chercher la vérité dans les sciences.
Par J.M.Fataud, bordas, Paris 1976.

17- Johon Locke, Draft "A" première ESQUISSE de l'essai philosophique concernant l'entendement humain, traduction et motes par Maryléme Delbourg -Delhie , Paris , J.Vrin. 1974 .

18- Johon Locke, Essai philosophique concernant l'entendement humain traduit par Coste, Paris ,Librairie philosophique, J.Vrin , 5 em edition 1972.

19- Leibniz,Nouveaux essai sur l'entendement humain ,chronologie et introduction par Jacque Brunschwig .
Garnier -flammarion, Paris 1966 .

المراجـــــــع

١- ابراهيم عبد الفتاح — الاجتماع والماركسية ، الطبعة الأولى ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٨٠.

٢- الحاج كمال — مدخل إلى فلسفة ديكارت ، الطبعة الأولى ، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦١.

٣- الحبابي محمد عبد العزيز — مصطلحات فلسفية ، دار الكتاب ، الدار البيضاء.

٤- اسلام عزمي — جون لوك ، نوابغ الفكر الغربي ، دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٦٤.

٥- العظم صادق جلال — دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة ، الطبعة الثانية ، دار العودة بيروت ١٩٧٤.

٦- أفانا سيف — أسس المعارف الفلسفية ، الترجمة الى اللغة العربية ، دار التقدم ، موسكو ١٩٧٩.

٧- الأهواني أحمد فؤاد — أفلاطون ، نوابغ الفكر الغربي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٩.

٨- امام عبد الفتاح امام — مدخل إلى الفلسفة ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٧٠.

٩- امام عبد الفتاح امام — المنهج الجدلي عند هيجل ، دار المعارف بمصر ١٩٦٩.

١٠- أمين عثمان — الفلسفة الرواقية ، مكتبة الانجلز المصرية ، القاهرة ١٩٧٠.

١١- اوبزرمان ثيدور — تطور الفكر الفلسفي ، ترجمة سمير كرم ، الطبعة الاولى ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٧

١٢- ايسايابرلين — عصر التنوير ، ترجمة د. فؤاد شعبان مراجعة ناظم الطحان ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ١٩٨٠.

١٣- ب-م ،هولت — صانعو أوربا الحديثة ، ترجمة موفق شقير . منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ١٩٨٠.

١٤- بلدى نجيب — ديكارت ،نوابغ الفكر الغربي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٩.

١٥- بلوخ ارنست — فلسفة عصر النهضة ، ترجمة الياس مرقص دار الحقيقة ،بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٨٠

١٦- بوليتزر جورج — أصول الفلسفة الماركسية ،تعريب شعبان بركات ، الجزء الأول ،منشورات المكتبة المصرية ، صيدا ، بيروت .

١٧- تيزيني طيب — حول مشكلات الثورة والثقافة في العالم الثالث ، الطبعة الثالثة ،دار دمشق ١٩٧٨.

١٨- تيزيني طيب — مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط ، طبعة خاصة ،دار دمشق ١٩٨١

١٩- جماعة من الأساتذة السوفييت — موجز تاريخ الفلسفة ، ترجمة توفيق ابراهيم سلوم ، مراجعة د . خضر زكريا . الجزء الأول ، دار الجماهير العربية ١٩٦٠.

٢٠- ديدى عبد الفتاح — هيجل ، نوابغ الفكر الغربي ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨.

٢١- رسل برتراند — تاريخ الفلسفة الغربية ،الكتاب الثالث ، ترجمة ،د . فتحي الشنيطي ، الهيئة المصرية ١٩٧٧.

٢٢- زاموشكين — سولوفيوف ، موتروشيلوفا ، الفلسفة والعملية الثورية ، الترجمة إلى اللغة العربية دار التقدم ١٩٨٢.

٢٣- زكريا فؤاد — سبينوزا ، الطبعة الثانية ، دار التنوير للطباعة والنشر ١٩٨١ ، بيروت .

٢٤- ولترستيس — فلسفة هيجل ،المنطق وفلسفة الطبيعة ،ترجمة د .امام عبد الفتاح إمام ،تقديم ،د . زكي

٢٥- صليبا جميل — نجيب محمود ، المجلد الأول ، الطبعة الثانية ، دار التنوير للطباعة والنشر ١٩٨٢ .
المعجم الفلسفي ، المجلد الاول والثاني ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٧٨ .

٢٦- كرم يوسف — تاريخ الفلسفة الحديثة ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٩ .

٢٧- مجموعة من العلماء السوفييت — الموسوعة الفلسفية ، ترجمة سمير كرم ، مراجعة د . صادق جلال العظم ، وجورج طرابيشي الطبعة الثانية ، دار الطليعة بيروت ١٩٨٠

٢٨- محمود زكي نجيب هيوم — نوابغ الفكر الغربي ، دار المعارف القاهرة ١٩٥٨ .

٢٩- مطر حلمي — الفلسفة عند اليونان ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٤ .

٣٠- هنترميد — الفلسفة أنواعها ومشكلاتها ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٦٩ .

٣١- هويدى يحيى — باركلي ، نوابغ الفكر الغربي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٠ .

٣٢- هويدى يحيى — مقدمة في الفلسفة العامة ، الطبعة الثامنة ، القاهرة ١٩٧٢ .

***